الإسلام والمسلمون

فى أسيا الوسطى والقوقاز

تأليف

محمد يوسف عدس

تقديم

أ.د. وليد فكري فارس

ISBN 978 – 967 – 2041 – 06- 1 : الترقيم الدولي

المؤلف : محمد يوسف عدس

عنوان الكتاب : الإسلام والمسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز

بيانات النشر : كوالالمبور من إصدارات مركز دراسات العالم الإسلامي

الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا

First Edition 2017



FAJAR ULUNG SDN.BHD

Main office: No. 42G Jalan 6/21D, Medan Idaman,
Batu 5, Jalan Gombak, 53100 Kuala Lumpur, Malaysia
Tel: +603 4021 9023 / +603 4021 8025 *Fax:* +603 4021 9029
Email: info@fajarbooks.com.my
Website: myfajar.com

محتويات الكتاب

مقدمة أ.د. وليد فكري فارس

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلي اله الطاهرين واصحابه الاخيار

وبعد

فإن الكتب المنشورة بالعربية تؤرخ لقضايا وشعوب إسلامية معاصرة كثيرة، ولكن يغلب علي هذا النشر صفتان هما السطحية والعاطفية في العرض، وبذلك تصبح كثير من هذه الكتب تثير مشاعرنا ولكن لاتقدم دراسة عميقة واعية تعرفنا بالأزمة، وتعيننا علي تحديد دورنا في مشاركة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ محمد عدس من النوادر الذين يدققون فيما يكتبون وينفقون جهدا ووقتا ومالا في سبيل العلم ونشره.

ويعاونه في ذلك بعد توفيق الله عزوجل أدوات نقدية وتحليلية بارزة ومعرفة واسعة واطلاع فريد بالمنشور باللغتين العربية والإنجليزية ولذا تجده في كل ما يكتب يضيف جديدا ويهدم مفاهيم بالية ويحيي مفاهيم أصيلة .

الأستاذ محمد عدس في إطار اهتماماته الفكرية والثقافية الواسعة من التاريخ للفكر والمكتبات وغيرها؛ تجده دائما واضح الاتجاه فهو في كل مايكتب يخدم الإسلام والمسلمين تاريخا وفكرا، فهو يحمل هما ومشروعا كبيرا لم يتكسب منه قط، بل أنفق فيه عمره وماله وجهده وصحته حسبة في سبيل الله مع كل ما واجهه من مصاعب واحداث جسام في حياته.

في هذا الكتاب يتناول الأستاذ محمد عدس منطقة تهفو إليها نفوس المسلمين فهي منبع العلماء الأوائل ممن خدموا الإسلام والعربية، وهي منطقة تتميز بثراء ثقافي وحضاري بارز، وبتنوع بشري كبير تبرز فيه سمة البساطة والتواضع والتمسك بالإسلام .

وهي منطقة منذ ضعف دولة الإسلام تعرضت لمجازر من المحتلين والغاصبين، ولكن بقيت مقاومة عصية علي كل محاولات التنصير والتغيير والإلحاد.

هذه هي منطقة وسط آسيا والقوقاز التي برز منها الشعراء والعلماء والكتاب والمثقفين من الرجال والنساء، فكانوا منارات في تاريخ الإسلام.

وكعادة المؤلف -كما في مؤلفه الماتع عن الفلبين وتاريخ الإسلام بها- يعود إلى مصادر هامة ورئيسية في سرد هذا التاريخ مع

لقاءاته المتعددة للكثير من الشخصيات البارزة في هذه المنطقة من العالم والتي تضيف عمقا في فهم الأحداث وتحليل تاريخ المنطقة وكذلك السياسة الدولية المحيطة بها.

هذا الكتاب سيكون إضافة هامة للمكتبة العربية حول تاريخ الإسلام وشعوبه، وحول التحديات الإقليمية والدولية التي تواجهها هذه الشعوب في هذه المنطقة من العالم، وهو كتاب ليس للقراءة والمتعة، بل للفهم والعمل في سبيل عودة الوعي بعظم هذه الأمة الواحدة وتضحياتها في سبيل الحفاظ علي دينها وهويتها في ظل عواصف وتحديات عالمية .

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

وليد فكري فارس

مدير مركز شؤون العالم الإسلامي

الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا

مقدمة المؤلف

كانت بداية صلتي بهذا الموضوع عندما اشتعلت الحرب الشيشانية في ديسمبر سنة 1994م .. وكنت مشغولا حينذاك بمتابعة تطورات العدوان الصربي على البوسنة.

ولكنى واظبت على نشرات الأخبار العالمية وقرأت تعليقات الصحف وتحليلات المراقبين المستقلّين وآراء السياسيين، واستطعت أن أستوعب أطرافًا هامة من القضية وأن أفهم الأسباب المباشرة للحرب فهمًا أتاح لي متابعة أحداثها كقارئ عادي للأحداث، أما باعتباري باحثًا فقد ظلت أمور كثيرة غير مفهومة لي ، وفي بعض الجوانب شعرت بأنها تكاد تكون مستغلقة .. مثلا: تفكّكَ الاتحاد السوفييتّى وذهبت كل الدول التي كانت تابعة له إلى حال سبيلها ، واقترحت روسيا أن تلتئم الجمهوريات الستة عشرة في الاتحاد السوفييتى السابقة مع روسيا في اتحاد كونفدرالي جديد ، ولكنها رفضت جميعًا ، ومضت في طريق الاستقلال دون اعتراض من روسيا؛ فلمذا شنّت روسيا الحرب على الشيشان بالذات؟

زعم الروس أن جوهر دوداييف رئيس جمهورية الشيشان أعلن استقلال بلاده ورفض الانضمام إلى الاتحاد الكونفدرالي المقترح وخالف بذلك الدستور.

لقد كانت جمهورية تترستان المسلمة في موقف مماثل من حيث الرفض ومن حيث الموقع الجغرافي ؛ إذ تقع على حدود روسيا مثل الشيشان ، فلماذا عالجت روسيا الأمر معها بالمفاوضات فتنازلت لها عن صلاحيات وسلطات واسعة ، ولمّا أبرمت معها اتفاقية احترمتها ونفذتها..؟ ؛ ولماذا لم تعالج مشكلاتها مع جمهورية الشيشان بالمفاوضات من أول الأمر..؟ ثم لمّا اضطرت إلى المفاوضات بعد هزيمتها سنة 1996 لماذا لم تحترم اتفاقاتها مع الشيشان ، ولم تنفذ بندًا واحدًا منها ثم عادت سنة 1999 لتشن حربًا جديدة على الشيشان لتستكمل تدميرها وإبادة شعبها ..؟!

في الحرب الأولى سنة (1994 – 1996م) غزت روسيا الشيشان بجيش كبير مكون من مائة ألف جندي ، علاوة على ما يسمونه بقوات "ألفا" الخاصة التابعة لوزارة الداخلية، واستخدمت أحدث وأقوى ما في ترسانتها العسكرية من أسلحة تقليدية، والمعروف أن الجيش الروسي هو أقوى جيش بعد جيش الولايات المتحدة ، ولكن انتهت الحرب الشيشانية بهزيمة مخزية لهذا الجيش رغم أنه كان يواجه عددًا من المقاتلين الشيشانيين لم يزد عن بضعة آلاف وفق الإحصاءات الروسية نفسها ، فكيف حدث هذا ..؟ كيف استطاع المقاتلون الشيشانيون –على قلَّتِهِمْ– وبأسلحتهم المتواضعة أن يصنعوا هذه الهزيمة للقوات الروسية ..؟ ، أكثر من هذا كيف

استطاع هؤلاء المقاتلون أن يستمروا في القتال والمقاومة لمدة سنتين دون توقّف أو كلل ..؟

كان الجنرال "الكسندر ليبيد" ضمن مجموعة من القادة اعترضوا على استخدام القوة العسكرية في الشيشان ، ولما سئل عن سبب الهزيمة قال: لم يحدث أن هزم جيش شعبًا في التاريخ، وقد يكون في هذه الإجابة كثير من الحكمة وكثير من استقراء التاريخ ، ولكنها إجابة عامة لا تكفى لتفسير ما حدث في الشيشان بصفة خاصة ...

وفي إستطلاعات الرأي التي أجريت في الحرب الشيشانية الأولى كان المؤيدون للحرب في روسيا لا تزيد نسبتهم عن 16% ولكن هذه النسبة ارتفعت في الحرب الثانية إلى 62% ، فما الذي حدث في روسيا فيما بين الحرب الأولى والثانية مما يبرر هذا التغيير الهائل في موقف الرأي العام الروسي ..؟

أسئلة واستفسارات كثيرة ثارت في عقلي و لم أجد لها إجابات شافية فيما سمعت أو قرأت خلال وسائل الإعلام العالمية .. وكان عليّ أن أحفر خلف هذا المشهد الآنيّ للحرب بحثًا عن الجذور التاريخية لهذا الصراع الدموي ، وكلما بحثت مرحلة تاريخية سلمتني إلى ما قبلها بحثًا عن حلول لألغازٍ واستفساراتٍ لا أجد لها تفسيرًا كافيًا .

مثلًا: في سنة 1944 قام ستالين بتهجير جميع سكان الشيشان إلى ثلوج سيبيريا وصحاري كازاخستان وتخلّص بذلك من 60% منهم بالتجويع والتعذيب والتصفيات الجسدية، ثم عاد من بقى من الشيشانيين إلى وطنهم بعد أن برّأهم السلطات السوفييتية من التهمة التي حاول ستالين إلصاقها بهم تبريرًا لتشريدهم وتصفيتهم . ففيم كان التهجير والإبادة؟! وفيم كانت التبرئة والعودة ..؟! وما هي الأسباب الحقيقية وراء كل هذه الأحداث..؟ هذه الدموية والجنون المروّع وهذا التألّه والجبروت في جانب ، ثم هذا الاحتمال الذي يفوق طاقة البشر والإصرار على المقاومة والقتال دفاعًا عن الهوية والدين والحرية في الجانب الآخر!؟

حقيقة تاريخية أخرى وسؤال أخير: لقد حدثت على مر العصور ثورات مسلحة في القوقاز كان الشيشانيون قادتها وأكبر ضحاياها ، فلماذا كان الشيشانيون في ثورة دائمة ضد الاستعمار الروسي ..؟

ولكي أجد إجابات شافية عن كل هذه الاستفسارات ، من أجل فهم أفضل لأبعاد هذا الصراع التاريخي المتصل الحلقات ، كان عليّ أن أغوص بالبحث في أعماق التاريخ .

في ضوء هذه الدراسة تكشفت لي ثلاثة محاور تشكّل لب هذا الصراع وهي: الإسلام الذي ساد وترسّخ ، والشعب الشيشاني

بتركيبته النفسية المتميزة ، والاستعمار الروسي بطبيعته التي لم تتغير رغم مرور الزمن واختلاف الأنظمة السياسية ...

هذه المحاور الثلاثة في تفاعلها التاريخي كانت موضوع هذا الكتاب ، وهي التي أوحت إليّ بعنوانه "الشيشان والإسلام والقيصر"؛ يمثل "القيصر" في هذا العنوان الطابع المستمر للموقف الإمبريالي المستبد من جانب روسيا في مواجهة الإسلام عبر العصور.

كانت هذه في الحقيقة مقدمة كتاب كنت قد بدأت بحثه ليشمل مع الشيشان بلادًا أخرى في القوقاز و وتركستان .. وظلّ الموضوع مفتوحًا أمامي عبر ست عشرة سنة منذ سنة 2000م حتى اليوم .. وظلت دراستي تتوسع وأنا أتتبع قضية الإسلام في آسيا الوسطى ، لأكتشف أن تركستان ليست هي الجزء الغربي الذى وقع تحت الاحتلال الروسيّ فقط وإنما هناك امتداد لها في الصين يسمى تركستان الشرقية يعاني أصحابها المسلمون نفس الاستبداد والعمليات القمعية ، ولكن يقاومون ويثورون ويقاتلون .. ويخضعون لانتكاسات وهزائم على يد مستعمر آخر هو الصين الشيوعية..

ومن ثم اضطررت لإضافة فصول أخرى للكتاب ، تابعت فيها ما استجد من وقائع وتغييرات في هذه المساحة الجغرافية الهائلة .. ولأن الموضوع أكبر من أن يتسع له كتاب من مجلّدٍ واحد، اكتفيت

ببعض الدول باعتارها نماذج لبقية الدول التي لم يرد ذكرها أو أشير إليها مجرد إشارات عابرة دون تفصيل ..

ولقد وجدت في النهاية أن تغييرعنوان الكتاب أصبح محتّمًا لكي يعكس التوسّعات التي طرأت عليه فكان هذا العنوان: "الإسلام والمسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز" .. راجيا من الله التوفيق، في أن أكون قد عرضت قضية المقاومة الإسلامية وحقيقة الأوضاع التي يمر بها الإسلام والمسلمون في هذا العالم الفسيح الذى لانعرف عنه إلا القليل ولا يزال يأتينا مُشَوّهًا عبر وسائل إعلامية ضعيفة أو مغرضة مضللة في العالم العربي والخارجي على السواء ..

ونسأل الله التوفيق والتيسير.

محمد يوسف عدس
ملبورن – أستراليا
18فبراير 2017م

□

الفصل الأول

المسلمون قبل روسيا

هناك حقائق تاريخية أساسية ينبغي استيعابها قبـــل الخـــوض في موضوع هذا الكتاب، ألخصها فيما يلي:

الحقيقة الأولى: أن مساحة الاتحاد السوفييتي بلغت أكثر من إثنين وعشرين مليون كيلو مترا مربعا، ولكن الأراضي الروسية في هذه الإمبراطورية لم تتجاوز مليوني كيلو متر مربع، بينما كانت الأقاليم المسلمة تشكل أكثر من عشرين مليون كيلو متر مربع. هذه المساحة الشاسعة من الأرض بثرواتها الطبيعية الهائلة، وبكتلتها السكانية هي التي صنعت قوة الاتحاد السوفييتي الاقتصادية والصناعية والعسكرية. ويكفي هنا أن أشير إلى شاهدين اثنين، أولهما أن القطن الذي قامت عليه صناعة النسيج السوفييتية كلها كان يزرع في أراضي المسلمين وبأيديهم، وأن أبناء المسلمين كانوا يشكلون في وقت من الأوقات من 25% إلى 40% من القوات الضاربة للجيش السوفييتي .

الحقيقة الثانية: أن وجود الإسلام كان سابقًا على وجود روسيا نفسها في المناطق التي أصبحت مســـتعمرات للقياصـــرة ثم للاتحـــاد السوفييتي ، الذي كان موجودا عندما عبر الإسلام من آسيا إلى شرق أوروبا، إمارة صغيرة تسمى مسكوفيا (حاليًّا موسكو) على رقعة من الأرض لم تزد مساحتها عن 225 كيلو مترا مربعا.

الحقيقة الثالثة: أن هذه الإمارة كانت وحدة إدارية تابعة لإمبراطورية إسلامية فسيحة الأرجاء امتدت من شمال الصين إلى أوروبا الشرقية، تحت سلطان أسرة حاكمة عرفت في التاريخ باسم القبيلة الذهبية ؛ وهي أسرة تنتمي إلى أصول مغولية تتارية أسلمت، وظلت إمارة موسكوفيا تابعة لها لمدة قرنين ونصف قرن حتى استقل بها الأمير الروسي إيفان الثالث سنة 1480، من هذا التاريخ بدأ كيان سياسي جديد يتشكل وينمو هو روسيا القيصرية.

الحقيقة الرابعة: أن البلاد التي غزاها الروس ثم أخضعوها لسلطانهم لم يكتفوا باستغلالها أو استعمارها وإنما قاموا بدمجها في ممتلكاتهم وشرعوا في ترويسها بعد تمزيق كياناتها السياسية والاقتصادية وتدمير مؤسساتها الدينية والثقافية .. وظل المسلمون يدافعون عن وجودهم ودينهم وهويتهم عبر قرون من السيطرة القيصرية والسوفيتية، تغيّرت الأسماء ونظم الحكم وبقيت حقيقة الاستعمار الروسي الإمبريالي ..

وهكذا .. دخل الإسلام آسيا الوسطى وانتشر فيها من الصين إلى القوقاز وامتد في أوربا الشرقية قبل أن يوجد الاتحاد السوفييتي ، وقبل أن توجد دولة إسمها روسيا، بل إن موسكو نفسها كانت مجهولة في التاريخ يندر ذكرها .. وظلت كذلك عديمة الأهمية قرونًا

طويلة حتى عبر الغزو المغولي إلى أوروبا فاكتسح هذه البلاد اعتبـــارًا من العقد الثاني للقرن الثالث عشر الميلادي .. و لم يلتفـــت المغـــول حينذاك إلى موسكو فلم يكن بها مـــا يغـــريهم لاتخاذهـــا عاصـــمة لإمبراطوريتهم، بل اتخذوا لأنفسهم عاصمة أقاموها قريبا من مدينـــة "فولجوجراد" ، و لم تكن مساحة موسكو تزيد عن 225 كم2.

لم يلبث المغول إلا قليلا من الـــزمن حـــتى إعتنقـــوا الإســـلام وأصبحوا من أقوى جنوده، ولعلها أول مرة في التاريخ البشـــري أن يتحول الغزاة الجبابرة إلى دين الشعوب المغلوبة، وهكذا اســـتأنفت المنطقة مرة أخرى حياتها كأرض إسلامية واسعة الأرجـــاء تمتـــد في وسط آسيا وشمالها وشرقها وغربها حتى أوروبا الشـــرقية .. ومـــن الجدير بالذكر أن موسكو بقيت تحت حكم التتار المســـلمين لمـــدة 240 سنة ، وظلّت هكذا إلى عهـــد إيفـــان الثالـــث 845 هــــ 1480م.

لم تكن هذه البلاد معروفة بأسمائها الحاليـــة عنـــدما دخلـــها المسلمون لأول مرة إنما كانت معروفة بأسماء أخرى مثل خراســـان وتركستان أو بلاد ما وراء النهر، وما وراء القوقاز..الخ ...

وكانت عناية المسلمين بتبليغ الدعوة الإسلامية إليهـــا عنايـــة شديدة ومبكّرة ، ففي عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (سنة 18 إلى 24 هجرية) أي (638 إلى 644م) إقتحم جـــيش المســـلمين

أذربيجان وأرمينيا وجورجيا ، وبدأ فتح خراسان في عهده على يـــد الأحنف بن قيس ، كما فُتحت في عهد عمر بن الخطاب أيضا الديلم وطبرستان .

وفي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفـــان توسّـــعت الفتـــوح الإسلامية وامتدت لتشمل أفغانستان، ثم بعث الخليفة عبـــد الله بـــن عامر بن كريز سنة (31هـــ) واليًا على خراسان وكان من قبلُ واليًا على البصرة ...

وفي عهد معاوية بن أبي سفيان عبر الصحابي الحكم بـــن عمـــر الغفاري سنة (50هـــ أي 670م) نهر جيحون وفتح مناطق جديدة تقع اليوم ضمن جمهورية أوزبكستان ، وتوالت الفتوح الإسلامية بعد ذلك في تركستان (آسيا الوسطى) .. حيث فتح عبد الله بن زيـــاد بُخارَى (سنة 55هـــ 674م)، ثم جاء بعده سعيد بن عثمان ففـــتح سمرقند ، وفي معركة سمرقند أستشهد قُثم بن العباس ابن عم رســـول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم فُتحت مدينة ترمذ على يد موسى بن عبد الله سنة (70هـــ 689م) ...

شهد الفتح الإسلامي لهذه البلاد خلال الأعوام الخمسين الأولى كثيرا من المدّ والجذر حتى جاء القائد العظيم" قتيبة بن مسلم الباهلي" الذي يعتبر بحق هو فاتح بلاد ما وراء النهر وموطّد الإسلام في هـــذه البقاع (بين سنة 88 إلى 96هـــ) ...

ظل المسلمون يحكمون هذه المناطق الشاسعة في إطـــار الدولـــة الأموية ثم العباسية حتى القرن الثاني عشر الميلادي عندما إجتاحهـــا المغول ثم التيموريون فيما بين القرن الثالث عشر والخامس عشـــر .. وكانت هذه أكبر نكبة تاريخية تصيب ديار المسلمين، ولكن لم يلبث المغول/ التتار زمنا طويلا حتى تحولوا إلى الدين الإسلامي ، ومـــن ثم استأنفوا المدّ الإسلامي في اتجاه روسيا الأوروبيـــة، واســـتطاعوا أن يضمّوا إلى إمبراطورتيهم أراضي شاسعة في حـــوض نهـــر الفولجـــا وقازاخستان وجبال الأورال، وسيبيريا والقوقاز حتى شواطئ البحـــر الأسود، ووصلوا إلى مصبات نهر الدانوب والدّنيبر فى أوربا الشرقية .

دخل في الإسلام شعوب مختلفة وأجناس كثيرة، وتعدّدت القوى التي حملت الإسلام إلى هذه الأصقاع البعيدة، واختلفـــت ثقافاتهـــا، وتنوعت إنتماءاتها اللغوية والدينية السابقة، و لم يكن يجمعها في وحدة واحدة سوى العقيدة الإسلامية. وقد واجه المسلمون على مر العصور تقلّبات واضطرابات سياسية وعسكرية ، ومارست عليهم قوى الغزو الأجنبي ألوانًا من الإضطهاد والتدمير .. وامتزجت آثار هذا كلـــه في تشكيل عقولهم ومجتمعاتهم ، ولذلك يصعب اليوم كثيرا فهم الظواهر السياسية والاجتماعية والنفسية السائدة بين المسلمين في دول آســـيا

الوسطى والقوقاز وغيرها من المناطق التي احتواها مؤخرا الاتحاد السوفييتي خمسة وسبعين سنة قبل أن ينفرط عقده .

ولكي نقترب من فهم هذه الظواهر لابد أن ندخل في اعتبارنا أربعة عوامل تاريخية كبرى قامت بدور حاسم في تشكيل حياة المسلمين:

أولاً : إنتشار الإسلام: طبيعته ومداه ..

ثانيًا : الغزو الروسي في عهد القيصرية ..

ثالثًا : تطور الحركة القومية بين المسلمين ..

رابعًا : إستجابات المسلمين للتأثيرات الأجنبية خلال فترة الاتحاد السوفييتي ، وعلى الأخص أثناء الثورة البلشفية ، والحرب الأهلية ، ثم الأعوام العشرة الأولى من النظام السوفييتي (من 1918 – 1928م) ..

انتشار الإسلام:

شهد إنتشار الإسلام عدة مراحل خلال خمسة قرون بين القرن السابع والقرن الثالث عشر الميلادي، ونلاحظ هنا أن الدعوة إلى الإسلام وإن كان العرب هم الذين حملوها فى أول الأمر .. وهذا أمر طبيعي لأن العرب كانوا أول المسلمين وأول المجاهدين الفاتحين، إلا أن الإسلام اتسعت رقعته وتغلغل في شعاب الأرض بفضل عناصر أخرى من غير العرب، دخلت الإسلام ثم لم تلبث أن شاركت في

الجهاد والدعوة إلى الإسلام بإخلاص وحماس شديدين، نذكر من هذه العناصر: الإيرانيون والأتراك الشرقيون والتتار والقوقازيون والأتراك العثمانيون ..

ولا تزال المناطق المختلفة التي دخلها الإسلام تتميز بسمات توارثتها الأجيال من الفاتحين والدعاة الأوائل:

1- في المناطق التي فتحها العرب في آسيا الوسطى احتفظت الممارسات الدينية بطابع تقليدي محافظ انتهى في بعض العصور إلى نوع من الجمود ..

2- في المناطق التي دخلها الإسلام عن طريق التجار المسلمين ومن خلال النفوذ السياسي والدبلوماسي للأتراك العثمانيين، اتجه الإسلام في نشاطه وجْهة الإصلاح والتحرر والانفتاح على الأفكار الحديثة ، وقد غالت بعض الفصائل في هذا الاتجاه إلى درجة الانقلاب على مبادئه الجوهرية حيث جاءوا مثلا بما أسموه "الشيوعية الإسلامية"..

3- وفي مناطق مثل شمال شرق القوقاز – بصفة خاصة – ظل الإسلام الصوفي مناضلا صلبا .. وهو ما نراه اليوم واضحا في داغستان والشيشان ...

أما من الناحية التاريخية الزمنية فقد انتشر الإسلام على ثلاثة مراحل:

في المرحلة الأولى:

حمل الفاتحون العرب عبء الدعوة ونشر الإسلام من القرن السابع حتى القرن التاسع الميلادي فوصل إلى أذربيجان وتوغل قليلا في داغستان الجنوبية في (642م) وفي دِرْبَنْد (652م)، وهناك تراجع المدّ عدّة سنوات ثم عاد المسلمون فحاصروا مدينة باكو (عام 676م) ..

عندما توغل المسلمون في آسيا الوسطى كانت البوذية والزرادشتية والمانوية والمسيحية النسطورية سائدة وفي حالة من الصراع الدائم .

وفي منتصف القرن العاشر سيطر الإسلام على هذه المناطق سيطرة كاملة بحيث أصبحت أحد أهم المراكز الثقافية والحضارية في العالم الإسلامي كله ..

وفي المرحلة الثانية (فيما بين القرن التاسع والثالث عشر):

توارى دور الفاتحين وجاء دور التجار والدعاة المسلمين الذين تابعوا مهمة نشر الإسلام على امتداد الطرق التجارية الكبرى .. وأعني بذلك طريق الفراء وهو الطريق الذي كان يمتد من الشمال إلى

الجنوب على طول نهر الفولجا ، وطريق الحرير الذي كان يمتد مـــن الصين شرقا حتى سواحل البحر الأسود غربا ..

في هذه المرحلة وصل الإسلام إلى مملكة البلغار ومنطقة الفولجـــا الوسطى وهي موطن المسلمين التتار إلى اليوم ..

وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين دخل الإســـلام منطقة الأورال وهي موطن البشكيريين المسلمين اليوم ..

كذلك حمل التجار العرب والإيرانيون وأتراك آسيا الوسطى إلى سهوب قازاخ وشمال "سير– داريا"، ثم أوْصلوه إلى قرغيزيا وتوسعوا به نحو تركستان الشرقية وهي منطقة "سينكيانج" إحدى مستعمرات الصين الواقعة في شمالها الغربي، ويطلق عليها اليوم مقاطعة يونان .

مرحلة الإمبراطورية المغولية التترية

(في القرنين الثاني عشر والثالث عشر):

في هذه الفترة هبطت على العالم الإسلامي واحدة مـــن أكـــبر الكوارث التاريخية، وذلك في مبتدأ القرن الثالث عشر الميلادي، فقد غزا المغول من أبناء جنكيزخان مناطق آسيا الوسطى وقد هرولت في ركابهم فلول البوذيين والمسيحيين النساطرة ، ساعين إلى كسب ودّ هذه القبائل الشرسة ، وظهر بالفعل عند حكام المغول الأوائل نزعة صليبية معادية للإسلام فانتقموا من المسلمين أشدّ إنتقام ، و لم ينقـــذ

الإسلام في هذه الهجمة البربرية سوى الجماعات الصوفية التي أضفت على النشاط الإسلامي والمقاومة الإسلامية صفتها الشعبية حيث تعمقت جذور الإسلام بين جماهير الفلاحين وعامة الناس بعد أن فقد غطاء الطبقة الحاكمة التي كانت تقوم بحمايته والدفاع عنه ..

ولكن شاء الله أن يهتدي التتار من ملوك القبيلة الذهبية إلى الإسلام، ومن ثم بدأت موجة جديدة من انتشار الإسلام في عهدهم انتشرت إلى منطقة القرم وسهوب روسيا الجنوبية شمال البحر الأسود وبحر الخزر إلى سيبيريا الغربية ، واستمرت هذه الموجة من التوسع الإسلامي حتى منتصف القرن السادس عشر ، ومما يذكر هنا أنه في نهاية القرن الخامس عشر اعتنق الإسلام جماعات كثيرة من الشركس الشرقيين ..

ولم يتوقف انتشار الإسلام حتى بعد ظهور الإمبراطورية الروسية القيصرية التي اخترقت منطقتي قازان وإستراخان واستولت عليهما فيما بين سنتي 1552 و 1556م، فقد جاء رد الفعل القوى من خانات (أمراء) القرم المسلمين ومن الأتراك العثمانيين من خلال ضغوطهم السياسية وأحلافهم العسكرية ، وكذلك من ناحية الجماعات الصوفية ، حيث انتشر الإسلام بفضلهم جميعا في جنوب جورجيا وكانت حينذاك جزءًا من الدولة العثمانية ، ويعرف

المسلمون فيها اليوم باسم الأدجار الذين يشكلون غالبية سكان جمهورية أدجاريا ذات الحكم الذاتي ..

وهنا مفارقة تاريخية تستحق منا بعض التأمل ، ففي ظل الإمبراطورية القيصرية التي اعتمدت التنصير بالقوة سياسة لها في بلاد المسلمين لم يتوقف زحف الإسلام السلمي، بل امتدت الموجة الإسلامية و لم تنحسر خلال القرن الثامن عشر ، ويرجع السر في ذلك إلى توقف عمليات البطش بالمسلمين في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية ، حيث يقول عنها بعض المؤرخين الروس أنها وجدت في الدين الإسلامي عقلانية وأهلية أكثر من الأرثوذكسية الروسية في مجال تمدين الشعوب البدوية ...

كانت كاترين الثانية خلاف أسلافها تبدى احتراما ملموسا للإسلام، وقد أثار إعجابها تتار الفولجا بزهدهم الديني وذكائهم وروح المبادرة والمثابرة التي تميّزوا بها، وكانت تتمنى أن يكتسب الروس من أبناء شعبها هذه الخصائص الحضارية التي يفتقدونها .. ومن ثم بدأت عام 1764م انتهاج سياسة من التسامح الديني مع المسلمين لم تكن معهودة من قبل، فرفعت الحظر الذي كان مفروضا على التتار ألا يدخلوا عاصمتهم قازان بعد أن طُردوا منها، ومنحتهم حرية بناء المساجد ومدارس تعليم القرآن ، واتخذت من تجّارهم

وسطاء لها في بلاد آسيا الوسطى المسلمة لتنشيط التجارة والاقتصاد الروسي ..

واستفاد التتار بمناخ الحرية الذي أتاحته الإمبراطـــورة كـــاترين الثانية فحملوا معهم الدعوة الإسلامية إلى المناطق التي كانت لا تزال على الوثنية ، وبذلك دخل الإسلام إلى بشكيريا وســـيبيريا الغربيـــة وقازاخ ، وتغلغلت الجماعات الصوفية القادمة من آسيا الوســـطى في شمال القوقاز ...

البعد الحضاري لانتشار الإسلام:

بنى "قتيبة بن مسلم" والى خراسان أول مسجد جامع في بخاري .. وتيسيرا على المسلمين الجدد أفتى لهم قتيبـــة بجـــواز أداء شـــعيرة الصلاة بلغتهم الفارسية .. ومن أجل ذلك تُرجمت لهم معاني القرآن .. وهذا في الحقيقة وعْي إنسانيّ وبصيرة نافذة من جانب قائد مسلم يؤسّس لميلاد حضارة جديدة تستوعب فطرة الإنســـان ورحابـــة الشريعة معا .. وقد أثبت التاريخ بُعد نظر قتيبة بن مسلم .. فلـــم يلبث المسلمون هناك طويلاً حتى أتقنوا اللغة العربية وكتبوا بهـــا .. وظهر من أبنائهم أعظم الشخصيات التي خدمت الفكر الإســـلامي والحضارة الإسلامية واللغة العربية نفسها .. ولـــو عُرضـــت نفـــس القضية على واحد من أدعياء الفتوى اليوم لحرّم الصلاة بغير اللغـــة

العربية .. ولست أستبعد أن يشترط إجادة اللغة العربية ويعقد لجـــان إمتحانات فيها للناس قبل دخول المساجد ...!!

يقول المقدسي في وصف إسلام أهل ما وراء النهر كما ورد في كتاب "أحسن التقاسيم" ص 261:

"أعلم أن هذا الجانب (يقصد ما وراء النهر) أخصب بـــلاد الله تعالى وأكثرها خيرا وفقها وعمارة .. ورغبة في العلم واســتقامة في الدين ، وأدْوم جهادا وأسْلم صدرا، وعلى الجملة: الإسلام به طريّ والسلطان قويّ والعدل ظاهر والفقيه ماهر، ومنابره أكثر مـــن أن توصف...".

في أواخر العهد الأموي ظهر أبو مسلم الخرساني أكـــبر دعـــاة العباسيين وسند الدولة العباسية .. وبدأ الخليفة المأمون حكمه وهو [بمرْو] فمكث فيها ست سنوات تحولت فيه هذه المدينة إلى مركـــز سياسي للعالم الإسلامي كله حتى إنتقل إلى بغداد سنة (204هـــــ 820م).

ولكن ولاية خراسان كانت كثيرة التقلب .. حيث ظهرت بها أسر حاكمة توارثت فيها الحكم .. حتى انتهى الأمر إلى أن أسرة آل طاهر فأصبحت بالفعل أسرة مالكة شبه مستقلة .. وأدّى هذا فيمـــا بعد إلى إنشقاق السُّلطات المحلية عن الخلافة العباســـية في أوقـــات ضعفها واضطراب أمورها .. حكمت أسرة الطاهريين (وهـــم مـــن

أصل فارسي) خراسان وما وراء النهر أكثر من نصف قرن .. وكان طاهر بن الحسين مؤسس هذه الأسرة قائدا بارزا من قـــواد الخليفـــة المأمون قلّده ولاية خراسان سنة 205هـــ .. وكـــان الطـــاهريون رجالا أفذاذا يتمتعون بسعة العلم .. وكانت لهم مواهب متنوعة .. يذكر ابن النديم في كتابه "الفهرست" أن ستة منهم كانوا شـــعراء .. أما طاهر بن الحسين فقد اشتهر بكتاب له أرسله إلى ابنـــه عبـــد الله عندما عيّنه المأمون واليا على الرقة . كان هذا الكتاب يعتبر في وقتـــه بمثابة دستور لأصحاب الملك والسلطان ، تميز بعمق النظرة السياسية وروح التسامح والنفاذ إلى أعماق النفس الإنســـانية والمشـــكلات الاجتماعية .. وكيفية التعامل مع هذا كله بأمثل الطرق .. مما أثـــار إعجاب الخليفة المأمون فأمر بنسخه وتوزيعه على جميـــع الـــولاة في الأقطار الإسلامية.(1)

كان التعليم وطلب العلم واحترام حملته قيم عميقة الجـــذور في المجتمعات الإسلامية بآسيا الوسطى، وقد حدث أن زار سمرقند رحّالة صيني سنة 610هـــ. وسجل في كتاباته أن أهل هذه المدينة كـــانوا يعلّمون أبناءهم القراءة والكتابة ابتداءً من سن الخامسة، فإذا تعلمـــوا

1- أنظر أركين رحمة الله يف وعبد الله بولداشيف في كتابهمـــا: الحضـــارة الإسلامية في طاجيكستان. نشرته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 1998م.

القراءة انتقلوا إلى تعلّم سائر العلوم بما فيها علم التجارة .. يبدو أن الإسلام بطبيعته لا يحل بأرض ويستقر فيها إلا انقشعت عنه ظلمات الأمية والجهل وازدهرت فيه الحضارة .. كان هذا واضحاً في أسبانيا وحتى في جزيرة مندناو بالفلبين ..[ويعجب الإنسان لحال المسلمين اليوم؛ لابد أن شيئا فاسدا عميق الفساد قد أصاب مجتمعاتهم ونظم إدارتها .. فالأمية الضارية تحصد عقول المسلمين وتمكّن للنظم المستبدة من رقابهم ..]

في هذا المناخ التعليمي والثقافي وفي ظل الروح الإسلامية التي تمجّد العلم والعلماء وتطلق للملكات الإنسانية حرية النظر والبحث في الآفاق وفي الأنفس تفجرت عبقرية العلماء والفلاسفة والمفكرين وظهر المبدعون في بلاد ما وراء النهر .. كانوا نخبة من أشهر الرواد في تاريخ الحضارة الإسلامية ؛ فمن جامعي الحديث ومحقّقيه خرج من هذه البلاد ستة رجال أفذاذ: البخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجة .. وخرج من هذه البلاد حجة الإسلام أبو حامد الغزالي الذي شق بكتابيه "تهافت الفلاسفة" و "إحياء علوم الدين" مجرى عميقا في تيار الفكر الإسلامي لا يزال يتردد إلى اليوم في كتابات ومواقف المفكرين المحدثين.

وفي العلوم الرياضية والطبيعية أخرجت هذه البلاد أبرز الرياضيين وأشهرهم في العالم الإسلامي، كان منهم: الخوارزمي في

الرياضة وهو أبرز المؤلفين فيها، والفرغاني صاحب كتاب "جامع علم النجوم والحركات السماوية" في علم الفلك، وأبو حامد الجوقنديّ الذي اخترع وأنشأ جهازا للرصد الفلكي .. ونبغ في الجغرافيا: أبو زيد أحمد بن سهيل البلخي، وأبو إسحاق الفارسي الإصطخري، وأبو القاسم بن حوقل النسيبيّ ، وفي الطب: ظل كتاب الرازي حجة في الطب في أوروبا حتى القرن السابع عشر، وكان الرازي أول من اخترع خيوط الجراحة ومراهم الزئبق وكتب في أمراض الأطفال، والجدري والحصبة، ويعتبر كتابه "الحاوي" أكبر موسوعة طبية ظهرت باللغة العربية وترجمت إلى اللغة اللاتينية .. وابن سينا الفيلسوف المشهور كان أيضا من علماء الطب .. وبرز في التأليف الطبيّ أيضا أبو بكر ربيع بن أحمد الأخْوينيّ وحكيم الميسري والهروي والجرجاني .. وكان من أبرز وأشهر المفكرين الموسعيين في الحضارة الإسلامية ثلاثة أعلام ما تزال أسماؤهم تتردد في الكتابات الحديثة إلى اليوم، وهم: أبو على بن سينا وأبو نصر الفارابي وأبو حيان محمد بن أحمد البيروني .. وكان الزمخشري صاحب صيت وشهرة ، إكتسب كتابه في تفسير القرآن مكانة رفيعة في هذا المجال..

السّامانية: كان لدولة "السامانيين" أثر بالغ في أحتضان وتطوير الحضارة الإسلامية في بلاد ما وراء النهر .. جعلوا عاصمة

حكمهم في بخاري، وشهدت البلاد في عهدهم استقرارا وازدهـــارا كبيرًا، وقد استطاعوا السيطرة على أنحاء البلاد والحفاظ على سلامة أراضيها، وصد الغزاة والقبائل المغيرة عن مدنها وقراهـــا، وكانـــت إغارات قبائل البدو والرعاة من أكبر المشكلات التي عانتها المجتمعات المسلمة في القرى والمدن المستقرّة .

تدهور الوضع السياسي بعد سقوط دولة السامانيين على أيدي الغزنويين عام 1017م، ولكن لم يستمر هؤلاء في الحكم أكثر مـــن عشرين عاما حيث خرج عليهم ولاتهم من السلاجقة واستطاعوا أن ينفردوا بالسلطة في بداية القرن الثاني عشـــر المـــيلادي، وأخـــذوا يحكمون كأمراء مستقلين ، ومتنافسين متصارعين في أكثر الأحـــوال إلى أن أطاح بهم الغزو المغولي سنة 1220م ...

ويعتقد المؤرخون أن أهم الأسباب في تقلّب الأوضاع السياسية وعدم استقرارها خلال حكم الغزنويين والسلاجقة وهم أســـر ذات أصول تركية، يكمن في عدم القدرة على إنشاء سلطة مركزية قويـــة تجمع شتات الولايات والإمارات المبعثرة، فقد كان أبناء الســـلطان يميل كل وحد منهم إلى الاستقلال بالسلطة في إماراته، ولكـــن مـــع هذه الفرقة والتشرذم .. إلا أن الأمراء كانوا يعترفون بالسلطة الرمزية للسلطان الأكبر لجميع السلاجقة ، ومن أبرز هؤلاء شأنا الســـلطان ملكشاه والسلطان سنْجر ...

ورغم كل شئ لم تنطفئ شعلة الحضارة الإسلامية في عهد الغزنويين أو السلاجقة بل امتدت في عهد السلطان محمود الغزنوي إلى شمال الهند سنة 977 حيث نشر بها الإسلام ..

واستمر العطاء الحضاري لبلاد ما وراء النهر متواصلًا في خراسان في عهد السلاجقة فازدهر الأدب بالفارسية ، واستمر نمو العلوم باللغتين العربية والفارسية ، حيث ظهر في كنفهم أبرز العلماء ورجال السياسة والإدارة والشعراء ، من أمثال أبو حامد الغزالي وعمر الخيام ، ونظام الملك وهو الاسم الذي اشتهر به أبو علي الحسن بن على بن إسحاق الطوسي ، عينه الملك إلب أرسلان وزيرا له سنة 1064م وبقى في منصبه في عهد خليفته السلطان ملكشاه (1072م) ...

اشتهر نظام الملك بجهوده في الحفاظ على سلامة جوهر الإسلام من شرور الفرق الضّالة التي إدّعت الإسلام وهي خارجة عليه ، وتحسنت في عهده علاقة السلاجقة بالخلفاء العباسيين في بغداد، واشتهر بتشجيع العلم والتعليم ، وإليه تنسب أعظم المؤسسات التعليمية التي أقيمت في أنحاء العالم الإسلامي وهي المعاهد المعروفة باسم "المدارس النظامية"، ومن أشهرها المدرسة النظامية في بغداد التي كانت بمثابة جامعة ومراكز للبحث في آن واحد، أشرف عليها

نظام الملك بنفسه واختار لها العلماء والأساتذة ، وأصبحت هذه الجامعة نموذجا يُحتذي في بقية العالم الإسلامي ...

الحضارة الإسلامية بعد الغزو المغولي:

اكتسح المغول بلاد ما وراء النهر في العقد الثاني من القرن الثالث عشر فلم يجدوا مقاومة تذكر من جانب السلطان محمد خوارزمشاه الذي أبتلى بأمراء متناحرين متقاتلين ، بل كانت الأسرة الحاكمة في خوارزم نفسها في منازعات شديدة ..

كان المغول أهل بداوة وشراسة يكرهون المدن فإذا دخلوها خربوها وأحالوها إلى صحراء ، وهكذا دُمرت مدن مرْو وبخاري وسمرقند ، وعندما حاولوا إعادة الحياة إلى سيرتها الأولى حتى تنتعش التجارة لم تكن لديهم خبرة بالإدارة فلجأوا إلى أهل البلاد للقيام بإدارة شئون المدن ..

وعندما أظهر الحاكم المغولي "ترماشيرين" ميلاً إلى الإسلام والعيش في المدن المتحضرة أعترض أمراء المغول الآخرون ورأوا في ذلك إفسادا لتقاليدهم القبلية ، فانقضوا عليه وقتلوه عام 1334م ...

وفي منتصف القرن الرابع عشر انهارت الدولة المغولية (الجغطائية) ، نسبة إلى "جغطاي" أحد أبناء جنكيزخان ، وانقسمت

بلاد ما وراء النهر إلى عشرة دويلات يحكمها أمراء محليون ، ظلـــوا يتصارعون فيما بينهم على السلطة حتى انقضّ عليهم تيمور لنـــك، وهو ينتمي إلى فرع آخر من فروع المغول ، فأباد ملكهـــم وكـــان طاغية مفرطا في القسوة ، أسرف في قتل الناس في أصفهان ودلهـــي ودمشق وبغداد ، وكان ينتهج سياسة الإرهاب والبطش ويطبقهـــا بوحشية منقطعة النظير ..

فلما استقرت له الأمور أعاد بناء سمرقند وشيّد بهـــا القصـــور والمساجد والمدارس والمتاجر واتخذها عاصمة لإمبراطوريـــة واســـعة الأرجاء ، وجعلها مركزا للتجارة فانتعشت الحركة التجارية ، بعـــد أن وفّر الأمن على امتداد طريق الحرير، وكان شبه مقطوع منذ الغزو المغولي لبلاد ما وراء النهر .. وحـــدث بعـــد موتـــه أن تقطّعـــت إمبراطوريته كالعادة ، حيث جاء من بعده أبناؤه يقاتل بعضهم بعضا ، مما أتاح الفرصة لبعض قبائل الأوزبك الاستيلاء على أجـــزاء مـــن الأراضي ..

ولكن كان من بين أبناء تيمور لنك أمراء صالحون أتقياء مـــن أبرزهم ابنه "شاهرخ" (توفى سنة 1447م)، كان مسلما ورعـــا ، وابنه الآخر "باى سنقر" كان محبا للعلماء راعيا للأدبـــاء ، ثم جـــاء "ألوغيك" ابن شاهرخ فكان أميرا واسع الإطلاع عالما ذا مواهـــب متعددة في العلوم الطبيعية ، شاعرا يكتب الشعر بـــاللغتين التركيـــة

والفارسية (الطاجيكية) وله مؤلفات في الموسيقى ، عُـنى بـالعلوم الطبيعية والرياضيات وعلم الفلك، وأمر ببناء مرصد كبير في سمرقند.

هكذا كانت الأمور تجرى في بلاد ما وراء النهر وخراسان إبان حكم المغول والتتر من أبناء جنكيزخان ومن أبناء تيمور لنك إلى أن انتهى الأمر إلى الشيبانيين وهم بطن آخر من بطون المغول ..

لابد من إيراد ملاحظة هنا وهى أن الحضارة الإسلامية كان لها من القوة الآسرة ومن القدرة على إجتذاب البشر ودمغهم بطابعهـا الخاص حتى أولئك الذين تحدّوها فى بادئ الأمر وناصبوا أهلها العداء بل أسرفو فى قتلهم وتدمير بلادهم كما فعل المغول والتتار.. ولكنهم سرعان مااعتنقوا الإسلام وكرّسوا أنفسهم لخدمته ونشره ومواصـلة حضارته فى أنحاء الأرض.

ذلك لأنه دين لسائر البشر وليس مقصورا على قومية بعينها او جنسًا أو لونًا .. ولا يعترف بالطبقات ولا الإمتيازات ولا الحقـوق الإلهية الموروثة ولا بالتفوق العنصري لجنس على جنس آخر.. وليس فى قيمه الثقافية مكان لاحتقار البشر أو إستعبادهم وقهرهم .. ومن ثم كانت حضارته ساحرة آسرة إستوعبت كـل أنـواع البشـر.. وأسهمت كل الشعوب التى عاشت فى كنفها بأفضل ما تملك مـن مواهب وإبداعات .. عبقرية الحضارة الإسلامية تتجلـى هنـا فى واحدة من أخص خصائصها وهى أنها أطلقـت الحريـة الكاملـة

للشعوب لكى تبدع وتعطى وتشارك وتنهل فى نفس الوقـــت مـــن ثمرات هذه الحضارة وتنعم بخيراتها ...

وبنظرة واحدة محايدة يدرك الإنسان مدى الفرق الهائل بـــين هذه الحضارة وبين الحضارة الغربية التى مكّنت أوربـــا مـــن قهـــر الشعوب فى ثلاث قارات لتنهب ثرواتها وتستعبدها وتتركها بعـــد ذلك فريسة للفقر والتخلّف .. بعد أن استقطبت فئات من أبنائهـــا مكّنتهم من التعليم والسيطرة والسلطة على شـــعوبهم .. ليســـتمر النهب والإستعباد مسلّطا على هذه الشعوب ولتستمر مصالح الغرب الأنانية قائمة إلى الأبد .. هذه هى الصورة الحقيقية للعلاقة الآثمة بين الغرب وبين الشعوب الأخرى :[فمن وجهة نظرهم] هى علاقـــة السيد المسيطر بالعبد المقهور .. علاقة النبيـــل بالوضـــيع .. المتألّـــه العبقري بالحشرة الغبيّ .. العالم المخترع بالجاهل الذى لا يقدر على تسيير أموره بنفسه .. الغنيّ المتفضّل بالشّحاذ المتسوّل ... صاحب الشرف والوجاهة و الكرامة بالخسيس الـــدنئ الحاقـــد الإرهـــابي المخرّب .

من هذه العقيدة الغربية الراســـخة تصـــدر كـــل الإســـاءات والهجمات الإعلامية على الإسلام وعلى القرآن وعلى نبي الإســـلام .. هذا مايقولونه فى صحفهم وفى كتبهم وتصـــريحاتهم [ومـــاتخفى صدورهم أعظم] .. ولايحسبنّ أحد أننى ضد الحوار أو التفاهم بـــين

العقلاء والحكماء وأصحاب النوايا الحسنة وأنا اعرف منهم الكـــثير [ولكن هؤلاء ليس بيدهم من الأمر شيئا] .. كما أعلـــم أن مـــن بيدهم الأمر لا أقول حثالة من البشر وقُطّاع الطريق ولكنّى أقول إنهم مرضى ويحتاجون أولا إلى العلاج النفسي والعقلي ليعرفوا الصـــورة الحقيقية للآخرين وللعالم بأسره .. ولتتغيّر نظرتهم إلى مركز القـــيم الأخلاقية من الضمير الأنساني الحيّ.!

أعود إلى المغول والتتار الذين أشاعوا الفوضى والدمار والبشاعة فى العالم شرقا وغربا حتى اهتدوا بالإسلام .. فكان الإســـلام هـــو دواؤهم ومصدر شفائهم من علل الشراســـة والوحشـــية والأنانيـــة الغليظة .. كان دواؤهم من الكراهية والأحقاد .. ومن النزعة القبلية للتخريب وسفك الدماء .. تحوّلوا بالإســـلام إلى بُنـــاة حضـــارة وسلام وعلم [فهل هناك دليل أعظم من هذا على عبقرية هذا الدين العظيم ..؟!] ... أقول: إتجه أكثر اهتمام ملوك المغول حتى وهـــم فى أضعف أحوالهم إلى تشييد القصور وبناء المســـاجد والمـــدارس .. ولكن أكثر ما بقى من آثارهم المعمارية الراقية هي الأضرحة .. ومن أقدم هذه الأضرحة ضريح الشيخ سيف الدين الباخرزى (توفى ســـنة 1258م)، كان شيخا ذكيا يخالط الأمراء ساعيا إلـــيهم بالحكمـــة والموعظة الحسنة بُغية إصلاح حالهم وأحـــوال المســـلمين .. كـــان حريصا على أن يبعد سلطة الأمراء الجهلة بالدين عن منابر المسلمين

حتى لا يفسدوا دينهم .. وله في هذا رسالة مشهورة إلى "حبشـــي" وزير السلطان "جغطاي" قال فيها: "إذا ساد السفهاء فعلي الفضلاء والعقلاء أن يلجأوا إلى الانعزال .. وإذا حل القصر مكـــان المنـــبر فالأفضل أن يستتر المنبر" ..

ومن الأضرحة التي بنيت في عهد المغول ضريح قثم بن العبـــاس المعروف باسم "شاه زندا" الذي تحول إلى مـــزار مقـــدس .. زاد المسلمون له تعظيما وبه إرتباطا خلال عهـــود الطغيـــان الروســـية القيصرية .. كما أصبح رمزا للتحدي الإسلامي واستمراريته أمـــام سياسة القمع الديني والهجمات الإلحادية التي مارسها النظام السوفييتي ضد المسلمين .. وخصوصا بعد إلغاء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام ...

سقطت الدولة التيمورية في بلاد ما وراء النهر في مستهل القرن السادس عشر الميلادي، قضت عليها أسرة الشيبانيين ، الذين يرتفـــع نسبهم إلى شيبان بن جوجو بن جنكيزخان ، وكان أخ شيبان الأكبر الأمير باطوخان حاكم روسيا قد منحه قطعة من الأرض أسفل نهـــر سيجون ، فأخذ شيبان يجتذب القبائل المتاخمة لخوارزم حتى تمكن من السيطرة عليها ..

لم تنعم بلاد ما وراء النهر بالاستقرار طويلا ، وأدّى انحطاط المجتمعات فيها إلى إنقسامها إلى ثلاث دويلات ضعيفة في أواخر القرن الثامن عشر، واستمرت في ضعفها وتخلّفها خلال القرن التاسع عشر.

في تلك الأثناء كانت دولة روسيا القيصرية تتخلق في رحم التاريخ .. إستقلت أولا عن المغول التتار ثم أخذت تقوى وتتوسع وتتضخم مطامعها الإمبريالية في الإمارات المسلمة المنقسمة على نفسها وهي: إمارة بخاري، وإمارة خيوه وخوارزم، وإمارة جوقنده.

□

الفصل الثاني

روسيا القيصرية

عندما بدأ الغزو الروسي كانت مجتمعات المسلمين تتركـــز في ثلاث مناطق أساسية:

آسيا الوسطى (بلاد ما وراء النهر) وكان يسكنها 75% مـــن مجموع السكان المسلمين.

منطقة شمال القوقاز وكان بها 12% من المسلمين.

منطقة حوض نهر الفولجا الأوسط وجنوب الأورال وبها 13% من المسلمين.

كان أول احتكاك بين الدولة الروسية الوليدة وبين المسلمين في المناطق الأوروبية التى تقع اليوم ضمن الاتحاد الروسي وأعـــني بهـــا حوض نهر الفولجا الأوسط .. وقد شجع الروس على هذه الهجمـــة المبكرة تفكك الأسرة الحاكمة التي كانت تحكم روسيا باسم القبيلـــة الذهبية وهم من أصول مغولية تتارية ..

إستطاعت روسيا بقيادة ملكها المسمى "إيفـــان الرهيـــب" أن تستولي في هذه المرحلة المبكرة على قـــازان ســـنة 1552م وعلـــى إستراخان سنة 1556م. وهما منطقتان تقعان في قارة أوروبا الـــدنيا .. خضعت هاتان المنطقتان للمسلمين لمدة قرنين من الزمن فيما بين القرن الثالث عشر والخامس عشر..

هذه حقيقة تاريخية يصح أن نعيها جيِّدًا: أن الـــروس كـــانوا ضمن الشعوب الأوروبية التي خضعت للسيطرة الإسلامية لمدة قرنين

وكانت عاصمتهم موسكو ضمن هذه السيطرة، أما الشعوب الأوروبية الأخرى التي خضعت للمسلمين فكانت الأندلس (أسبانيا) على مدى ثمانية قرون .. وشعوب البلقان لمدة خمسة قرون ..

وكان الروس يكنّون للمسلمين مزيجا من الاحترام الشديد ويشعرون إزاءهم – في نفس الوقت – بعقدة النقص ؛ نظرا لتفوقهم الحضاري والعسكري .. هذا كلام ليس استنتاجا من عندى ولكن أنقله نقلًا عن مؤرخين سوفييت(1).

لم تكن للدولة الروسية سواء في عهد ملكها إيفان الرهيب أو في عهد ملوك آل رومانوف الأوائل سياسة قومية واضحة ونادرا ما كانت تهتم بتنظيم علاقاتها مع الشعوب المغلوبة .. وإنما كانت تمارس الغزو والقهر والإدماج .. ومن ثم عومل المسلمون في قازان وإستراخان كرعايا من الدرجة الثانية لا حقوق لهم .

كانت هناك مبادئ عامة طبقها الروس تجاه النبلاء المسلمين:

أن يختار النبيل المسلم كفيلا له من النبلاء الروس وأن يعتنق المسيحية.

1- أنظر كتاب "المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفييتي" تأليف ألكسندر بنييجن وشانتا لوميربيه كيلكجاى. ترجمة عبد القادر ضللى. بيروت: دار الفكر المعاصر، 1989.

الاختيار البديل هو التـدمير الاقتصـادي ومصـادرة الأرض والأموال.

اما الذين يتصدّون للسلطة الروسية بالمقاومـة فـإن التصـفية الجسدية هي القدر المحتوم.

عامل الروس الدين الإسلامي معاملة مهينـة وسـلطوا عليـه جبروتهم في المدن حيث هدموا جميع المساجد ونفوا المشايخ وأصبح الإسلام محاصرا في القرى بين الفلاحين ..

وفرض على مسلمي المدن أن يختاروا بين إعتناق المسـيحية أو القتل .. وقد حققت هذه السياسة بعض النجاح حيث قبلت قلّة من العائلات التترية الإقطاعية سياسة الاندماج الروسية .. ولكن غالبيـة النبلاء التتار رفضوا الترويس و رفضوا إعتناق المسـيحية فـدمرت ممتلكاتهم وصودرت أراضيهم .. وتحولوا في نهاية القرن السادس عشر إلى طبقة جديدة من التجار الناجحين .. أما الذين أُكرهـوا علـى اعتناق المسيحية فقد كانوا يضمرون الحقد على الروس، بينما ذهب رجال الدين المطرودون إلى القرى ليندمجوا في أوساط الفلاحين .

هدأت موجة التوسع الإمبريالي لروسيا خلال القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر طوال حكم بطـرس الأكـبر وكاترين الثانية و لم يلحق بالإمبراطورية غير السهل الواقع في سفوح

جبال القوقاز الشمالية الشرقية .. وحتى السيطرة عليه كانت إسمية فقط ..

في عهد ألكسندر الثاني واجه المسلمون التتار في القرم أكبر كارثة دمرت مجتمعاتهم. فقد صادر القيصر ألكسندر أملاكهم وأراضيهم ومنحها لأمراء الأسرة الحاكمة، وراح يجلب إلى القرم مستوطنين من شتى بلاد أوروبا كان من بينهم اليونانيين والألمان والروس والأوكرانيين. وظل هؤلاء المستوطنون يدفعون المسلمين إلى الأراضي القاحلة الجرداء داخل شبه جزيرة القرم ويحاصرونهم حتى لم يعد أمامهم سوى الهجرة إلى الدولة العثمانية المسلمة .. حيث خرج منهم مليونان بين عام 1873 و 1893م، استقروا في تركيا والأقاليم العثمانية الأخرى مثل رومانيا وبلغاريا .. ولم يبق في القرم عشية انطلاق الثورة البشلفية في أكتوبر 1917م سوى جالية صغيرة معوزة تحاصرها كتل سكانية من المستوطنين الروس والأوروبيين .. دمرها ستالين تدميرا كاملا ..

حاول الروس خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر الزحف نحو القوقاز الشرقي (أذربيجان) ولكنهم ارتدوا عنها مخفقين .. ثم عاودوا الغزو مرة أخرى في مطلع القرن التاسع عشر .. ولكنهم أمام المقاومة الشديدة لم يستطيعوا أن يفرضوا على أذربيجان سيطرة حقيقة فأبقوا الحكم في يد حكامها السابقين .. ولكنهم لجأوا

لإثارة الفتن بين الأتراك الأذيريين وجيرانهم الأرمن ليستنفذوا قـوتهم في هذا الصراع .. فتجمدت المقاومة الإسلامية ضد الروس ولكـن ظل نفوذهم مع ذلك ضعيفا — حتى قامت الثورة البلشفية ..

الروس في سهوب قازاخ:

القازاق أو الكازاخ سهوب ممتدة حتى الحدود الصينية .. كانت تحت الحماية الروسية منذ نهاية القرن السابع عشر .. وهي سـيطرة متواضعة كان الروس يتطلعون إلى تطويرها .. حتى وجدوا فرصتهم عندما نشب صراع بين المسلمين من القبائل الكازاخية وبين البوذيين على الحدود الصينية .. فتدخل الروس لمساعدة الكازاخ في حـروبهم مع الصينيين .. ومن هذا المدخل استطاعوا أن يحوّلوا وضع الحمايـة تدريجيا إلى إحتلال إستيطاني مباشر ..

فجاءت أول موجة من المسـتوطنين الـروس والأوكـرانيين ليكتسحوا كازاخ ويحاصروا المسلمين فيها إلى درجـة الاختنـاق. وكان رد الفعل من جانب المثقفين من قادة الحركة القومية الكازاخية أن التحقوا في مقاومة الروس بالحركة السياسية للرابطـة الإسـلامية بقيادة تتار الفولجا كما سنرى في مرحلة لاحقة .

القوقاز الشمالي:

ربما يكون القوقاز الشمالي هو المنطقة الإسلامية التي واجه فيها الاستعمار الروسي أعتى مقاومة على مدى القرون .. بلغت ذروتها سنة 1773 بالجهاد الذي أعلنه الإمام "منصور أوشورما" .. ثم تواصلت المقاومة الضارية خلال الحركة الصوفية المريدية بقيادة الإمام شامل (من 1824 حتى عام 1859) ثم استؤنفت بعد ذلك بثورة داغستان في عامي 1877 و 1878م .. ثم تواصلت ثورات القوقاز الشمالي .. وليس المشهد الذي نراه اليوم في الشيشان إلا حلقة في سلسلة طويلة من المقاومة الضارية .. والمواجهات البربرية التي تشنها القوات الروسية ضد هذه المقاومة .. مما سنأتي على تفاصيله عندما نتناول جمهورية الشيشان بتفصيل أكثر.

كان غزو روسيا القيصرية لهذه المنطقة عبئًا لم تتحمله الدولة سواء من الناحية الاقتصادية أو المعنوية .. ولذلك لم تحاول الجيوش الروسية غزو المناطق الجبلية فيها، وكان سكانها موضع هيبة من السلطات الروسية التي اكتفت فيها بأعمال المحافظة على الأمن قدر استطاعتها .. واحتفظ النبلاء الشركس في "كبرديا" وفي أقليم "أوسيتيا" وأراضي داغستان الخصبة بامتيازاتهم ؛ ومن ثم ظلوا على ولائهم لمملكة آل رومانوف رغم عدائهم للروس. أما القيادات الصوفية – وكانوا أكثر نفوذا وانتشارا في أوساط الجماهير – فقد

ظلوا على عدائهم للمستعمرين الروس و لم تنقطع مقاومتهم السـرية لهم تحت راية الجهاد الإسلامي.

غزو آسيا الوسطى:

في عهد الإمبراطور ألكسندر الثاني إنتقلت روسيا إلى مرحلـة النمو الرأسمالي فكانت بذلك مختلفة عن دولة والده الـتي اتسـمت بتوجّهاتها البيروقراطية العسكرية .. هنا اختلفت الدوافع الاستعمارية فأصبحت تسعى للحصول على المواد الخام اللازمة لصناعة النسـيج التي استُحدثت في روسيا في ذلك الوقت ..

بدأ الروس بغزو "تشيمكنت" سنة 1855م وبـذلك انفـتح أمامهم الطريق إلى المناطق الواقعة جنوب "سير داريا" ؛ فتقدموا نحو طشقند واحتلوها عام 1865، وفرضوا الحماية على أمير بخـاري عام 1873م ، وعلى إمـارة خيـوه عـام 1874م .. وفي عـام 1878م دخل الروس إمارة "جوقنْده" .. وتم غزو آسيا الوسـطى باحتلال تركمان الذي استغرق عقدا من الزمن فيما بين عام 1873 حتى عام 1884م .. ثم وصل الروس إلى حوض نهر بامير الأعلـى سنة 1900م .

ويجمع المؤرخون على أن أهم العوامل التي يسّرت على الـروس غزوهم لآسيا الوسطى هو أن حكام المسلمين لم تكن تجمعهم وحدة

سياسية أو عسكرية واحدة بل كانوا منهمكين في معارك لا تنقطع بعضهم مع بعض ..

أنشأت السلطات الروسية لكل بلاد آسيا الوسطى حكومة احتلال تحت اسم "حكومة تركستان العامة" جعلتها تحت السلطة العسكرية .. ولكنها لم تتدخل في قانون المسلمين المستمد من الشريعة الإسلامية .. و لم تلزمهم بالخدمة العسكرية .. وبالتالي لم تعتبرهم مواطنين خاضعين للقانون الروسي .. فهم غير متساويين في الحقوق مع الرعايا الروس.

لم تحاول روسيا القيصرية إدماج سكان تركستان في المجتمع الروسي كما فعلت مع المسلمين في المناطق التترية .. ويرجع السبب في ذلك إلى أن السياسة التي استقرت عليها روسيا في تركستان كانت سياسة إستعمارية استغلالية خالصة ..

من تجليات هذه السياسة:

منع السكان من الاحتكاك بالحضارة الأوروبية .. وعزل المسلمين تمامًا عن أي تأثير خارجي لاسيما تأثير تتار الفولجا .. كان يشرف على سياسة عزل المسلمين الجنرال الروسي "كاوْفمان" أول حاكم عسكري عام لتركستان .. وكان هدفه الأكبر أن يظل المسلمون في آسيا الوسطى في حالة من جمود القرون الوسطى

وتخلّفها .. وبذلك يحول دون أي مقاومة إسلامية منظمة ضد المستعمرين الغزاة ...

وفي هذا الإطار دأبت السلطات الروسية على تشجيع السكان للمحافظة على التقاليد والعادات البالية .. ومنعوا المسلمين التتار من فتح مدارس حديثة بالمنطقة .. وفرضت حالة من العزل العنصري التام بين المستوطنين الروس وبين السكان المسلمين ..

ولعل من أهم نتائج هذا الحصار وذلك العزل العنصري أن تأخرت اليقظة القومية في آسيا الوسطى عن غيرها بين الشعوب التركية الأخرى في الإمبراطورية الروسية .. وحتى عندما تفجرت حركة التحرير القومي في هذه المنطقة خلال سنة 1905م كان وراءها عدد كبير من القيادات التترية.

وبعد غزو آسيا الوسطى لم تعد روسيا في حاجة إلى الوسطاء من المسلمين التتار الذين كانوا يجلبون لها البضائع من مسلمي آسيا الوسطى وكانوا يسيطرون على طريق الحرير وعلى تجارة الشرق التي تمر به .. فقد التتار إذن وظيفتهم بعد أن وضعت روسيا يدها على طريق الحرير وعلى آسيا الوسطى كلها .. ولكي تقضى روسيا على قوتهم الاقتصادية شرعت في تنفيذ إجراءاتها القمعية لدمجهم في المجتمع الروسي وهذا معناه إجبارهم على اعتناق الأرثوذكسية ..

في هذا المجال برزت سياسة المستشرق والمبشر الروسي البروفسور "نيكولاس إلْمنيسكى" الذي وضع لنفسه هدفا أساسيًّا هو العمل على تنشئة نخبة مثقفة من المسلمين التتار يعتنقون الأرثوذكسية ثم يستعين بهم في التبشير للمسيحية بين ذويهم .. وتنسب بعض المصادر الروسية نجاح مدارس إلمنيسكى للتبشير في اجتذاب مائة ألف تتري مسلم إلى الأرثوذكسية أطلق عليهم اسم "الكرياشين". وسوف نعرض بالتفصيل لهذه الواقعة في فصل لاحق لنقف على أبعادها الحقيقية .. ولنرى كيف عاد الكرياشين مرة أخرى إلى الإسلام أكثر وعيا .

انبعاث الحركة القومية:

شهد القرن التاسع عشر انبعاث القومية عند المسلمين، حيث انطلقت في بلاد التتر ثم انتشرت في الأقاليم المسلمة الأخرى بآسيا الوسطى ..

تولدت الحركة القومية تحت تأثير الصراع مع الاستعمار الروسي .. ولكنها استمدت أفكارها من مصادر متعددة كالليبرالية البريطانية والرومانسية الألمانية، والثورة الفرنسية، وأفكار تركيا الفتاة وكذلك الحركة الدستورية الإيرانية، ولم تكن مقطوعة الصلة عن حركة الإصلاح التي قادها الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي في المشرق العربي ..

ولم تختلف الحركة القومية بين المسلمين في روسيا اختلافا كثيرا عن مثيلاتها في البلاد الإسلامية الأخرى، سواء من حيث أهدافها أو تنظيماتها أو أساليب عملها، ولكنها اتخذت في روسيا طابعا خاصا بحكم الاختلاف في التحديات والعوائق.

وقد تراوحت أهداف الحركات القومية فيما يتعلق بالصلة مع روسيا بين البقاء في إطار الدولة مع الاستقلال الثقافي متمثلًا في الحفاظ على اللغة والتقاليد الإسلامية والحرية الدينية، وبين الاستقلال السياسي بدرجاته المختلفة التي وصلت في بعض الأقاليم وفي بعض مراحل الصراع إلى الرغبة في الانفصال الكامل عن روسيا القيصرية.

ثم يأتي بعد ذلك اختلاف جوهري آخر في أمرين:

اختلاف حول الهوية القومية هل تكون الرابطة التركية أم الرابطة الإسلامية.

اختلاف تكتيكي مرحلي يتعلق باختيار الشريك الروسي الذي يمكن أن يساعد المسلمين على التحرر والتخلص من مظالم القيصرية: الروس البيض أم الحمر، الاشتراكيون أم الشيوعيون الماركسيون أم البلاشفة...؟.

ومثل غيرها من الحركات القومية في البلاد الإسلامية الأخرى، مرت الحركة القومية الإسلامية في روسيا في ثلاث مراحل:

مرحلة الإصلاح الديني،
ومرحلة الإصلاح الفكري والثقافي،
ومرحلة الإصلاح السياسي.

الإصلاح الديني:

كما ظهر في مصر حركة تجديد وإصلاح ديني بقيادة جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، ظهرت في نفس الفترة حركة إصلاح ديني في روسيا، بنفس الهدف وهو تخليص الإسلام من الخرافات والجمود الذي لحق به وأقعده عن مسايرة الحياة الحديثة بتقدماتها العلمية والتكنولوجية .

وكان في طليعة الإصلاح الديني في روسيا، علماء الدين التتار، ومن أبرزهم: "شهاب الدين مرجانى" (1818 – 1899م)، و"عبد القيوم ناصرى" (1825 – 1902م)، "وموسى جار الله بيجى" .. حاول هؤلاء العلماء – كما حاول الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما من الإصلاحيين في العالم العربي والإسلامي – تشخيص أسباب تخلف المسلمين، واجتهدوا في وصف علاج هذا التخلف بالعودة إلى التحرر العقلي، وإعمال العقل في فهم القرآن والسنة، وطرح التقليد الأعمى والتسليم المطلق بآراء المتقدمين دون تمحيص ،

وضرورة الاجتهاد في الأحكام الفقهية لمواجهة مستحدثات الحيـاة العصرية في المجالات السياسية والاجتماعية.

وبفضل هذا الجهد الفكري لهؤلاء المصلحين لم يعـد الإسـلام عائقا أمام التقدم، كما أنه كان مقدمة ضرورية للإصلاح في المجالات الأخرى، اللغوية والتعليمية والثقافية والسياسية.

لكن حركة الإصلاح أثارت جدلا عنيفا أدّى إلى انشـقاق في المجتمع المسلم، بدأ في مجال الفكر ثم انتقل إلى المجال السياسي. ومـن ثم انقسم رجال الدين إلى فريقين متعاديين: فريق المجددين الذي لحقه فيما بعد أنصار الإصلاح السياسي، ومـن كـان يطلـق علـيهم "التقدميون الثوريون"، وفريق تقليدي آخر جمد على القديم وخاصم التجديد وعادى كل تغيير باعتباره بدعة غربية .

الإصلاح الثقافي:

كانت اللغة العربية والفارسية هما اللغتين اللـتين اسـتخدمهما مسلمو الإمبراطورية الروسية حتى منتصف القرن التاسع عشر، ذلك إلى جانب لغة أخرى امتزجت فيها عناصر من التشاغتائية والتتريـة والقازانية. وكان استخدام هذه اللغات مقصورا إلى حد كبير علـى النخبة .

وكان الإصلاح يستلزم وجود لغة حية يتواصل بها الجميع، ومن ثم ظهرت سنة 1875 -في آن واحد تقريبا- اللغات الأذيرية والتترية والكازاخية ، قام بتطويرها مجموعة من رُوّاد الإصلاح، وكانت الموضوعات المشتركة التي دارت حولها الكتابة هي:

الحرية الدينية، والإصلاحات الاجتماعية، والمساواة في الحقوق مع الروس، وتحرير المرأة المسلمة. ومنذ 1905م بدأت تظهر الدعوة إلى الحكم الذاتي وإلى الاستقلال السياسي التام .

إلا أن ظهور لغات إقليمية جديدة كان ينطوي على تهديد بنسف الوحدة اللغوية والثقافية لمسلمي روسيا وهي اللغة العربية لغة القرآن والتراث الإسلامي .

وفي هذا السياق جرت محاولة مثيرة عام 1880م لإنشاء لغة أدبية تفهمها الشعوب التركية في روسيا وخارج روسيا ، لغة مبسّطة مشتقة من التركية العثمانية ، إستخدمها "إسماعيل جاسبرالى" في صحيفته "الترجمان"، وكانت إحدى أكبر الصحف الدورية الإسلامية، صدرت في "بقجة سراى" بالقرم . وكان الإصلاح التعليمي يسير في ركاب الإصلاح اللغوي، وفي هذا المجال أيضا يأتي جهد "إسماعيل سبرالى" الذي أنشأ شبكة من المدارس المتقدمة في مدن قازان وأوفا وأورينبورج وتراوتسك وبقجة سراى وباكو، وأصبحت

هذه المدن مراكز فكرية وثقافية ، وبذلك إنفتح الباب واسعا أمـــام آخر مرحلة من الإصلاح ، وأعني بها الإصلاح السياسي .

الإصلاح السياسي
وحركة الرابطة الإسلامية:

من أبرز السمات التي طبعت جهود الحركـــات السياســـية في روسيا القيصرية: البحث عن السيادة المفقودة، وعـــن المســـاواة في الحقوق مع الروس الأوروبيين، والحصول علـــى الحكـــم الـــذاتي أو الاستقلال التام، ومن أهم هذه الحركات السياسية وأكثرها شـــهرة "حركة الرابطة الإسلامية" .. ولتوحيد المجتمعات المسلمة في روسيا قام تتر الفولجا بدور الرواد الأوائل، فهم أول من أنشأ حركة سياسية لهذا الغرض .. كانت قياداتهم تصدر عن عقيدة معتدلة في أهـــدافها وفي أساليبها، ذلك لأنهم كانوا على وعـــى بحقيقـــة أن المجتمعـــات المسلمة أضعف من أن تدخل في حـــرب ناجحـــة ضـــد قـــوات الإمبراطورية .

لكن هزيمة روسيا سنة 1905م أمام اليابان، وهي دولة آسيوية أحدث صدمة نفسية كبرى في أرجاء الإمبراطورية الروسية ، وأعطى انطباعا سائدا بأن روسيا ليست بالقوة المظنونة ، وأنه من الممكـــن الانتصار عليها .. هذا الشعور الجديد أطلق الرغبة بـــل الأمـــل في

التحرر، وهكذا سجل عام 1905م البداية الحقيقية للنضال السياسي في المجتمعات المسلمة، ومن ثم بدأت تظهر بينها مطالب قومية جماعية لأول مرة .

في نفس العام (1905م) عقد في نيجنى – نوفجرود أول مؤتمر سرى للمسلمين حضره مائة مندوب تترى ، ونوقشت في هذا المؤتمر مطالب بالحقوق المدنية والمساواة مع المواطنين الروس ، وقد تم انعقاد هذا المؤتمر بالتعاون مع بعض الأحزاب الروسية الليبرالية ، وتقرر فيه تأسيس "إتحاد المسلمين" تفتح فيه العضوية لجميع المسلمين في الإمبراطورية الروسية .

وفي 13 فبراير عام 1906م عقد مؤتمر سرى آخر في بطرسبورج حضره مندوبون من التتر والقرم والقوقاز والكازاخ وعدد قليل من مسلمي التركستان (آسيا الوسطى). نوقش في هذا المؤتمر موضوع التعاون السياسي مع حزب "الدستوريين الديمقراطيين" الروسي .. وفي أغسطس 1906م عقد مؤتمر ثالث ولكنه كان علنيا، في نيجنى- نوفجرود حضره مائتا مندوب، وعرضت فيه مقترحات بإطلاق الحرية الدينية وحرية التعليم للمسلمين ، وتقرر فيه أن يكون "إتحاد المسلمين" حزبا سياسيا .. لكن وحدة الأمة المسلمة تصدعت لأول مرة بسبب ظهور أشخاص معروفين باتجاهاتهم الماركسية المتطرفة في قيادة الحزب الجديد ، ولهذا السبب

أيضا تخلى الروس من "حزب الدستوريين الديمقراطيين" عن مساندة مطالب المسلمين .. وكانت النتيجة أن تفكك الحزب من ناحية، وأدرك زعماء المسلمين أنه لا أمل ولا جدوى من التعاون مع الليبراليين الروس، واقتنعوا باستحالة الحصول على أي إصلاحات بالطرق السياسية المشروعة في ظل النظام القيصري المستبد .. ولذلك بدأت تظهر قيادات أخرى شابة تكنّ عداوة أكثر تجاه روسيا والروسيين وأخذت ترفع الشعارات الاشتراكية .

لكن حلم الوحدة السياسية للمسلمين لم تنطفئ جذوته بل عاد للظهور مرة أخرى بعد سقوط العهد القيصري وانتصار الثورة البلشفية في أكتوبر 1917م .

إنشقاق الحركة القومية في عام الثورة البلشفية:

في عام 1917م كان تعلق الحركة القومية بالفكر الإسلامي قويا كما كان دائما ، ولكن كان برنامجها الاجتماعي ذا مضمون إشتراكي واضح ، حتى أن بعض زعمائها كان يميل إلى التعاون مع البلاشفة متشجعين بالشعارات التي أطلقها لينين في تلك المرحلة المبكرة من انطلاق الثورة بالنسبة للقوميات غير الروسية .. ولهذا

الغرض انعقد مؤتمر في موسكو أول مايو سنة 1917م ، حضره تسعمائة مندوب من جميع الأقاليم المسلمة .

شهد هذا المؤتمر تأكيدا مجمعًا عليه لوحدة الأمة الإسلامية في روسيا، ولكن تبلور فيه اتجاهان متعارضان وإن لم يبلغا حد التصادم: اتجاه أنصار الحكم الذاتي والاستقلال الثقافي (في اللغة والدين) ، في إطار دولة روسيا الموحدة ، وكان يتزعم هذا الاتجاه القادة التتر، واتجاه المدافعين عن اتحاد فدرالي لدول إسلامية مستقلة تزعمه الأذيريون والتركستانيون .

وتم في هذا المؤتمر انتخاب إدارة مركزية مكلفة بتنسيق شئون الأمة المسلمة، ومجلس شورى إسلامي ولجنة تنفيذية .. وفي الشهر التالي (يونيه 1917م) عقد في قازان مؤتمر إسلامي آخر حضره التتار البشكيريون والقرميون وغاب عنه الأذيريون والتركمان نظرا لحالة الفوضى التي سادت في بلادهم .

كان مؤتمر قازان هذا مؤتمرا ثوريا أسقط قرارات المؤتمر السابق، وكانت الكلمات فيه صريحة وجريئة تدعو بقوة للرابطة الإسلامية الشاملة وتدعيمها بالقوة العسكرية، ولهذا الغرض أنشئ مجلس عسكري مقرّه قازان ، وبدأ بالفعل تجنيد جيش إسلامي بقيادة ضباط تتريين وبشكيريين، وأنشئت – إلى جانب ذلك – إدارة قومية إسلامية مقرها "أوفا" مهمتها أن تقوم بالدعوة لاجتماع مجلس قومي

يعقد في 20 نوفمبر 1917 لتقرير مصير المسلمين في روسيا ..
ولكن تسللت آفة الخلاف في صفوف القيادات على أولويات العمل فانفرط عقد الحركة القومية، فلما انفجرت الثورة الروسية استقبلتها المجتمعات المسلمة وهي على حال بائس من التشتت والاضطراب كانت له آثاره الخطيرة على مصير هذه المجتمعات .

ولكن على الرّغم من تشتت حركات التحرير الإسلامية في الأقاليم إلا أنها إتسمت جميعا بسمات مشتركة ، من أبرزها: التصميم على الحصول على حريات أوسع والمحافظة على القاعدة الإسلامية للمجتمع الإسلامي ، ولم يشذّ عن هذا التوجه حتى أنصار الشيوعية الماركسية .. أما فيما وراء هذا الإجماع فقد تراوحت الأهداف بين مجرد السعي في سبيل الحصول على حكم ذاتي محدود ، إلى الاستقلال التام .. كذلك تباعدت الأحزاب في موضوع الحليف الروسي المناسب: هل يكون الليبراليين أم الاشتراكيين أم المحافظين أم البلاشفة !؟.

كما اتخذت الأحزاب المسلمة توجّهات فكرية مختلفة أساسا لحركتها: فكان الإسلام بصورته المتشددة في داغستان ، أو بصورته الليبرالية المرنة كما في تركستان ، بينما تبنّت قلة من الأحزاب برنامجا سياسيا علمانيا أو ماركسيا مع فارق واحد وأساسي وهو "اللاعداء مع الإسلام" .

هذا النموذج الأخير نصادفه في بلاد التتار حيث انفصل الجناح اليساري الثوري عن الحركة التترية القومية في إبريل 1917م ليؤسس في قازان اللجنة الاشتراكية الإسلامية بقيادة "ميرسعيد غالييف" و "ملّا نور وحيدوف" اللذان أصبحا – فيما بعد – زعيما ما عرف باسم [الحركة الشيوعية الإسلامية القومية] . كانت هذه الحركة تتبع خطوط البرنامج السياسي للشيوعيين البلاشفة ، إلا أنها لم تتخلى عن فكرة الوحدة السياسية والثقافية لجميع الشعوب الإسلامية في روسيا ، ولا عن فكرة مقاومة الاستعمار الروسي، ورفض فكرة الصراع الطبقي في المجتمع الإسلامي ، ورفض الإلحاد ، مع التمسك بالإسلام كأساس للمجتمع.

أما في شمال القوقاز فقد انشقت الحركة الوطنية إلى فريقين:

فريق وطني مهادن لا يمانع – لأسباب تكتيكية – في تعاون مؤقت مع حكومة بتروجراد ومع الروس المحليين .

وفريق آخر متشدد وهو الأكثر شعبية والأشد قوة ، يتزعمه شيوخ النقشبندية المتصوفة ، ويستهدفون إعادة بناء دولة إسلامية على غرار دولة سلفهم "الإمام شامل". وفي صيف 1917م انتخبوا "نجم الدين جوستو" إماما لداغستان وبلاد الشيشان ، وبدءوا يستعدون للجهاد .

الحركة القومية الإسلامية
أثناء الثورة البلشفية:

لابد هنا أن نطرح سؤالاً وهو: كيف كان زعماء المسلمين – على اختلاف مشاربهم– ينظرون إلى الثورة الروسية ؟ هذا سؤال بالغ الأهمية لأن الإجابة عليه هي التي حددت مواقفهم من الثورة ، وهي التي حددت بالتالي مصائرهم .

والإجابة ببساطة وهي: أن المسلمين في روسيا لم يكونوا معنيين بجانبها الأيديولوجي ولا بحقيقة أنها كانت بداية لعصر اشتراكي جديد ، وإنما كانت الثورة في نظرهم تمثل إنهيار دولة روسيا القيصرية الاستعمارية المستبدة ، ومن ثم فهي فرصة سانحة لتحقيق مطالبهم القومية في الحرية والاستقلال .

لذلك قام المسلمون – خلال الأعوام الثلاثة الأولى للثورة – بسبع محاولات للاستقلال التام والحكم الذاتي ، كان نصيبها جميعا الفشل ، لكنها خلّفت بصمة عميقة الأثر في الوجدان المسلم ، وأصبحت ذكريات تاريخية خالدة عند جميع المسلمين في الاتحاد السوفييتي .

من أبرز هذه المحاولات ثورتان كبيرتان هما ثورة داغستان في القوقاز الشمالي، وثورة البسمتشية في آسيا الوسطى ، وحدثت

محاولة وحيدة في بلاد التتر ، كانت قصيرة الأجــل، أعلــن فيهــا المسلمون قيام جمهورية ذات حكم ذاتي سرعان ما قُضى عليها.

الثورة في بشكيريا:

انطلقت في هذه المنطقة عدة ثورات مسلحة قام البشــكيريون أثناءها بإنشاء حكومات مستقلة مرة في أورينبودج (خلال ديســمبر 1917م)، ومرة أخرى في أوفا (خلال سبتمبر 1918م)، كــانوا يغيرون حليفهم الروسي في كل مرة فلم يجدوا من هــؤلاء الحلفــاء سوى الخيانة ، حتى استقروا مع البلاشفة ، ولكن سرعان مــا دب الخلاف بين الفريقين، حيث كان البشكيريون يسعون لانتزاع أقصى قدر ممكن من التحرر السياسي والثقافي، بينما كان البلاشفة يسعون إلى بلشفة بشكيريا ، وكان هذا يعنى إثارة الصراع الطبقي وتــدمير المجتمع التقليدي المسلم بالعنف .

هناك أدرك الزعيم البشكيري "زكى وليدى طوقان" ورفاقه أن التعاون مع الروس من أي لون صفقة خاسرة أبدا ، فهرب إلى آســيا الوسطى ليلتحق هو ورفاقه بحركة البسمتشية .

الثورة في سهوب القازاخ:

لم يكن مصير الثورة في سهوب الكازاخ بقيادة حــزب "ألاش أوردا" بأفضل من مصير ثورة البشكيريين ، مع فارق واحد هــو أن حزب "ألاش أوردا" إضطر للاعتراف رسميا بالنظام السوفييتي ، حيث قُبل زعماؤه أعضاءً في الحزب الشيوعي وتولّوا السلطة في بلادهــم فظلوا فيها حوالي عشرين سنة .

الثورة في أذربيجان:

كان الأذربيجانيون البلاشفة أقلية لا تكاد تــذكر ولــذلك لم يحاولوا الاستيلاء على السلطة في باكو عندما انفجــرت الثــورة ، ولكنهم عادوا في العام التالي وقد جلبــوا معهــم متطــوعين مــن الاشتراكيين الروس والأرمن وقلّة من أنصار حزب همت الأذربيجاني ، جاءوا لمحاربة الوطنيين بقيادة حزب "مساواة"، واستمرت المعــارك ثلاثة أيام .. وحقيقة الأمر أنها لم تكن معارك وإنما كانت مذابح راح ضحيتها ثلاثة آلاف مسلم ، واضطر بعدها معظــم قــادة حــزب "مساواة" من الفرار إلى مدينة "غنجا" (كيرفوباد حاليا) ، حيث ألّفوا حكومة "المجلس الأذربيجاني" ، مناهضة لحكومة "كومــون بــاكو" الشيوعية ، وفي يوليه 1918 جاءت وحدات من الجيش التركي مع فصائل أذيريه عن حزب مساواة فاحتلوا أذربيجان بعد معركة قتــل

فيها عدد كبير من الأرمن ، ثم جاء البريطانيون من إيـــران فـــاحتلوا مدينة باكو، ثم انسحبوا مـــن أذربيجـــان في أغســـطس 1919، فعاشت أذربيجان جمهورية مستقلة ذات سيادة إلى أن غزاها الجيش الأحمر في إبريل 1920م .

كانت هذه تجربة مثالية للمسلمين في الجهاد من أجل اســـتقلال حقيقي أصبحت علامة مميزة في تاريخ أذربيجان .

الثورة في القوقاز الشمالي:

عشية الثورة البلشفية (1917) كان المجتمع المسلم في المنطقـــة الجبلية من داغستان والشيشان منقسما على نفسه إلى ثلاث شـــعب متميزة :

شعبة عددها قليل ولكنها ذات نفوذ، قوامهـــا مـــن المـــثقفين الشيوعيين، هؤلاء حملوا السلاح وقاتلوا في صفوف الجيش الأحمـــر ضد مواطنيهم .

شعبة أخرى قليلة العدد أيضا من عناصر ليبرالية معتدلة لم تكن طموحاتها تتعدى حكما ذاتيًّا محدودا في إطار دولة روسية ديمقراطية ليبرالية .

شعبة ثالثة تستند إلى قاعدة جماهيرية عريضة وتدافع عن ثوابت العقيدة الإسلامية لهذه الجماهير، هؤلاء كانوا يقاتلون (بقيادة رجال

الدين النقشبنديين) الروس جميعا سواء منهم الحمر أو البيض بـــنفس الضراوة، فقد كان هدفهم كما سبق أن أشرنا هو إحياء دولة الإمام شامل الإسلامية المستقلة .

كانت الحرب في القوقاز الشمالي شرسة تتقلّب بين مد وجذر، اختفى من ساحتها الليبراليون سريعا ، أما قيادها الراسخة فقد تمثلت في شخصية الإمام "نجم الدين جوستو" والشـــيخ "أوزن حجـــى"، وظلت قوهما هي القوة الإسلامية الوحيدة المنظمة الـــتي تصـــدت للجيش الأحمر منذ بدأ غزوه للمنطقة في ربيع 1920م .

وهكذا تزعم القادة النقشبنديون الثورة الكبرى ضد السوفييت في الشيشان وداغستان واستمر جهادهم البطولي قرابة عام . وكانت هذه الحرب الجهادية الإسلامية أخطر التحديات التي واجهت الجيش الأحمر في كل مناطق المسلمين ، كما كانت من ناحية أخـــرى أول تجربة سوفييتية في مواجهة حرب خاطفة يخوضها فدائيون يعتمـــدون على الكرّ والفرّ في معاركهم ، ولم يكن الجيش الأحمر مهيئاً لخوض مثل هذا النوع من المعارك .

وأصبحت ثورة 1920 للشيشانيين والداغســـتانيين أســـطورة تاريخية يحكيها الناس عن أبطال الجبال ، وأصبح قـــبر الشـــيخ أوزن حجى الذي أستشهد أثناء الثورة أحد المزارات المقدسة في القوقـــاز الشمالي .

الثورة في آسيا الوسطى:

في أكتوبر 1917م إستولى الثوار البلاشفة على السلطة في طشقند بمساعدة كبيرة من المستوطنين الروس في المدينة ، لم يكن هؤلاء شيوعيين بل معادين للشيوعية، ولكنهم كانوا يعلمون أن هذه البلاد ليست وطنهم الحقيقي ويشعرون أنهم مستوطنون دخلاء، وأن المسلمين هم أصحاب الوطن الحقيقيين ، ومن ثم لم يكن مستغربا أن ينحاز الروس بعضهم إلى بعض ، فهم جميعا مستعمرون يستوي في ذلك الحمر والبيض . وهكذا سلك النظام السوفييتي منذ بدايته مسلكا إستعماريا سافرًا فاحتفظ بالمستوطنين الروس من كبار الموظفين والضباط والتجار ولم يكونوا من الثوار البلاشفة ، وأبعد الثوريين المسلمين من إدارة البلاد .

من هنا اقتنع زعماء المسلمين إستحالة التعاون مع النظام السوفييتي الجديد، الذي كشف عن أنيابه فإذا هو أشد ضراوة من النظام القيصري السابق.. وترتب على ذلك أن دعى الزعماء إلى عقد اجتماع في مدينة جوقنده خلال نوفمبر 1917 أعلن فيه مجلس الشعب الاستقلال السياسي لتركستان ، وبذلك انشقت البلاد إلى منطقتين: طشقند التي يسيطر عليها الروس، ومنطقة وادي فرغانة المستقلة .

هاجمت القوات السوفييتية يوم الخامس مـــن فبرايـــر 1918م جوقنده ودمرهّا ونزل الجيش إلى المدينة فنهبها وذبح جميع ســـكانها المسلمين . وفي مارس 1918 شن الجيش الأحمر هجوما على إمارة بخاري ولكن فشل هذا الهجوم رغم مساعدة الشيوعيين مـــن أبنـــاء بخاري لرفقائهم الحمر ، ويرجع هذا الفشل إلى المقاومة الصلبة الـــتي نظمتها حركة البسمتشية الإسلامية ، هذه الحركة المسلحة بدأت عام 1918 لتستمر حتى عام 1928، بل ظلت مســـتمرّة في بعـــض المناطق حتى سنة 1936.

كانت حركة البسمتشية ثورة شعبية حقيقية إجتذبت عناصرها من أوساط شعبية وطبقات فقيرة من أهل القرى والمـــدن والبـــدو، تلاحمت فيها قوميات مختلفة من الأوزبيك والقرغيز والتركمان .

إسم "البسمتشية" يعني في اللغة الأوزبكية "قطّاع طرق"، وهـــو اسم أطلقه الروس على حركة المقاومة الإسلامية في فرغانة ، تمامـــا كما يطلقون اليوم في عدوانهم على الشيشان إسم الإرهابيين و[قطاع الطرق] على المجاهدين الشيشان الذين يدافعون عن وطنهم ...

شملت قيادة الثورة الإسلامية في وادي فرغانة عناصر شتى مـــن الحكام المحليين ورؤساء القبائل التركمان ، وزعماء دينيين ومتصوفة، انضم إليهم (كما سبق أن ذكرنا) "أحمد زكـــي وليـــدى طوقـــان" الرئيس السابق للمجلس الثوري في بشكيريا ، وأنور باشـــا وزيـــر

الدفاع التركي المتقاعد، وقد استشهد في أحد معاركه مع الروس سنة 1922م .

كانت حركة المقاومة في فرغانة ثورة إسلامية شعبية عفويّة إتسمت بروح الجهاد الإسلامي الحقيقي دفاعا عن الدين والأرض ، سقط فيها آلاف الشهداء واستقرت في تاريخ فرغانة علامة مميزة ، وكانت بالنسبة للروس أشق عملية قمع عسكرية خاضها الجيش الأحمر في تاريخ الاتحاد السوفييتي .

الشيوعية القومية الإسلامية:

ربما يبدو هذا العنوان شديد الغرابة مثيرا للتساؤلات، ذلك لأنه مركب من ثلاث مصطلحات متناقضة فكريا متصارعة عمليًّا ، ومع ذلك فقد وجدت في تاريخ الاتحاد السوفييتي ظاهرة غريبة تحت هذا الاسم واستمرت في الوجود حوالي عشرين سنة من 1918 إلى 1938م، وتركت في آخر الأمر بصمة عميقة الأثر في الحركة القومية للمسلمين.

كانت هذه الظاهرة نتاجا فكريا بقدر ما كانت تمثل نشاطا عمليا لمجموعة من الشباب الوطني المثقف من تتر الفولجا ، كانوا هم الرواد .. ثم انضم إليهم ممثلون آخرون من القوميات المسلمة الذين كان لهم نضال مشهود قبل الثورة البلشفية ، ضمن مجموعات

سياسية مختلفة من اليمين ومن اليسار.. كان معظمهـــم زعمـــاء في صفوف البرجوازيين والأرستقراطيين ، انضموا إلى الحزب الشيوعي الروسي فيما بين عامي 1917 و1920م، وظلوا في السلطة حوالي عشرين عامًا ، عمل بعضهم في موســكو مســاعدين لســتالين في "مفوضية الشعب للقوميات"، وشكل بعضهم الجناح اليميني الــذي كان هو الطابع الغالب على الأحزاب الشيوعية في الأقاليم المسلمة .

هؤلاء الشيوعيون – إذا أردنا أن نلخص تجربتــهم الفريــدة – نقول: إنهم حاولوا إحتضان الماركسية اللينينية ولكن بشروط تاريخية واجتماعية وثقافية إسلامية، فكان الإخفاق هو نصــيبهم ، وكــان مصيرهم الذي حدده ستالين (بقسوة مروّعة) هو التصفية الجسدية، خلال فترة إمتدت عشر سنوات من 1928 إلى 1938م .

فمن هم هؤلاء الناس ..؟:

لم يكن ثمة بلاشفة مسلمون قبل الثورة الروسية، ولكن خــلال الفترة بين 1917 و1920م قبل الحزب الشيوعي الروســي عــدة آلاف من المسلمين ، كان معظمهم من المناضلين الوطنيين المتطرفين انضم بعضهم بشكل فردي مثل أنصار التجديد والإصلاح، بينمــا جاء غيرهم في إطار مجموعات سياسية بكاملها مثل حزب "همّــت" الأذيرى وحزب "شباب بخارى" و "شباب خيوه" ..

كانت الأيديولوجية الماركسية عندهم مفهوما ضبابيا يشوبه الغموض ، والحقيقة أن هذه الأيديولوجية لم تكن تعنيهم كثيرا في مجالاتها الاقتصادية أو الاجتماعية ، وإنما اتجهوا إلى البلاشفة لأسباب عملية خالصة منها:

أولا: أنهم وجدوا من حلفائهم الآخرين المناهضين للبلاشفة، قصور نظر وضعف في الوعي السياسي بل جهل تام بمشكلات المسلمين القومية . وقد ألمحنا (في هذا المجال) إلى خيبة أمل القادة البشكيريين والكازاخيين في تحالفاتهم مع القوات البيضاء، واضطرارهم في نهاية الأمر إلى الالتحاق – على كره منهم – بالبلاشفة الحمر.

ثانيا: جهود ستالين الخاصة وكان رئيسا لمفوضية الشعب للقوميات، ونجاحه في اجتذاب قادة الجناح اليساري المتطرف للحركة القومية في المناطق الإسلامية.

ثالثا: الوعود الغامضة والملتوية التي أعلنها لينين في مقترحات إبريل 1917م ، وكانت هذه أكبر خدعة ضلل بها لينين قادة المسلمين في الاتحاد السوفييتي.

رابعا: الأمل في أن تصبح ثورة أكتوبر خطوة نحو تحرير العالم الإسلامي الذي كان يرزح تحت الاستعمار الأوروبي ، وأن هذه

الثورة ربما تكون أفضل من أي نظام آخر يتيح لهم التخلص من الاستعمار الروسي.

خامسا: إعتقاد ساذج بأن ثورة أكتوبر ربما تكون هي الامتداد الصحيح للحركة التجديدية الإصلاحية التي انطلقت في الأقاليم الإسلامية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

برنامج الشيوعيين القوميين المسلمين:

أهمية هذا البرنامج أنه يكشف عن حقيقة دوافعهم السياسية ويوضح موقفهم من الشيوعية والإسلام ، مختصرة فيما يلي:

يمثل الإسلام إرثا ثقافيا كبيرا ، ولكن يجب تجريده من قداسته ، مع الإبقاء على قيمه الأخلاقية والاجتماعية والسياسية .

ويجب أن تقتصر الحملة المعادية للدين على مكافحة العناصر المحافظة الجامدة من رجال الدين ، وتعرية العادات البالية التي شوهت صفاء الإسلام ، الذي بدأ تاريخه ديمقراطيا ثم أصابه التشويه عبر القرون .

مكافحة النفوذ والاختراق الحضاري الروسي في اللغة والثقافة على كل المستويات.

يجب حماية الأراضي الإسلامية من الاستعمار الروسي وطرد المستعمرين الروس وغيرهم من الأجانب .

تؤلف الشعوب المسلمة (في الاتحاد السوفييتي) أمة واحدة مقسمة إلى عدد من الدول ، ويجب تقليص عدد هذه الدول بحيث يمكن توحيدها – في النهاية – في دولة إسلامية كبرى.

يجب أن يكون للمسلمين حزبهم الشيوعي الخاص بهم، يستقل بلجنته المركزية التي تتبنى برنامجها الخاص .

يجب أن تصبح تركستان قاعدة انطلاق الثورة في آسيا كلها ، وأن يحمل الشيوعيون المسلمون وليس الروس الفكر الشيوعي إلى الشرق .

تصفية الشيوعيين المسلمين:

بدأت الصراعات تظهر بين الشيوعيين القوميين من أمثال سلطان عالييف وطورار ريسكولوف وبين لينين وستالين سنة 1919م موضوع استقلال الحزب الشيوعي المسلم، وحول مشروع الجمهورية التترية البشكيرية الموحدة .

دافع المسلمون عن مقترحاتهم في ثلاث مؤتمرات شيوعية متتالية في أعوام 1919، 1920، 1921م دون جدوى. ذلك لأن القادة البلاشفة كانوا يصرون على أن تكون الصدارة المطلقة للثورة الشيوعية الأوروبية ، وعلى شيوعيّي الشرق أن يمتثلوا بلا معارضة ويخضعوا للنموذج الروسي .

كان البلاشفة الروس لا يرون إمكانية قيام حزب شيوعي في الاتحاد السوفييتي سوى الحزب الشيوعي الروسي .. وإلا طراز واحد للماركسية هو الطراز الروسي.

تفجرت المصادمات بين ستالين وبين الشيوعيين المسلمين سنة 1923م فاعتُقل سلطان غالييف وطُرد من الحزب بتهمة الانحراف القومي .. وأدرك المسلمون متأخرا (كالعادة) أن حلمهم في تركستان الموحدة قد حطمته سياسة ستالين تجاه آسيا الوسطى فاتجهوا إلى العمل السري.

وراح ستالين يحطم قوة الشيوعيين المسلمين بطريقة منظمة خلال عشرة أعوام تخلص فيها – بالقتل – من الطبقة المسلمة المثقفة اللامعة جميعها تقريبا.

بدأت عمليات التصفية الجسدية في منطقة القرم حيث أعدم ستالين السكرتير الأول للحزب الشيوعي التتري ، ثم أعقب ذلك بتصفية أعضاء المجلس الوطني، وامتدت حملة التصفية إلى تتاريا وبشكيريا حتى تم تصفية جميع القادة التتار بين عامي 1928 و1929م، ثم اختفى أعضاء الحزب الشيوعي البشكيري وكبار اتحاد الكتاب وأعضاء المكتب الحكومي للنشر، وأساتذة جامعتي قازان وأوفا ، حتى أعضاء "اتحاد الملحدين التتري" لم يفلت منهم أحد من التصفية الجسدية ...

وفي أذربيجان، بدأت حملة التصفية سنة 1933م ولم تهدأ حتى تمت تصفية جميع الزعماء الشيوعيين الأذيريين وكانوا أعضاء سابقين في حزب "همّت" .

وفي كازاخستان تم إبادة جميع الزعماء القدامى في حزب "ألاش أوردا"، وقد تزامن هذا مع عملية إجرامية كبرى تم فيها إبادة عشرات الألوف من الضحايا الأبرياء وتدمير بلادهم تحت شعار [التمدين الإجباري للبدو] .

وفي آسيا الوسطى، تم تصفية الأحزاب الشيوعية المحلية بين أعوام 1922 و1938م ، وبذلك قُضي على جميع أعضاء "حزب شباب بخارى" السابقين كما تمت إبادة جميع المثقفين الذين كانوا يحملون لواء الإصلاح والتجديد قبل الثورة البلشفية.

كانت حملات ستالين حملات إبادة رهيبة اقترنت بالدعاية الواسعة والبطش المنظم مع مختلف الحيل والمؤامرات البوليسية ، وبهذه الحملات المروّعة اندثرت تماماً من المجتمعات المسلمة أجيال ما قبل الثورة البلشفية الذين أسهموا في الحركة التجديدية وساعدوا النظام الشيوعي في مرحلته الأولى حتى استقر في الأرض وتثبتت أقدامه في السلطة .

ويبدو من واقع الحال أنه لا ستالين ولا لينين كان لديه أي رغبة في أن يكون للمسلمين عضوية بارزة في الحزب الشيوعي ، وكانت

فكرة التصفية الجسدية الواسعة للنخبة المسلمة مرتبطة بإســـتراتيجية ستالين لإخضاع المسلمين لهيمنة سوفييتية استعمارية بلا مقاومة ...

□

الفصل الثالث

الإسلام في روسيا القيصرية

برزت روسيا في أواخر القرن الثامن عشر واحدة من أكبر الإمبراطوريات في العالم، احتوت عددا كبيرا من الشعوب والقوميات والأديان المختلفة؛ ففي الغرب مسيحيون أرثوذكس وكاثوليك، ويهود، وفي الجنوب والشرق مسلمون يشكلون الأغلبية الساحقة من السكان إلى جانب البوذيين والوثنيين.

كل هؤلاء الرعايا من غير الأرثوذكس كان يطلق عليهم اسم جامع هو "إنوردستي" وهذا المصطلح يعني في آن واحد غير المسيحي وغير الروسي، وهم أقوام يختلفون اختلافا كاملا عن الروس ولا يشتركون معهم في أصول عرقية أو دينية أو لغوية، فالروس المستعمرون ينحدرون من سلالات سلافية أوروبية بيضاء ويدينون بالأرثوذكسية ولهم لغتهم وأبجديتهم الخاصة.

كانت روسيا تنظر إلى هؤلاء الأغيار من أبناء آسيا على أنهم حيوانات برية وقبائل بدائية همجية لا عهد لها ولا أمان معها، وهذه نظرة قطبية حادة لعالم منقسم ينفرد فيه غير المسيحي بكل خصائص الانحطاط، بينما يمثل الروس الأرثوذكس قيم الحضارة والأخلاق والنظام والدين الوحيد الصحيح.

هكذا تحددت عند الروس صورة الذات وصورة الآخر، وتحددت بالتبعية رسالة روسيا تجاه الأغيار، فلكي يصبح هؤلاء رعايا مخلصين صالحين لابد من "ترويسهم" أي جعلهم روسيين، ولا يتم

ذلك إلا بحملهم على اعتناق الأرثوذكسية واستئصال لغتهم وثقافاتهم لصالح اللغة الروسية ، بذلك فقط يتأهل الأغيار للاندماج في النظــام القانوني والاقتصادي للدولة الروسية.

أول المناطق التي سقطت في قبضة روسيا هي قــازان في عــام 1552م وتبعها إستراخان في عام 1556م، سكان هاتين الإمارتين من المسلمين التتار، ولكي تطبق عليهم روســيا سياســة التــرويس أجبرت قطاعا من السكان على اعتناق الأرثوذكسية قهرا ، فتسبب هذا في تفجر ثورات عارمة في قازان ساندتها الدولة العثمانية وكــان لها نفوذ وحضور قويين في القرم وفي جنــوب جورجيــا، ومــن ثم توقفت عمليات التنصير الإجباري بين المسلمين فترة من الزمن.

في سنة 1590م أرسل القسس في قازان تقــارير إلى القيصــر يشكون فيها إهمال السلطات الروسية المحلية الذي أدى إلى أن الذين اعتنقوا المسيحية لا يحضرون للصلاة في الكنيسة ولا يراعون القوانين المسيحية، وظلوا يعيشون في كنف أقاربهم المسلمين، بل إن هــؤلاء التتار بدءوا يبنون مساجد جديدة مخالفين بذلك قوانين الحكومة.

استجابة لهذه الشكاوي أصدر القيصر فرمانــا عــام 1593م يقضي بضرورة تدبير مساكن للمتنصرين خارج مدينة قازان ليعيشوا بين الروس المسيحيين، وأن يراقب الحكام المحلّيون حســن مراعــاة هؤلاء المتنصرين للقوانين المسيحية ، وأن يمنعوا الزواج بينهم وبــين

المسلمين، وعلى القساوسة أن يقوموا بتعميد الأطفال الذين ولــدوا من الزيجات المختلطة، وجميع العبيد الذين هم في حوزة المسلمين، أما أولئك الذين لا يخضعون لأسلوب الحياة المسيحية فيقيدون بالسلاسل ويقذف بهم في السجون حتى ينسوا دين التتار (الإسلام)، ولا يُفرج عنهم حتى يثبتوا إيمانهم القوى بالمسيح. وينتهي الفرمـــان القيصـــري بالأمر: أن يقوم حكام المنطقة بهدم المساجد على الفور.

(من أرشيف الوثائق الروسية في بطرسبورج، المجلد الأول: ص ص 436 – 439)

أُتبعت هذه السياسة القيصرية بصـــرامة شـــديدة في المنـــاطق الإسلامية التي تمت السيطرة عليها سيطرة كاملة في منطقة الفولجـــا الوسطى، أما المناطق التي لم تخضع خضوعا كاملا للحكم الروسي ، فقد اُستخدمت الجزرة بدلا من العصا ، حيث أمر القيصر قساوسته أن يأخذوا الناس باللين لأن روسيا في حاجة إلى تعـــاونهم ، فكـــان القساوسة يقدمون لهم الملابس الصـــوفية والأحذيـــة والمصـــروفات اللازمة للحياة اليومية، كما استخدمت السلطات الروسية المتنصرين في حراسة الحدود نظير مرتبات مالية وعينية.

كان الروس يطلقون على فئة المتنصرين هؤلاء اسم "كرياشين" وظلوا يحملون هذا الاسم جيلاً بعد جيل تمييزا لهـــم عـــن الـــروس الأوربيين البيض الذين يشار إليهم باســـم "الأرثـــوذكس". هـــؤلاء

"الكرياشين" كانوا في الواقع يشكلون مجتمعا منبوذا مقطوع الصلة بجذوره الحقيقية، وقد زادت حالتهم سوءًا أن وجدوا أنفسهم ضحايا لجشع الحكام الروس الذين استغلوا جهلهم باللغة والقوانين والتقاليد الروسية لابتزازهم.

ويبدو أن التنصير بين المسلمين لم ينجح بالعصي ولا بالجزرة ، لذلك رأينا "إيفان بوسوشكوف" وهو من رواد الإصلاح، (كانوا يعتبرونه آدم سميث روسيا) عاش في عصر القيصر بطرس الأكبر — رأيناه يقارن بين فشل الكنيسة الأرثوذكسية وبين نجاح الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في اجتذاب الناس إلى المسيحية ، كتب يقول: "هذه الشعوب مضى عليها ما يقرب من مائتي عام وهم رعايا للإمبراطورية الروسية ولكنهم لم يصبحوا مسيحيين، فماتت أرواحهم نتيجة لإهمالنا، بينما الكاثوليك ينجحون في بعثاتهم التبشيرية في أمريكا والصين والهند، رغم أن ديننا هو الدين الصحيح، ولكنهم نجحوا فيما فشلنا فيه..".

كان الحماس الديني الأرثوذكسي في عهد القيصر بطرس الأول مشتعلا ، وكان الشعار المرفوع هو "النضال ضد الإسلام" وقد صحب ذلك ظهور مصالح إستراتيجية جديدة لروسيا تستهدف احتواء خطر بدأ تبرز معالمه في الأفق، يتمثل في محور إسلامي يضم الشعوب المجاورة في القرم وكازاخ وكراكلباك والبشكير والتوجاي

بقيادة الدولة العثمانية العدو الأكبر لروسيا، وكان الخوف من أن يؤدى اتحاد هذه الشعوب مع تركيا للعمل معا ضد الاحتلال الروسي، وزادت مخاوف الروس أن الرعايا غير المسيحيين وغير المسلمين في الإمبراطورية كانوا يفضلون اعتناق العقيدة الإسلامية التي تصفها التقارير الروسية بأنها عقيدة (منحطة).

لذلك رأى القيصر تغيير سياسة التنصير وأساليبها، ومن ذلك أن يتعلم المبشرون اللغات المحلية قبل إرسالهم إلى المناطق غير الروسية، ولكن على الرغم من أن عدد المتنصرين كان يرتفع على الورق في التقارير الرسمية فإن واقع الحال كان يؤكد أن التنصير بقي ضعيفا متدنيا إلى أبعد الحدود، وأن ما يقال عنهم متنصرين كانوا يجهلون المسيحية ولا يمارسون شعائرها، كما اتضح أنه لا جدوى من الإكراه أو التمييز في التشريعات والقوانين، ومن ثم سادت فكرة جديدة هي تمدين "الهمج الجهال" كحافز على التنصير، وذلك عن طريق طبع آلاف من نسخ الكتاب المقدس لتوزيعها ومحاولة شرح معاني الإنجيل للمتنصرين قبل الشروع في تعميدهم وفقا لتعليمات الكنيسة سنة 1721م.

ومع ذلك يأتي بعد خمسي عاما المطران الجديد لقازان واسمه "أمفروسي بودو بيدوف" ليكتب تقريرا عن الأوضاع السائدة في ذلك الوقت إلى رئيس الكنيسة الأرثوذكسية يقول فيه:

"وجدت الشعوب الجاهلة من غير الــروس هنـــا في شـــوفاش شيرميس لا يفتقرون فقط إلى المعلومات الأولية عن المسيحية بل ليس عندهم أدنى معرفة بهذه العقيدة التي تم تعميدهم فيها".

ويرجع المطران بوديبوف السبب في ذلك إلى أن عملية التنصير كانت عملية سياسية بحتة المقصود بها تغيير الهوية الثقافية للشـــعوب غير الروسية لإدماجها في روسيا وضمان ولاء هذه الشعوب للدولـــة القيصرية ولذلك خلت هذه العملية من محتواها الروحي والديني.

بقيت ظاهرة استبعاد الكرياشين من الحياة الروسية المســـيحية، وظلوا على جهل باللغة الروسية والقانون الروسي قرونا دون أن يتنبه أحد إلى دراسة هذه الظاهرة، وكان أول تصنيف لرعايا الإمبراطورية هو الذي قام به الأمير ميخاييل شير باتوف سنة 1776م، يقسم فيه الرعايا إلى ست أنواع وفقا لأنماط حيـــاتهم وأوضـــاعهم الضـــريبية والخدمة العسكرية والانتماء الديني.

وقد صنف المسلمين تحت عبارة "البشكيريون وجميع الشـــعوب البربرية الأخرى الذين يدينون بالمحمدية"، وهذه نظرة متحيزة ضـــد الأغيار، إذا أضيف إليها المحاولات المستمرة لقهر الشعوب على تغيير هويتها ودينها، فإننا نستطيع أن نفهم مصدر الصـــراعات المتصـــلة والمقاومة العنيفة من جانب الشعوب ضد العنف والسيطرة الروسيين.

ويعلق على هذا الوضع – في أواخر القرن السادس عشر – باحث روسي هو"ف. د. ديمتربيف" قائلا: "عندما زرت قازان لم أجد دليلا على وجود كرياشين فيها كما يزعم موجاروفسكي بل الثابت أن القهر الروسي في قازان قد دفع المسلمين التتار إلى القيام بثورات عنيفة ضد الروس في سنوات 1556، 1572، 1582م".

وظل الأمر على هذا النحو طوال عصور الإمبريالية القيصرية: القمع من جانب السلطة والثورة من جانب المسلمين، باستثناء فترة حكم القيصرة كاترين الكبرى التي شهدت انفراجاً مؤقتا.

المتنصّرون الـ (كرياشين):

أطلق اسم الكرياشين في تاريخ روسيا القيصرية على التتار المسلمين الذين تم تنصيرهم بالوسائل التي أشرنا إليها فيما سبق، كان القانون الروسي يحرم على الكرياشين وعلى ذريته من بعده العودة إلى الإسلام، ولكن حدث منذ بداية القرن التاسع عشر أن الكرياشين بدأوا يرجعون أفواجا من الأرثوذكسية إلى الإسلام، حدثت هذه العودة الجماعية في فترات متعاقبة خلال سنوات: 1803، ومن 1827 إلى 1830 و 1865 إلى 1870، وفي سنة 1905م.

هذه الظاهرة أثارت دهشة وتساؤلات لدى الباحثين: لم يتخلّى التتار الكرياشين عن المسيحية وهي دين القوىّ الغالب، ويعودون إلى

الإسلام وهو دين المقهورين والمستضعفين؟ فيم هذا الإصرار على العقيدة الإسلامية والرغبة العارمة في العودة إلى الإسلام؟ وما هي تلك الآليات التي كانت تعمل في هذا المجال؟.

ومما زاد في دهشة الباحثين أن تحدث ظاهرة العودة رغم كل القوانين والاحتياطيات وإجراءات الاضطهاد والقمع التي اتخذتها السلطات الروسية على مر العصور لمنع الكرياشين من العودة إلى الإسلام:

فقد أمر القيصر "فيدرو" بسجن المرتدّين عن المسيحية وضربهم وربطهم بسلاسل حديدية، واتخذت إجراءات لعزل الكرياشين بعيدا عن المجتمعات المسلمة، وللتفريق بين الكرياشينّ وزوجته غير المسيحية. وصدر قانون سنة 1649م كان يحكم على أي مسلم تثبت عليه تهمة تحويل أي روسي عن الأرثوذكسية إلى الإسلام بالإعدام حرقا أو شدًّا على الخازوق.

وفي سنة 1740م أنشئت إدارة خاصة بالكرياشين الجدد، كانت تعاقب المرتدين إلى الإسلام بالغرامات والضرب والفصل بين الأزواج في الزواج المختلط، والترحيل إلى الأديرة، والذين يبدون مقاومة أكثر كانوا يُنفون إلى سيبيريا.

هذا الإرهاب لم يزد الكرياشين إلا إصرار علـــى العـــودة إلى الإسلام، فقد ثبت في يقين المضطهدين والمنفيِّين أهـــم مجاهـــدون في سبيل الله وأن من يقتل منهم فإنه يموت شهيدا.

دراسة وثائقية لقرية إليشيفو:

قامت بهذه الدراسة باحثة أمريكية هي "أجنيس كيفلي" خـــبيرة في الدراسات التتارية وتقوم بالتدريس في جامعة أريزونا، ومتخرجـــة من جامعة السربون ومن معهد اللغـــات والحضـــارات الشـــرقية في باريس. أثارها ظاهرة العودة المكثفة للتتار الكرياشين إلى الإســـلام وأرادت أن تكشف عن العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافيـــة وراء هذه الظاهرة.

أول وثيقة لفتت نظر الباحثة كانت عبارة عن رسالة مؤرخة في مايو 1866م من أهالي قرية إليشيفو إلى السلطات الروسية يعلنـــون فيها اعتناقهم للإسلام بمحض إرادهم وأهم بذلك قد قطعوا صـــلتهم نهائيا بالكنيسة الأرثوذكسية. وكان يتزعم هذه الحركة رجل يسمى "بشير فاليتوف" اسمه المسيحي السابق "إفريم كيريليوف" وقد وقـــع الرسالة جميع أهالي القرية.

يبدو من دراسة أجنيس كيفلي أن العودة إلى الإسلام لم تحدث بين عشية وضحاها وإنما كانت عملية طويلة تعرض فيهـــا ســـكان

القرية للعقيدة الإسلامية خلال جهود تعليمية واتصالات أسرية وشبكة ناجحة من العلاقات الاقتصادية.

ونلاحظ في ثنايا ذلك كله حركة نشطة في تأليف ونشر عدد كبير من الكتب الدينية تداولها أهالي القرية فيما بينهم، ومعنى هذا أنه كان يوجد حشد كبير من المعلومات والمعارف عن الإسلام عقيدة وممارسة هي التي ساعدت الناس على اتخاذ قرارهم النهائي بالعودة إلى الإسلام.

اشتملت هذه الكتب على قصص من القرآن ومن حياة النبي صلى الله عليه وسلم وأحاديثه، إلى جانب كتب تعليمية أخرى وضعها شيوخ المتصوفة بعضها في أُطر شعرية كانت تُتْلَى على الناس إنشادًا في المدارس القرآنية وفي المنازل والاحتفالات العامة بالقرية، هذه القصص والأناشيد الدينية دخلت إلى القرية مع قدوم دعاة المتصوفة من بلاد آسيا الوسطى واستقرارهم بين التتار المسلمين في منطقة الفولجا الوسطى.

كانت أقوى حركة صوفية قدمت إلى هذه المنطقة هي حركة النقشبندية، هذه الحركات الصوفية هي التي لعبت الدور الرئيسي في إسلام القبائل المغولية التترية والتركية. عُرف الدعاة المتصوفون بمرونتهم فيما يتعلق بالعادات والتقاليد المحلية للسكان، بمعنى أنهم لم يكونوا يتصادمون مع هذه التقاليد بل وظفوها في إطار إسلامي، بهذا

الموقف وباستخدام اللغات المحلية في الدعوة استطاع المتصوفون إعادة الكرياشين إلى الإسلام.

استخدم المتصوفة الكتاب والقراءة والإنشاد في الدعوة على أوسع نطاق، وكان لهذه الطريقة أبلغ الأثر في نفوس أهل قرية إليشيفو، حتى أنهم جميعا كانوا يحتفظون محتويات هذه الكتب عن ظهر قلب وينشدونها في جماعات فيما سمى بالمناجاة.

هذه الطريقة ساعدت على نقل المعارف والأفكار والتقاليد الإسلامية إلى الفلاحين البسطاء، وكانت هذه الكتب تدور حول الموضوعات الرئيسية الآتية:

وحدانية الله ومجاهدة الوثنية والشرك.

فضيلة العفو والمغفرة عن الآخرين.

أهمية العلم والتعلّم.

المعجزات التي تمت على يد الرسول صلى الله عليه وسلم.

الإيمان بأن النصر النهائي للإسلام.

أصبحت القراءة في مجتمع المريدين من أهل القرية قيمة راقية ينظر إليها باعتبارها وسيلة للتطهير النفسي، ولم يكن لدى شيوخ الصوفية أي تعصبات ضد المعرفة العلمية بل كانوا يشجعون تلاميذهم للتزود من المعرفة عن طريق القراءة.

كانت هذه الكتب تعكس نموذجين لحياة المسلم في عالم تسيطر عليه قوى غير إسلامية:

يؤكد النموذج الأول على إمكانية التعايش مع السلطات غير المسلمة، وكان المثل في ذلك قصة النبي يوسف عليه السلام الذي بدأ في مصر عبداً مملوكاً قبل أن يعمل في خدمة الملك الكافر وزيراً، وقد ارتقى إلى هذا المنصف الرفيع في الدولة وأسلم على يديه كثير من المصريين.

ولكن إذا كان التعاون من شأنه أن يؤدى إلى تخلّى المسلم عن إسلامه كله أو بعضه فإن التعاليم الصوفية كانت تطرح النموذج الثاني: وهو نموذج يقضى بالانفصال الكلي عن المجتمع المناهض للإسلام واعتزاله، والمثل هنا أيضا مستمد من قصة النبي يوسف، حيث تروى القصة عنه أنه عندما أمره الملك أن يتوقف عن الدعوة إلى الإسلام خرج من خدمة الملك وذهب إلى مدينة أخرى يسيطر عليها المسلمون ليمارس فيها دعوته.

كان النموذج الأول يعمل في الفترات التي كانت السلطات الروسية لا تحرم المسلمين من العمل خلال النظام السياسي السائد، أما عندما كانت تضع القيود القانونية والعوائق الإدارية على حركة المسلمين فإن تعاليم الصوفية كانت تشجع على مقاومة الروس واتباع النموذج الثاني في العمل.

كانت الكتب الصوفية تنطوي على مقاومة الاحتلال الروسـي والأرثوذكسية دين الروس، بطريقة غير مباشرة، من خلال القصص التي ترويها عن المسيح نفسه وعن يوسف وعن الرسول محمد.

كانت قصة يوسف عليه السلام قصة مطولة بها تفاصيل لم ترد في القرآن ولا كتاب العهد القديم، كل تفصيلة كان لها دلالة درامية على عقيدة التوحيد وقيمها، من ذلك أن امرأة العزيز استعانت بالأيقونات الوثنية للتغلب على عصيان يوسف ولكن هذه الأوثان لم تستجب لرغبتها فحطمتها في ثورة غضب لعدم جدواها.

أما أحداث السيرة النبوية فقد ملأت خيال التتار وعقولهم وأسرت قلوبهم وتعلموا منها أن دين محمد هو ميراث الأنبياء ابتداءً من آدم عليه السلام، وأن الإسلام هو خاتم الأديان ونبيه هو خاتم الأنبياء.

كان أهل القرية يؤمنون بأن الإسلام هو الذي سينتصر في النهاية، وأن العالم كله سوف يعتنق الإسلام عندما يعود المسيح إلى الأرض قبل قيام الساعة.

دعاة الإسلام الجماهيري:

كان دعاة الإسلام هم المشايخ الصوفية والعمال والنساء، ويشكل العمال أكبر نسبة بين الدعاة، وكانوا يعتبرون في نفس

الوقت قادة الكرياشين في القرية، لديهم المقدرة المالية للإنفاق على تكاليف الدعوة من تسويق إنتاجهم في الحياكة وتطريز الملابس وبيعها في القرى والمدن المجاورة.

أما النساء فكانت لهن أدوار خاصة في تعليم الأطفال، كانت المرأة الداعية تفتح مدرسة قرآنية صغيرة لتعليم أطفال القرية، وبذلك تتغلب على الرقابة الروسية التي لم تكن تهتم بالنساء ولا بالأطفال، ولكي لا يلفتون انتباه السلطة الروسية كان الأطفال يذهبون فرادى أو اثنين إلى المدرسة، ويتجنّبون السير في مجموعات كبيرة، وكانت فترة الدراسة اليومية قصيرة، يتعلم الأطفال فيها القرآن والأناشيد الدينية.

وكان شيوخ الصوفية لا يستقرون في مكان واحد وإنما هم في ارتحال دائم فإذا حلّوا بالقرية عقدت لهم ندوات مع مريديهم من العمال والنساء، وكانت هذه المناسبات من أهم شبكات الاتصال ونشر المعرفة الإسلامية، تبدأ الندوة عادة يوم الجمعة في أول مايو أو آخر يونيه وتستمر لمدة أربعة إلى سبعة أسابيع، وكانت هذه الندوات وما يصاحبها من احتفالات شعبية تنتقل من قرية إلى قرية أخرى بنظام وجداول زمنية مخططة.

تستضيف القرية أعضاء الندوة فيجتمع فيها الشيوخ المعلمون والمريدون، وتقام المعارض التجارية لبيع السلع والكتب، ويأتي شعراء

الملاحم الشعبية فينشدون القصائد الدينية وقصص البطــولات، وفي بهجة الاحتفالات يختار الشبان التتار عرائسهم للزواج، ويلتقي فيهـــا الكرياشين مع المسلمين.

إجراءات التحول إلى الإسلام:

كانت عودة الكرياشين إلى الإسلام في قريـــة إليشـــيفو تمثـــل النموذج أو النمط العام الذي يجرى في جميع قـــرى الكرياشـــين في منطقة الفولجا كلها.

عندما بدأت القرم نشط التتاري الدراويش ومشايخ الصوفية في نشر الدعوة الإسلامية بمنطقة قازان، فكـــانوا يـــذكرون المـــؤمنين بواجبهم في تحقيق إرادة الله على الأرض وهي الجهـــاد في ســـبيله، ويؤكدون على أن النصر النهائي للإسلام، ويفيضـــون في ذكـــرى الهجرة النبوية عندما أجبر الكفار النبي على الهجرة من مكة فرحل إلى المدينة، ومن ثم فإن الذين لا يقدرون على الجهاد والمقاومة عليهم أن يهاجروا إلى تركيا. كانوا يتحدثون بمشاعر فياضة مبشرين بقـــرب ظهور المهدي المنتظر الذي ســـيملأ الأرض عـــدلًا، وأن الســـلطان العثماني خليفة المسلمين سوف يوحد جميع الأراضي الإسلامية ويعيد الحكم الإسلامي إلى إمارات قازان المحتلة.

اتخذ الشيوخ من مدينة الهجرة التي لجأ إليها النبي يوسف نموذجاً لإقامة مجتمع مقصور على المؤمنين، ولكي يحددوا معالم هذا المجتمع كانوا يضعون علامات وإشارات، ويلتزمون بسلسلة من الإجراءات المجتمعية وفقا لجدول زمني منظم، من هذه الإجراءات منع الذين لم يعتنقوا الإسلام بعدُ من المشاركة في احتفالاتهم الجماعية وألعابهم الترفيهية التي يقيمونها في فصل الربيع، ويحرص القادة الدينيون على أن يقوم العائدون إلى الإسلام بتحطيم الأيقونات والأوثان في احتفال عام.

ثم يبدأون في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية: فيجمع رؤساء القرى الزكاة والصدقات من المؤمنين، ويجاهدون في سبيل دعوة المترددين لاعتناق الإسلام، ويقيمون مقابر مستقلة لموتى المسلمين، ويحرِّمون تناول الخمر أو تداولها، ويحلقون رءوسهم على الطريقة الإسلامية التي تميزهم عن الكفار. ثم ينتخبون من بينهم إماماً لهم يقودهم في الصلاة ويحافظ على السجلات الهامة ويقضي في مشكلات الميراث ويعنى بتعليم أطفال المؤمنين، وحتى يتسنى لهم إنشاء مسجد كان الأهالي يقومون ببناء سقيفة لإقامة صلاة الجماعة.

بهذه الطريقة استطاع فلاحو قرية "إليشيفو" أن يقيموا مجتمعا إسلاميا صغيرا انتظمت فيه العلاقات بين الناس بعضهم ببعض وفقاً لوحي الله الذي نزل به القرآن وجاءت به سنة رسوله.

تخلص هذا المجتمع الجديد تماما من آثـار المجتمـع الكرياشـيني التقليدي القديم الذي كان يتحكم فيه مطران أرثوذكسي مفـروض عليهم من قبل السلطة وليس من اختيارهم، كان يمثل إلى جانب هذا عبئا ماليا، فأصبحوا – في الإسلام – ينتخبون إمامهم واحدا منهم، ويشعرون بأثر الزكاة والصدقات التي تجمع منـهم في مشـروعات وخدمات يلمسون أثرها في حياتهم، وهكذا نشأ في القريـة نمـوذج مصغر للأمة المؤمنة، وبدت حركة الدعوة الإسلامية تمثيلاً حيًّـا لمـا جاء في كتب الدعاة المتصوفة.

التعليم الإسلامي بين الكرياشين:

حفظ القرآن وتعلّم تفسيره وفهم آياته، قبل اعتنـاق الإسـلام وبعده، كان هو العمود الفقري لاكتساب المعرفة الإسلامية الأساسية وهو الذي أسهم في تشكيل عقلية النخبة المثقفة التي كانـت بمثابـة الخلية الرئيسية للمقاومة الإسلامية.

أما الأطفال فكانوا يبدءون بحفظ السور القصيرة وبعض آيـات من القرآن مع أجزاء من قصة النبي يوسف، ويتعلمون القـراءة مـن كتاب بعنوان "إيمان شارتي" كما يتعلمون منه واجبـاتهم الفرديـة والمجتمعية تجاه العقيدة مثل الصلاة.

في سنة 1865 كان المسئول عن قرية "إليشيفو" مـــن دعـــاة الصوفية المرتحلون هو الشيخ/ محيي الدين وزوجته، كان الشيخ يعلّم الذكور وكانت زوجته تعلم الإناث. كانا مـــن خريجـــي المعاهـــد الإسلامية العليا، أما سِرُّ ارتحالهم فيكمُنُ في أن الســـلطات الروســـية كانت تراقب حركات الشيوخ الرحالة وتمنع استقرارهم في مكـــان واحد، كما كانت تضع قيودا على بناء المدارس القرآنية والمســـاجد، ومن ثم كان على هؤلاء الشيوخ أن يقوموا بتعليم بعض المريدين من الأهالي وتدريبهم للقيام بالدعوة والتعليم بين أبناء القرية وبناهّا.

ذكرت بعض العائلات في قرية "إليشيفو" أن سيدة كفيفة مـــن أهل القرية كانت من طلاب الشيخ محيي الدين وزوجته، هي الـــتي علمت أبناء العائلة الدين الإسلامي وشعائره، وفي نفس الفترة ظهرت امرأة من الكرياشين كانت قد تعلمت في قازان قبـــل أن تســـتقر في القرية هي التي تولت تعليم بنات القرية سرا، وبعد أن رحل الشـــيخ محيي الدين وزوجته حلت هي مكانهما في التـــدريس لمـــدة عشـــر سنوات، ثم جاءت معلمة أخرى لتتولى التدريس بعدها، وهكذا تظل المرأة تؤكد دورها الهام في تعليم مجتمع القرية.

من أهم العناصر التربوية في برامج المدارس القرآنيـــة تـــدريب التلاميذ على الصبر في مواجهة الصعوبات والشدائد، ومقاومة أعمال الاضطهاد التي تقوم بها السلطات الروسية بالحيلة والمهادنة. وكلمـــا

ارتفع المستوى المعرفي لهؤلاء التلاميذ وتعمقوا في العقيدة الإسلامية كلما قويت عزائمهم في مقاومة الرَّوْسَنَة الثقافية والدينية.

ردود الفعل الروسية:

في عام 1866 هاجمت وحدات من الشرطة الروسية قرية "إليشيفو" ونشرت الذعر والإرهاب بين الأهالي فصمد الشيوخ والمعلمون فقامت السلطات بنفيهم إلى سيبيريا، وتمكن بعضهم من الهرب إلى مدينتي "أوفا ومنزلينسك"، واضطر 448 من الأهالي المستضعفين من إعلان توبتهم وتنصلهم من الإسلام، ولكن بعد انتهاء الحملة الأمنية فوجئت الشرطة الروسية المحلية بأن هؤلاء التائبين لا يمارسون الشعائر الإسلامية فحسْب ، وإنما بدأوا يقومون ببث الدعوة الإسلامية بين الكرياشين في القرى المجاورة بدلا من الشيوخ والمعلمين الذين نُفوا إلى سيبيريا.

وحذا كثير من أهالي القرى الكرياشينية حذو قرية إليشيفو فانسلخوا عن المسيحية وعادوا إلى الإسلام وكانت النتيجة أن انتشرت موجة الدعوة الإسلامية خارج هذه القرى تجاه الشرق حيث يوجد كثرة من الوثنيين.

أصبحت الأرثوذكسية الروسية هامشية إلى حد العدم في قرى المتنصرين (الكرياشين)، ولكن اللغة الروسية كان لها شأن آخر،

فبعض تجار قرية "إليشيفو" كانوا يستخدمون اللغة الروسية لتيسير معاملاتهم التجارية في التجمعات الروسية، ولذلك حرصوا على اكتساب هذه اللغة ولكنهم ظلوا يعلّمون أبناء قريتهم الإسلام بلغتهم التتارية، وقد استطاع واحد منهم أن يوظف إجادته للغة الروسية ليستعرض للناس تفوّق القرآن على الكتب الدينية الأخرى، كما ساعد تعلّم الروسية بعض المسلمين على كتابة الشكاوي للسلطات الروسية والدفاع عن عقيدتهم وحقوقهم الدينية.

مدارس إلْمنيسكي للتبشير:

أدرك البروفسور "إلْمنسكي" أن أسلوب القمع في نشر الأرثوذكسية غير مُجْدٍ بين المسلمين فأنشأ مدرسة للأطفال في قازان لتعليم الأطفال الإنجيل وفق الطرق التربوية الحديثة، وكان يقوم بالتعليم في هذه المدرسة وفق فلسفة إلمنيسكي أحد أتباعه واسمه "تيموفيف"، فلما تمكن من طريقته بدأ يستدعي تلاميذ المدارس القرآنية إلى منافسات علنية مع تلاميذ مدرسة إلمنيسكي، فكان يطلب منهم في حضور الأهالي قراءة الإنجيل وترجمته إلى لغتهم التتارية، ولأن تلاميذ المدارس الإسلامية لم يتعلموا بهذه الطريقة أخفقوا، فأتى بتلاميذه حيث استطاعوا قراءة الإنجيل بالروسية وترجمته إلى اللغة التتارية على الفور، واستطاعوا أيضاً الإجابة على أسئلة حول النص

الذي قرءوه فور الانتهاء من القراءة، وتلك مهارات لم تكن متـــوفرة عند التلاميذ المسلمين، وإنما كانوا يكتسبونها في مرحلة أعلى عنـــدما يلتحقون بالمعاهد الدينية العليا في بلاد آسيا الوسطى مثـــل بخـــاري وطشقند وسمرقند.

كان نقد إلْمنيسكي وتيموفيف لقصور التعليم الإسلامي يلمس نقاط ضعف حقيقية مقارنة بأسلوب التعليم الأوروبي الحديث، حتى أن التتار المجدّدين أنفسهم استخدموا نفس الانتقـــادات إلى التعلـــيم التقليدي في مدارس المسلمين.

لكن تيموفيف مزج نقـــده للأســـاليب التقليديـــة في التعلـــيم الإسلامي بهجوم شديد على الإسلام نفسه، وكان أهم النقاط الـــتي ارتكز عليها في نقده وهجومه تتلخص في الآتي:

أن التتار لا يفهمون صحيح دينهم لأنهم لا يقـــرأون القـــرآن بلغتهم.

أن أداء الصلاة باللغة العربية لا يؤثر على مشاعر التتار لأنهـــم يؤدونها بلغة لا يفهمونها.

أن الكتب الدينية التعليمية تروج عن النبي محمد أنه كان يقـــوم بمعجزات رغم أن هذا – في رأيه – مخالف للقرآن.

ويدعى تيموفيف في خطبه أنه قرأ الكتب المقدسة كلها وأنـــه على أساس المقارنة اختار الإنجيل وطرح القرآن جانبـــا. واســـتخدم

التاريخ والسياسة والعلوم لمهاجمة الإسلام: فإذا زعم المسلمون التتار أن المهدي قادم بالنصر للمسلمين أكد لهم أن الدولة العثمانية الـــتي يعوّلون عليها دولة ضعيفة ولن تنتصر، وإذا قالوا أن الإسلام هو دين الأنبياء جميعًا منذ آدم، قال إن عيسى أقدم من محمد وهـــو بـــذلك أقرب إلى آدم، ومن ثم فالمسيحية هي الدين الصحيح.

وكان تيموفيف يستخدم الخرائط ونماذج للكرة الأرضية ليثبت أن الأرض كروية خلافا لمعتقدات المسلمين التتار.

ولكن رغم أن انتقادات تيموفيف وفلسفة إلْمنيسكي كانـــت تبدو مبهرة إلا أنها جاءت متأخرة فقد قـــاطع المســـلمون المـــدارس الأرثوذكسية ومنعوا أطفالهم من الذهاب إليها، حتى الذين لم يدخلوا مدرسة في حياتهم أحجموا عن إرسال أبنائهم إلى هذه المـــدارس لأن المجتمع بأسره أصبح مسلما، وسيكون أبناؤهم بعد التخرج من هذه المدارس منبوذين في هذا الوسط المسلم. وهكـــذا ظلـــت مدرســـة إلْمنيسكي الحديثة والكنيسة الجديدة التي أقامها في إليشيفو خاويتين على عروشهما.

ورغم وجود القسس في القرية استمرت الدعوة الإســـلامية في المنطقة وكان القسس يخشون الاحتكاك بالأهالي فـــالتزموا الإقامـــة داخل الكنيسة، أما في القرى الأخرى فإن أبناء المسلمين الذين تعلموا في مدارس إلمنيسكي تخرجوا منها في سن الحادية عشرة ليلتحقوا من

جديد بالمدارس القرآنية، وعاشوا حياتهم بعد ذلك بمقتضى الشـــريعة كما فعل أجدادهم المسلمون، وحتى سنة 1912م كان الإسلام قد استقر تماما في قرية إليشيفو، واستطاع أهالي القرية أن ينشئوا مدارس ومساجد جديدة.

دراسة حالة قرية "إليشيفو" كمنطقة حدودية تتصـــادم فيهـــا هويات متعارضة تكشف للدارس عن قوة الإســـلام ورســـوخه في المجتمعات المسلمة، وتؤكد أن الإسلام كان أكبر قـــوة اســـتخدمها المسلمون في مقاومة التغلغل الروســـي بقيـــادة شـــيوخ المتصـــوفة، استخدمه كذلك المصلحون أو "التجديديون" (كما كانوا يُعرفون في التاريخ الروسي في أواخر القرن التاسع عشر) في المقاومة وفي تطوير الهوية التترية.

عارض التجديديون ذلك الإسلام الشعبي الذي صورته كتـــب المتصوفة كما انتقدوا التعليم التقليدي الذي يعتمد على الحفـــظ دون فهم للنصوص، ووصفوا الثقافة الإسلامية الشعبية بأنها "رُهاب" لكل ما هو أجنبي، وكان انتقاد التجديديين في بعـــض جوانبـــه حـــادا ومتجاوزا للواقع، فالحقيقة أن هذا الإسلام الشعبي هو نفسه الـــذي مهد الطريق أمام الحركة التجديدية للتتار المسلمين، ولكن المـــؤرخين التتار تجاهلوا هذه الاستمرارية وكانوا يميلون إلى إبراز أوجه الخلاف بين الحركتين الصوفية والتجديدية ويؤكدون عليها.

وقد كانت شبكات الاتصال التجارية والاقتصادية والثقافية التي وصل بها الصوفية المجتمعات المسلمة بعضها ببعض هي التي حافظت على قوة المجتمعات المسلمة وأسهمت في نشر العقيدة وتعزيزها بين المسلمين والامتداد بها إلى المجتمعات الوثنية.

وكتب المتصوفة والقصص التي يروونها على مسامع أهل القرية من الأدب الصوفي هي التي يسّرت انتشار المعرفة الإسلامية رغم اضطهاد الكنيسة والسلطة الروسية، وكان سحر الشخصيات التي تدور حولها هذه القصص مثل شخصية النبي محمد هي التي حببت الناس في تعلّم القراءة وممارستها بشغف في محاولة لتنمية فهمهم للعقيدة الإسلامية، حتى أصبحت القراءة قيمة في حد ذاتها ووسيلة لتطهير النفس وإضاءة العقل وتنمية الأخلاق.

وقد واصل التجديديون نهج المتصوفة في استخدام اللغة التركية وتأليف القصص الدينية كما فعل "قيوم ناصري" (1825 – 1902م) وغيره من الإصلاحيين، وإن أضافوا إليها مضمونا جديدا قائما على الأسانيد المرجعية في التراث الإسلامي، فقد كتب "قيوم ناصري" مثلا عن معجزة انشقاق القمر قصة لا تختلف كثيرا في جوهرها عن النص الصوفي، ولكن جاءت الخلاصة مختلفة تماما حيث

أكد فيها أن الرسول لم يكن يمارس هذه المعجزات المادية لأن العقيدة الإسلامية لم تكن معتمدة على أدلة خارقة للعادة.

ولكن التجديديين في سياق هجومهم على المتصوفة ركّزوا أنظارهم فقط على أوجه الخلاف متجاهلين أوجه التشابه فيما بينهما، وزعم بعضهم – كما فعل "غياث إشكاكي" (1878 – 1954م) بأن إسلام الصوفية معادٍ لكل ما هو جديد وأجنبي، وهذا غير صحيح، وقد ألمحنا إلى موقف الصوفية في هذا المجال بعرض نموذجي التعايش والمفاصلة في قصة النبي يوسف عليه السلام في مصر.

والحقيقة أن التجديديين التتار في محاولتهم لإصلاح المجتمع أسسوا جهدهم على بناء راسخ أقامه الصوفية من قبلهم، وأن الاتصال والاستمرارية في الهوية الإسلامية لا يمكن إنكارهما في نضال المسلمين التتار عبر التاريخ.

□

الفصل الرابع

الإسلام في الاتحاد السوفييتي

في 7 ديسمبر سنة 1917 بعد قيام ثورة أكتوبر أصدر كل من لينين وستالين بيانا موجهاً إلى جميع المسلمين الكادحين في روسيا والشرق هذا نصه:

"يا مسلمي روسيا، يا مسلمي الشرق، أيها الرفاق، أيها الإخوة، إن أحداثاً عظيمة تحدث الآن في روسيا .. إن عهد الرأسماليين والإمبرياليين يتداعى، وتميد الأرض من تحت أرجلهم وتشتعل الثورة من تحت أقدامهم.

وفي خضم هذه الأحداث العظام نلتفت إليكم يا مسلمي روسيا والشرق الذين استرقكم الاستعمار واستلب أموالكم وأراضيكم.

يا مسلمي روسيا، يا تتار الفولجا والقرم، يا أيها القرغيز وسكان سيبيريا والتركستان، يا سكان القوقاز الأبطال، وقبائل الشيشان وسكان الجبال الأشداء، أنتم يا من هُدمت مساجدكم ومزق القياصرة الطغاة قرآنكم وحاربوا دينكم، وأبادوا ثقافتكم وتقاليدكم ولغاتكم، ثوروا من أجل دينكم وقرآنكم وحريتكم في العبادة.

إننا هنا نعلن احترامنا لدينكم ومساجدكم وإن عاداتكم وتقاليدكم حرة لا يمكن المساس بها، ابنوا حياتكم الحرة الكريمة المستقلة دون أية معوقات، ولكم كل الحق في ذلك، واعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية مصونة بقوة الثورة ورجالها ومن

العمال والفلاحين والجنود وممثليهم، ولهذا نطلب منكم تأييد الثـــورة ومساندها لأنها تقوم من أجلكم ومن أجل حريتكم الدينية والمدنية".

يتوجه البيان بخطابه بعد ذلك إلى مسلمي الشـــرق في إيـــران وتركيا وبلاد العرب والهند، وينتهي بنداء إلى جميع المسلمين فيقول: "تقدموا أيها المسلمون لتحرير أوطانكم وارفعوا أعلام ثوراتكم فـــإن أعلامنا وبنودنا قد رفعت من أجل حرية المستعبدين والمظلومين. يـــا مسلمي روسيا ويا مسلمي الشرق هلموا إلينا، إلى طريـــق الحريـــة والعدالة لنبني هذا العالم من جديد على أساس الحق والخير والعدل". توقيع: جوزيف ستالين، فلاديمير لينين.

ابتهج المسلمون بهذا الإعلان وظنوا أن عصراً ذهبيـــاً يشـــرق عليهم فبدءوا بتشكيل مؤسساهم الوطنية وحكوماهم المحلية كخطوة نحو الاستقلال، وشرعوا في استعادة مساجدهم وترميمها.

نجحت سياسة لينين الدعائية بين المسلمين لدرجة أنهم اعتقـــدوا أن ثورة أكتوبر البلشفية جاءت هدية من الله لإنقاذهم من طغيـــان القياصرة، ووصلت دعاية لينين إلى حد الزعم بأن نظامه يقوم علـــى مبادئ القرآن وعلى الشريعة الإسلامية، لذلك وقف المســـلمون إلى جانبه وحاربوا في صفوف البلاشفة.

ولكن فرحة المسلمين لم تدم طويلا فقـــد نقضـــت الحكومـــة الشيوعية وعودها وتعرض الزعماء الدينيون للاضـــطهاد وفرضـــت

الضرائب على المساجد وأغلقت المعاهد الدينية، ولأن هذه الإجراءات الإدارية بدت غير كافة بدأ القادة السوفييت باستعمال الإرهاب والعنف حيث أصدر لينين في إبريل 1918 أمراً إلى الجيش الأحمر بالزحف على البلاد الإسلامية وأخذت الدبابات والطائرات تحصد المدن حصدا.

فلما تم للسوفييت احتلال هذه المناطق بدءوا في تشكيل ما يسمى بجمهوريات الحكم الذاتي لتدمير وحدة المسلمين، وارتفعت أصوات الدعاية الروسية باتهام الشعوب المسلمة بمعاداة الثورة.

كان نداء لينين وستالين مجرد خديعة لتكتيل صفوف المسلمين خلف الثورة الشيوعية حتى تستقر أقدامها، بينما كان الشيوعيون يخططون لاجتثاث الأديان من الاتحاد السوفييتي وفي مقدمتها الإسلام.

ورغم المقاومة التي تفجرت في كل بلاد المسلمين ضد الاستعمار الروسي الجديد تمكن الروس البلاشفة من تعزيز قبضتهم على المناطق الإسلامية، وبدأت بذلك مرحلة جديدة تميزت بالهجوم المباشر على المؤسسات الدينية الإسلامية.

تعاظمت الحملة ضد الإسلام في الفترة ما بين عام 1927 وعام 1938 فبلغت أقصى ذروة لها: حيث أغلقت جميع المساجد، وتم

تصفية آلاف من القيادات الدينية الإسلامية بمحاكمات وبدون محاكمات، وتوسعت إجراءات تجفيف المنابع الإسلامية فشملت:

تحريم أي جهود تعليمية يقوم بها الآباء لأطفالهم مما له علاقة بالدين.

تحريم طباعة المصحف والكتب الدينية أو استيرادها من البلاد الإسلامية خارج الاتحاد السوفييتي.

تحريم أداء الصلاة والصيام وجمع الزكاة.

تحريم حجاب النساء وإجبارهن على خلعه بالقوة.

في نفس الوقت نشرت الحكومة السوفييتية مدارس ومعاهد تعليمية للفتيات والفتيان المسلمين وللكبار، كانت برامجها تركز على تعليم اللغة الروسية والمبادئ الشيوعية واكتساب النظرة المادية. وأخذت السلطات الروسية تحث القيادات المحلية على الالتحاق بالحزب الشيوعي، كوسيلة لا بديل عنها للمشاركة في اتخاذ القرارات التي تخص مجتمعاتهم، واعتبرت هذا بديلاً لحق تقرير المصير، أو الاستقلال الوطني الذي كان المسلمون يتطلعون إليه، فقد أصبح الحديث عن هذه الأمور من المحرمات في الاتحاد السوفييتي.

في مرحلة تالية تم إعلان انتصار الماركسية اللينينية وشرعت الدولة في إنجاز مهمتين أساسيتين: تصفية آثار الدين على المؤسسات

والعمليات السياسية، وخلق وتطوير قيم ثقافية واجتماعية جديدة للقضاء على تأثير الدين في عقول الجماهير.

وتعددت أسلحة الهجوم على الإسلام، وفاضت الكتب والمطبوعات السوفييتية بحملاتها الشرسة وافتراءاتها ضد الإسلام تاريخا وفكرا وعقيدة ورسالة وممارسة.

من الطبيعي أن نبدأ بمراجعهم الأساسية لنرى ماذا تقول دائرة المعارف السوفييتية الكبرى عن "الإسلام": "مثل جميع الأديان الأخرى لعب الإسلام دائما دورا رجعيا وأداة للقمع الروحي للعمال بواسطة الطبقات الطفيلية المحلية، ووسيلة لاستغلال شعوب الشرق بواسطة المستعمرين الأجانب"، كاتب هذا المقال يبدو من اسمه أنه مسلم "كليموفيتش" ولكنه شيوعي ماركسي ؛ والعمى الأيديولوجي يجعل صاحبه يرى الأشياء على غير صورتها الحقيقية، فهو لا يدرك أنه لا يرى ألوان الأشياء وأحجامها الحقيقية وإنما يرى ألوان منظاره الخاص ومن خلال عدساته الخاصة التي وضعها على عينيه. يتحدث كليموفيتش في مقاله عن رجال الدين المسلمين باعتبارهم عملاء للطبقات المستغلة ويتهمهم بأنهم "قادوا الهجوم ضد التشريعات السوفييتية في مجالات الأسرة والزواج، وقاوموا تحرير المرأة، ودافعوا عن ارتداء الحجاب، وأنهم ارتكبوا أعمالا إرهابية، وتذرعوا بالقرآن والشريعة لمقاومة التصنيع والعمل الجماعي"، وينتهي إلى "أن الإسلام

في الاتحاد السوفييتي هو من مخلّفات أيديولوجية طبقة المستغلين .. وأن الإمبرياليين الأنجلوأمريكيين يستخدمونه في محاربه الحركات الثورية وحركات التحرير الوطني في البلاد الإسلامية، متغافلا أو جاهلا حقيقة لا يمكن إنكارها وهي أن الإسلام كان دائما هو الباعث الأكبر للمقاومة والتحرير في كل بلاد المسلمين.

وجه الكتّاب الملحدون قدرا هائلا من الهجوم والمفتريات إلى القرآن، نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما كتبه "باريف جوبيج" في كتابه "أسرار القرآن" حيث يقول: "يوجد في القرآن تناقضات في 225 موضعا"، ووصفه بأنه وسيلة لتخدير البسطاء من العامة وجعلهم ضحايا للأثرياء وأصحاب الأموال، وأنه مكتوب بطريقة بحيث يستفيد من توجيهاته الأقوياء والأغنياء والظلمة من الضعفاء والفقراء والمظلومين.

ويصفه ملحد آخر بأنه مجموعة من الأكاذيب كتب في القرون الوسطى تدفع آياته إلى النوم، ويقول ملحد آخر: "يتألف القرآن من مجموعة من أشعار حول أمور غيبية مبهمة المعاني كلها خداع للناس".

تتلخص دعاوى الشيوعيين المناهضة للإسلام في مجموعتين:

تدخل المجموعة الأولى منها في إطار الهجوم العام على الأديان مثل وصف الإسلام بأنه أفيون الشعوب يلهي الجماهير الكادحة عن النضال الثوري، ويغرس فيهم روح الخضوع والعبودية، وهو أيديولوجية رجعية تتناقض مع العلم وتعوق التقدم، وهو أداة في يد الطبقات المستغلّة، وعقيدة مناهضة للماركسية تحول دون تحقيق الإنجازات الاشتراكية.

أما المجموعة الثانية من الدعاوى فتزعم أن الإسلام عقيدة غريبة عن المنطقة فرضه الغزاة العرب بالسيف على أجداد المسلمين السوفييت في آسيا الوسطى.

وتنقسم الدعاوى في هذه المجموعة إلى الآتي:

مزاعم ذات طابع اجتماعي يوصف فيها الإسلام بالرجعية لأنه يحتقر المرأة ويخضع الشباب لسلطة أصحاب اللحى البيضاء، ويشتمل هذا الجانب على هجوم موجه إلى الشعائر الدينية مثل الصيام والختان باعتبارها شعائر بربرية وغير صحية، وإلى الصلوات الخمسة باعتبارها شعائر ضارة بالمجتمع ومعطلة للإنتاج.

مزاعم تتعلق بأخلاقيات الدين الإسلامي التي تقتل روح المبادرة مثل الخضوع والطاعة العمياء، ومن ثم فإنها أخلاق تتناقض مع الأخلاقيات الجديدة للاشتراكية.

مزاعم تتعلق بالثقافة الإسلامية والفن الإسلامي الجامد، وحلقات الدراويش الصوفية وغيرها من التقاليد التي يعتبرها الشيوعيون عوائق في طريق بناء ثقافة سوفييتية اشتراكية.

هدم الشيوعيون جميع المؤسسات الإسلامية التي أسهمت في استمرار الدين والمحافظة على الشخصية الإسلامية والثقافة الإسلامية، وعلى رأس هذه المؤسسات المحاكم الشرعية والأوقاف الإسلامية، وكانت الأوقاف قد بلغت حدًّا من التوسع والثراء حيث شملت 50% من الأراضي الزراعية في مناطق القرم والقفقاس وآسيا الوسطى، كما شملت الطواحين والحمامات والأسواق والخانات والفنادق، وظلت هذه الأوقاف على مر العصور مصدرًا ثابتًا للإنفاق على المستشفيات والمدارس ودور العجزة، ومساعدة الفقراء والمحتاجين من المسلمين.

وبمصادرة الأوقاف توقفت هذه الأنشطة كلها وحُرم رجال الدين والمعلمين والقائمين على تقديم الخدمات الصحية من مرتباتهم والمصدر الوحيد لمعيشتهم، وجفت مصادر تمويل المدارس الإسلامية والمساجد والمستشفيات من الوسائل المادية اللازمة لبقائها وصيانتها.

تعليم الإلحاد:

كانت كليات ومعاهد إعداد المعلمين في الاتحاد السوفييتي تؤكد على تأصيل تدريس الإلحاد في جميع مقرراتها باعتباره الأساس الضروري لقيام الشيوعية. ويحرص النظام على التشكيل العقلي والنفسي للأطفال خلال مراحل التعليم الإلزامي الذي يبدأ من الحضانة حتى نهاية التعليم الثانوي، ولا يتوقف تعليم الإلحاد عند هذه المرحلة بل يستمر بعد ذلك في المراحل التالية من التعليم.

تُدَرَّسُ المواد في كل مراحل التعليم في إطار فلسفة إلحادية خالصة، ويبدأ درس الإلحاد في الحضانة بان يخرج المعلم من حقيبته تفاحة ثم يسأل الأطفال: "من الذي أعطانا هذه التفاحة؟" فإذا أجاب طفل: "إن الله هو الذي يعطينا هذه التفاحة" وبّخه المعلم وحرمه منها، ثم يكرر السؤال مرة بعد مرة، حتى إذا أجاب طفل بأن الطبيعة هي التي تعطينا التفاحة أو أن لينين هو الذي يأتي بها، أهداها إليه المعلم وشجعه بالتصفيق.

لم يقتصر تعليم الإلحاد على التلاميذ والطلاب فحسب بل شمل أيضا عمال المصانع والفلاحين في المزارع التعاونية، وكان هناك برامج خاصة وأساليب لمتابعة وتقييم أثر هذا التعليم على المتلقين له.

وأنشأ الشيوعيون لنشر هـــذه الجهـــود الإلحاديـــة ومتابعتـــها مؤسسات سموها "إدارات الإلحاد العلمي"، وبلغ عدد العـــاملين في هذه الإدارات في البلاد المسلمة سبعون ألف خبير.

ومن المفارقات التاريخية أن المدارس الدينية التي كانت مخصصـــة في السابق لتخريج علماء الدين الإسلامي في بخاري وطشقند وسمرقند تحولت في النظام السوفييتي إلى معاهد لتعليم الإلحاد وتخـــريج دعـــاة وخبراء لنشره بين المسلمين.

بهذا الأسلوب العبقري تحققت وعود لينين وستالين في بيـــان 7 ديسمبر 1917 للمسلمين "... اعلموا أن جميع حقـــوقكم الدينيـــة والمدنية مصونة بقوة الثورة ورجالها..."!.

الصوفية ودورهم التاريخي:

يستخدم علماء الاجتماع السوفييت مصطلحين مختلفين لوصف القيادات الدينية الإسلامية هما الإسلام الرسمي والإسلام الموازي. يمثل الإسلام الرسمي طبقة من رجال الدين تعلموا تعليما خاصا قائما على الولاء التام للدولة ونظامها الشيوعي، وهؤلاء يتناولون أجورهم مـــن الدولة باعتبارهم موظفين عنـــدها يخـــدمون سياســـتها الداخليـــة والخارجية، برزت هذه الطبقة في عهد الرئيس خروشوف الذي أقام علاقات بين الاتحاد السوفييتي وبين البلاد الإسلامية خارج الاتحـــاد

السوفييتي، وبدأت وفود رسمية من هذه البلاد تزور الاتحاد السوفييتي للإطلاع على أحوال المسلمين، وكان من بين مهام رجـــال الـــدين السوفييت مرافقة هذه الوفود لبعض المراكـــز والآثـــار الإســـلامية، وتطمين الزائرين على أحوال المسلمين وأن كل شئ على ما يرام.

وكان من واجبات رجال الدين السوفييت أيضا شرح سياســـة الاتحاد السوفييتي الخارجية في المؤتمرات الإسلامية بالخارج، وأنها تقوم على مبادئ مساندة الشعوب في نضالها مـــن أجـــل التحـــرر مـــن الاستعمار والأطماع الإمبريالية.

أما في السياسة الداخلية فكان عليهم إصدار فتاوى دينية تتفـــق مع مبادئ وتوجهات الحزب الشيوعي (يعنى فتاوى مفصلة حســـب الطلب). وكان من أبرز الشخصيات في هذا المجال "بابا خـــانوف" مفتي وسط آسيا (في مقره بطشقند) ؛ عمـــل علـــى نشـــر الفكـــر الماركسي بين المسلمين، وتبعه في هذا الجهد الإمام أحمد خان خطيب مسجد موسكو الذي دأب في خطبة الجمعة على الثناء العاطر علـــى الحزب الشيوعي ومبادئه العظيمة ، والدعاء بالرحمة والغفران للزعيم الراحل ستالين الذي اعتبره الشيخ جنديا مجاهداً في خدمـــة الـــدين الإسلامي وسماه المعلم الكبير والوالد المحبوب.

وسار على نفس النهج نجل بابا خانوف (ضياء الدين) والقاضي محمد طرزى مفتي سيبيريا والإمام ميرزا والإمام رياض الدين .. وغيرهم.

لعل هذا يفسر لنا اليوم خبرا حرص الإعلام الروسي على إذاعته، مفاده أن مفتي الشيشان يبارك الحملة الروسية لتطهير الشيشان من الإرهاب الإسلامي، فلم يعد في الأمر غرابة لأننا نعرف اليوم من أي مصدر يأتي أمثال هذا المفتي وكيف تلقّى تعليمه، ذلك إذا صحت مزاعم الإعلام الروسي عن موقفه وليست افتراء على الرجل.

لا يجب أن ننسى أن من أهم واجبات رجال الدين الرسميين هؤلاء: الإشراف على العبادات وتنظيم الأنشطة الثقافية وفتح المساجد بقدر ما تسمح به قيادات الحزب الشيوعي والسلطات السوفييتية.

الإسلام الجماهيري:

في مقابل هذا الإسلام الرسمي المأجور من الدولة ظهر مصطلح آخر سنة 1965م هو الإسلام الموازي (أو البديل)، وهو يشير إلى منظمات دينية غير رسمية تتكون من مجموعات متآلفة من الشيوخ والمريدين يعرفون قدرا من اللغة العربية اللازمة لقراءة القرآن وأداء

الصلوات وحفظ مقتطفات من الحديث النبوي، وتتيح الإطلاع على كتب السيرة والفقه. إنها جماعات صوفية ينشط شيوخها في بث الدعوة واجتذاب المريدين بغير ضجيج بين القبائل والعائلات، وهم لا يبالغون في التستر ولا يكتم تلاميذهم ومريدوهم حقيقة انتمائهم للطرق الصوفية، وتبدأ العملية بأن يأخذ المريد العهد على يد شيخه، ومن هذه اللحظة يدخل المريد في حياة جديدة قوامها الطاعة المطلقة لشيخه فيكون – حسب التعبير الصوفي – أشبه بميت بين يدي مغسّله، ويقود الشيخ مريديه في نظام روحي تسوده شعائر وصلوات وأوراد ومناجاة، وذكر صامت في بعض الطرق كما هو عند النقشبندية، وقد يكون جهريا كما عند القادرية، أو مصحوبا بالأناشيد والموسيقى كما هو الحال في الطريقة المولوية. وقد انفردت الطريقة النقشبندية في الكتابات السوفييتية بوصف "المتمتمين" لأنهم يذكرون الله بأصوات خافتة.

هذا الإسلام الجماهيري أو الشعبي هو الذي ساد وتجذر في شمال القوقاز بصفة خاصة وكان الصوفية من النقشبنديين والقادريين هم قادته وفرسانه، وكانوا هم المحرك الأساسي للمقاومة الإسلامية ضد الغزو الروسي الاستعماري في نهاية القرن الثامن عشر حتى تمت هزيمة الإمام شامل عام 1859م، وكان أول مجاهد قاد المقاومة في القوقاز هو الشيخ/ منصور أو شرومة الذي أوقع في صفوف الجيش

الإمبراطوري القيصري خسائر فادحة، هذا المجاهد العظيم كان من أتباع الطريقة النقشبندية.

أما أول مرشد قادري في القوقاز فكان يسمى "كونت حجى كيشييف"، نشأ في بلدة أليخان – يورت الشيشانية، وقد سميت طريقته باسم طريقة "كونت حجى" أو "بطل حجى" وانتشرت انتشارا واسعا لشعبيتها وتأكيدها على حياة الزهد والتقشف التي تتناسب مع الحياة الجبلية الشاقة.

كان القادرية يتجنبون الصدام مع الروس في أول الأمر ولكنهم مع التحرش والاضطهاد والطغيان الروسي اضطروا إلى الثورة وحمل السلاح ، فاعتقلت السلطات الروسية كونت حجى عام 1864 ثم قتلته في السجن عام 1867، وأعلنت أن طريقته "محظورة" لأنها خارجة على القانون.

اشتركت الطريقتان القادرية والنقشبندية في الثورة الكبرى التي نشبت في الشيشان وداغستان خلال عامي 1877 و 1878م، ولكن أخمدها القوات الروسية، وقامت بنفي عشرات الألوف من الثوار وشنق آلاف المشايخ الذين لم يقتلوا في المعارك.

وقد تأثرت طريقة "بطل حجى" تأثرا بالغا حيث استشهد جميع شيوخها تقريبا. واستعاد النقشبنديون قوتهم مرة أخرى فقاموا بدور بارز في حرب القوقاز في الفترة من 1917 إلى 1922م،

وازدهرت طريقتهم رغم المطاردات الدموية من قبل الجيش الأحمر، فكتب السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الداغستاني في تقرير له سنة 1925م يقول: "إن الصوفية في ذروة انتشارها...".

في ذلك الوقت كانت سجلات الحزب الشيوعي تضم ستة آلاف عضو من القوقاز أكثرهم من المستوطنين الروس، بينما كانت الطرق الصوفية – بحسب الإحصاءات السوفييتية – تضم حوالي 122 ألف مريد في الشيشان وداغستان فقط.

وفي سنة 1928م بدأ الاتحاد السوفييتي هجمة كبرى لتصفية العناصر الإسلامية فتفجرت ثورة جديدة في القوقاز استشهد فيها تسعة أبناء وسبعة أحفاد لمؤسس طريقة "بطل حجى" الصوفية، وسُحقت الثورة سنة 1936، ولكنها عادت مرة أخرى في شتاء سنة 1940، فجاء رد الفعل الانتقامي عام 1944 على يد ستالين مروعا، حيث استؤصل من الشيشان – إنجوشيا ثمانمائة ألف مسلم نفاهم ستالين في سيبيريا وكازاخستان، على النحو الذي فصلناه في سياقه، ولكن نجح بعض المجاهدين الشيشان من الاعتصام بجبال الشيشان – كما يفعل الشيشانيون الآن – واستمروا في القتال حتى سنة 1947م، ونفى الشيخ "قريش بلهورويف" آخر من بقى حيًّا من أبناء "بطل حجى" إلى سيبيريا، ثم عاد إلى القوقاز مع العائدين

عام 1957 ليستأنف المقاومة المسلحة ويقـــود انتفاضـــة جـــروزني سنة 1968م.

من عجائب حركة المقاومة الصوفية وجهادها المســتميت مـــن أجل الاستقلال والحرية أنها انبعثت حية في منافي سيبيريا فكانت هي الرمز الوحيد الذي التف حوله الشعب الشيشاني المنكوب، وكانـــت بمثابة الحصن الذي ساعدهم على الصمود في المنفى، ويعترف بهـــذه الحقيقة المراقبون السوفييت أمثال "ل. كليموفيتش" الـــذي لاحـــظ مدى قوة وتماسك الشيشانيين والإنجوش وتلاحمهم في المنفى حـــول مبادئهم الإسلامية وقياداتهم الصوفية، وكان لصلابتهم أثر واضح في فتح جهات جديدة للصوفية في كازاخستان وقرغيزيا الشمالية. ولمـــا عاد الشيشانيون مرة أخرى إلى بلاهم وجـــدوها حطامـــا مـــدمَراً فشرعوا يبنونها من جديد.

الصوفية في آسيا الوسطى:

لم تلعب الطرق الصوفية دورا كبيرا في آسيا الوسطى كالـــذي قامت به في القوقاز الشمالي، ولعل أقوى حركة مقاومة للمتصـــوفة تلك التي ظهرت في وادي فرغانة كانت حركة "البسمتشية" الـــذين خاضوا معارك عنيفة ضد الجيش الأحمر طوال عشرة أعوام بـــدأت سنة 1918 وانتهت سنة 1928م، وإلى جانب البسمتشية ظهرت

خمس طرق صوفية أخرى، ربما أهمها جماعة ظهرت في طشقند سنة 1945 أطلقوا على أنفسهم "أهل القرآن"، كان مريدوها وشيوخها يجتهدون في سبيل تنقية العقيدة مما أصابها من فساد في عقول المسلمين، وكانوا يعنون بالعبادات ويهتمون بإقامة الصلوات اليومية الخمس في أوقاتها، ويستنكرون توجهات الإدارات الدينية الرسمية، ويتهمون موظفيها بخيانة القرآن والسنة والتفريط فيهما بالممارسات والفتاوى اللاإسلامية إرضاء للسلطات والحزب الشيوعي.

ظلت الجماعات الصوفية رغم طابعها السري منظمات شعبية جماهيرية، وهم يمثلون مزيجاً من العناصر التقليدية والتجديدية الإصلاحية، ولعل في هذه المرونة يكمن سر قوتها واستمراريتها، وتغلغل جذورها في الحياة الأسرية والأوساط الشعبية في مجتمعات القوقاز.

ويلاحظ الدارسون ولاء المريدين المزدوج للعائلة وللطريقة معا، وهذا التلاحم بين الطريقة والعائلة الممتدة منح الحركات الصوفية حماية أقوى ضد الملاحقات الأمنية للسلطات السوفييتية.

يصور المؤلف الشيشاني "س. عمروف" العلاقة الصوفية القبلية في جمهورية الشيشان – إنجوشيا في كتابه (المريدون والدين، الجزء العاشر المنشور سنة 1979) فيقول: خلال العشرين أو الثلاثين عامًا الماضية طرأت على الحركات الصوفية تغيرات كثيرة في بلاد الشيشان

والإنجوش، ويمكن أن نؤكد أن هذه الحركات قد استقرت على أنماط من التكيّف الأفضل مع الحياة المعاصرة، فقد تحولــت إلى مجتمعــات صغيرة من المريدين ضم عائلات من ذوى القربى يعيشون في قريــة واحدة، مرشدهم الديني هو المُلّا، وإذا لم يتوفر المُلّا يتــولى الإرشــاد والقيادة أكثر المريدين نشاطا ومعرفة، ويصور عمــروف العلاقــات التنظيمية لهذه الجماعات فيقول:ت لا يتم الاتصال المباشر بين هــذه الجماعات بعضها ببعض وإنما الاتصال بين مرشد المجموعــة وبــين القيادة العليا مباشرة، بهذا تحمى الطريقــة أعضــاءها مــن اغتيــال السلطات السوفييتية، فإذا سقطت خلية أو دُمّرت مجموعة لا يترتب على ذلك تدمير بقية الخلايا في الطريقة. في هذه المجموعات الصغيرة المتلاحمة يسهل ضبط سلوك الأفراد والالتزام بالتوجيهات التي تــأتي مباشرة من زعيم الطريقة، وتستطيع هذه المجموعات أن تفرض على الشبان المذنبين أو المنحرفين الذين يثبت عليهم التورط في العــادات الروسية السيئة عقوبات شديدة كالغرامات المالية أو الركض عشرات الكيلو مترات عبر الطرق الجبلية الــوعرة دون أي اعتــراض مــن المذنبين.

وتعتمد الحركات الصوفية في تمويل نشاطها على المصادر الذاتية وهبات الأفراد، وتخصص جانبا كبيرً من مواردها الماليــة لمســاعدة عائلات ضحايا القمع السوفييتي. ويفترض في كل مريد أنه مســئول

شخصيا عن حياة إخوانه جميعا ومسئول عن أمنهم وحريتهم. وتلجأ بعض الجماعات الصوفية مثل جماعة "بطل حجى" في الــدفاع عــن نفسها ضد العنف السوفييتي بعنف مثله.

تدير الجماعات الصوفية المدارس القرآنية السرية، ويدرّسون فيها مبادئ الإسلام وتعاليمه وشعائره إلى جانب تعليم اللغة العربية، كما يشرفون على الاحتفالات في المناسبات الدينية مثل الختــان وعقــود الزواج الشرعي، وشعائر الدفن، وينظمون صلاة الجماعة في بيــوت الصلاة السرية بعيدا عن أعين الــ كى جى بى.

ويتمركز نشاطهم بوجه عام حول الأماكن المقدسة والمــزارات الكثيرة، وعادة ما تكون هذه قبور أولياء الصوفية الذي استشــهدوا في معارك المقاومة ضد الروس.

كانت السلطات الروسية تغلق المساجد السرية فور اكتشــافها فيعيد الصوفية فتحها ومزاولة نشاطهم فيها، وينشرون فيها دعايتهم المضادة ضد السلطات الغاشمة.

ظلت الحركات الصوفية في القوقاز ملاذ جميع المؤمنين الملتزمين، الرافضين لكل تزييف ولكل تواطؤ مع السلطة الملحدة، وفي نفــس الوقت لم تجرؤ طبقة رجال الدين الرسميين المتواطئين مع السلطة على مواجهة النشاط الصوفي أو إعلان الحرب عليــه كمــا أرادت لهــا السلطات السوفييتية أن تفعل. وقد سعت هذه السلطات دائمــا إلى

تدمير الجماعات الصوفية بالقمع البوليسي وبالدعاية، وعاملت زعماءها ومريديها باعتبارهم عناصر معادية للاشتراكية والقانون، وتلك تهم عقوبتها مغلظة في النظام السوفييتي.

اتحاد المناضلين في سبيل الكفر بالله:

ليست هذه نكتة وإنما هو اسم حقيقي لمؤسسة إلحادية رسمية وُجدت في الاتحاد السوفييتي، انْصَبَّ نشاطها على نشر الإلحاد بين المسلمين، كان أحد أساتذتها هو "ف. أولشتشوك" نشرت له صحيفة "بوربا ..." بموسكو سنة 1939م مقالا يقول فيه:

"المؤسسات الدينية الإسلامية والمساجد هي مراكز نشاط هدام لعناصر قومية معادية للاتحاد السوفييتي، والذين يقومون بهذا النشاط هم أعداء الثورة وأعداء الشعوب السوفييتية الذين ينسجون خياناتهم متسترين بعباءة الدين .. وهو نشاط توجهه المخابرات اليابانية".

كان كلام الأستاذ أولشتشوك تحريض سافر لشن حملة جديدة على المسلمين، ولكن الوقت لم يكن مناسبا لهذه الحملة فقد اندلعت الحرب العالمية الثانية وكانت روسيا بين فكي عدوين كبيرين ألمانيا من الغرب واليابان من الشرق، وكانت أحوج ما تكون إلى استقرار الجبهة الداخلية، وفي حاجة أكبر إلى مساندة رجال الدين الإسلامي، فحدث انفراج نسبي أثناء الحرب، حيث أخذ زمام المبادرة مفتي

روسيا الأوروبية الشيخ "عبد الرحمن رسولائف" فاتصل باستالين في يوليه 1942 ووعده بمساندة المسلمين له في المجهـــود العســـكري، وبالتالي أمر ستالين بتهدئة الدعاية المضادة للإسلام، وحدث نوع من التطبيع النسبي بين الدولة الملحدة وبين المسلمين، والتـــزم الأئمـــة في خطبة الجمعة بالدعاء لستالين بالنصر.

فلما انتهت الحرب انتهت فترة الانفراج وعـــادت الحمـــلات الإعلامية الشرسة ضد الإسلام من جديد، وقد بلغت أقصى مداها في عهد الرئيس خروشوف، وعلى وجه التحديد خلال عشر ســـنوات فيما بين عام 1954 و 1964، كانت عشر سنوات عجاف هبط عدد المساجد التي فتحت أثناء الحرب من ألف وخمسمائة مسجد إلى خمسمائة مسجد فقط وأُطلق العنان لوسائل الإعلام لشن هجماتهـــا ضد الإسلام.

في هذه الفترة نشر الاتحاد السوفييتي تسعمائة وعشرين كتابـــا ضد الإسلام بلغات المسلمين المحلية، كان نصيب الأوزبكية وحـــدها 177 عنونا تليها الداغستانية ثم الكازاخية والأزيريـــة والطاجيكيـــة والقرغيزية والتترية والشيشانية .. وغيرها.

كل الدول الاستعمارية التي احتلت بلاد المسلمين قلّلـــت مـــن شأن الثقافة الإسلامية ووصمت المسلمين بالتخلف وزيفت كثيرا من

تاريخهم، ولكن الروس السوفييت فاقوا جميع المستعمرين غُلوًّا في مزاعمهم وفي تشويههم للثقافة الإسلامية وتحريفهم للحقائق التاريخية، واستخدموا أجهزة إعلام متقدمة لبث برامج وأفلام تصور المسلمين وهم يمارسون شعائر دينهم في الوضوء والصلاة بطريقة هستيرية تدفع المشاهدين إلى الضحك والسخرية، كما تصور أبطال الجهاد والمقاومة ضد الاحتلال الروس لصوصا وقطاع طرق لا همّ لهم سوى سلب الأموال واستباحة أعراض النساء، فلما غزت جيوش القياصرة بلاد المسلمين رحب السكان المسلمون بهذه الجيوش لتخليصهم من حكم اللصوص وقطاع الطرق!.

إنها نفس المزاعم التي كان بوتين يرددها تبريرا للغزو الروسي في الشيشان. حتى الجرائم الوحشية التي ارتكبها ستالين ضد الشيشانيين والإنجوش وتصفيتهم في المنافي، اعتبرته الأفلام السوفييتية محاولة لتمدين الهمج وإخراجهم من حالة البربرية إلى حالة الحضارة.

حوّل السوفييت ضريح الإمام البخاري إلى متحف للإلحاد، وضع فيه تمثال لينين مع إشارة إلى انتصار الماركسية على الإسلام.

ولما عاد جاجارين من رحلته في الفضاء الخارجي (عام 1961) أُعتبر البطل السوفييتي أكبر شاهد على عدم وجود إله في الكون لأنه لم ير الله في الفضاء الخارجي.

كانت الآلة الإعلامية السوفييتية شديدة الوطأة على أرواح المسلمين وعقولهم حوّلت حياتهم إلى جحيم، استخدمت فيها موارد هائلة وعمل فيها عشرات الألوف من العلماء وأساتذة الجامعات وخبراء الإلحاد.

وبرغم كل هذه الجهود، واتضح من دراسات أُجريت سنة 1978 في جمهورية الشيشان – إنجوشيا، أن 80% من المسلمين يناصبون هذه الدعاية الإعلامية عداء سافرا ويتصدون لدحضها في مجتمعاتهم، أو لا يبالون بها على الإطلاق، وأن 20% فقط تأثروا بهذه الدعاية غالبيتهم من الشباب.

الظاهرة الإسلامية تحت المجهر:

أثارت ظاهرة ارتباط المسلمين بدينهم علماء الاجتماع السوفييت فقاموا بدراسات واسعة النطاق في المناطق المسلمة لتقييم مستوى تدين سكانها، وقد اتفقت هذه الدراسات جميعا على ملاحظة اتجاه نمطي سائد بين جميع من يحملون أسماء مسلمة، سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين، ذلك هو تعلقهم الشديد بممارسات دينية مشتركة لا يحيدون عنها، مما يجعل منهم كيانا ثقافيا مختلفا عن الروس الذين تخلوا عن الأرثوذكسية بسهولة وانخرطوا في تيار الحياة الشيوعية.

في هذا المجال يصنف العلماء السوفييت المسلمين في آسيا الوسطى إلى ست فئات رئيسية:

الفئة الأولى: تضم المؤمنين عن عقيدة واقتناع راسخ بالدين، هؤلاء يؤمنون بقداسة المعتقدات الدينية التي نزل بها القرآن وبأنها معصومة من الخطأ والضلال.

ويصف العلماء هذه الفئة بصفة "المتعصبين".. من أبرز سمات هذه الفئة أنهم ملتزمون بتعاليم القرآن ويؤمنون بالحياة الآخرة ويقيمون الشعائر الدينية بإخلاص، ويحرصون على التقاليد الإسلامية الموروثة، ويرفضون الانغماس في نمط الحياة السائد في المجتمع الروسي، ويرفضون التساهل مع الملحدين في مجتمعاتهم، ويدافعون عن عقيدتهم بحرارة ويحاولون نشر فكرة أن الدين ضروري لحياة الإنسان ولا يمكن الاستغناء عنه.

الفئة الثانية: هم المؤمنون بالتقليد والوراثة، وهؤلاء يشتركون في سمات واحدة مع الفئة الأولى فهم ملتزمون بالشعائر الدينية والتقاليد الإسلامية دون تفريط ويحيطون ذلك كله بمشاعر القداسة، ولكنهم يحتفظون بذلك في أنفسهم ولا يحاولون إقناع الآخرين بطريقتهم.

الفئة الثالثة: المتأرجحون الذين يؤمنون بالله ويراعون القيم الأخلاقية والتقاليد الإسلامية، ولكنهم لا يحرصون على أداء الصلاة بصفة منتظمة، فقد يكتفون بصلاة الفجر، وبصيام ثلاثة أيام فقط من

شهر رمضان، ولا يقرأون القرآن لأنهم لا يعرفون اللغة العربية، وينصب اهتمامهم – بصفة عامة – على الجانب القومي أكثر من الجانب الروحي في الإسلام، وينتمي إلى هذه الفئة عمال المدن وفلاحون يمارسون عملهم بأدوات وأجهزة متقدمة تكنولوجيا.

الفئة الرابعة: غير المؤمنين الذين لا يهتمون بالعقائد الدينية ولكنهم يقومون بختان أطفالهم ويؤدون الزكاة المفروضة، ويدفنون موتاهم طبقا للشريعة، ويتصدقون على أرواح موتاهم ويذبحون الذبائح في عيد الأضحى.

الفئة الخامسة: الذين قد يراعون بعض الشعائر الدينية تحت ضغوط أسرية واجتماعية، ولكن رغم أنهم ماديون إلا أنهم يؤمنون بإله خالق، ذكر أفراد هذه الفئة في الاستبيان أنهم لا يعرفون جيدا إذا كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين، ويفضلون ألا يعترفوا بعدم اكتراثهم بالدين بل يؤكدون أنهم "مسلمون".

الفئة السادسة: هي فئة الملحدين الذين يظهرون عدم اكتراثهم بالدين وشعائره ولا يحضرون الاحتفالات الدينية، أكثر هؤلاء أعضاء في الحزب الشيوعي ويحتلون مراكز في السلطات السوفييتية والمحلية، ومع ذلك يبين الاستبيان امتثال غالبيتهم لثلاث شعائر إسلامية أساسية هي الختان والزواج الديني ودفن موتاهم بالطريقة الشرعية.

يخلص علماء الاجتماع السوفييت إلى حقيقة مذهلة وهي أنه لا يوجد إلحاد قطعي بين مسلمي الاتحاد السوفييتي، فشخصية الملحد تصبح أضحوكة الجميع، لأن إنكار وجود الله في نظر المسلمين جميعا ليس دليلا على ثورة فكرية أو فلسفة عميقة، إنما هو نموذج للحمق الذي يهوى بصاحبه إلى مرتبة الحيوان، حتى أن كلمة "ملحد" تعد تهمة شنيعة وعار لا يحتمله إنسان عاقل، وإذا وُجد الملحد عن اقتناع بإلحاده يُنبذ من المجتمع ويطرد بعيدا عنه، ولكن إثبات الإلحاد أو الكفر على شخص بعينه عملية تكاد تكون مستحيلة، فالمسلم لا يعتبر كافرا أو ملحداً لمجرد أنه لا يؤدى الشعائر الدينية فلا يصلي ولا يصوم مثلا، ولكن يتجرد المسلم من إيمانه إذا أعلن أمام المسلمين في أحد المساجد أنه ينكر ما أنزل الله من شريعة.

قد ينصح المسلمون أبنائهم أن يلتحقوا بعضوية الكومسمول أو الحزب الشيوعي حتى يضمنوا عملا في الدولة الملحدة ولكنهم لا يُحرمون من نصيحة مرشدهم الديني الذي يقول لهم: "عليكم أن تؤدوا عملكم بإتقان ولكن احتفظوا بعميق إخلاصكم لدينكم، ولا تنسوا أبداً أن الله هو الذي خلقكم وأنكم إليه راجعون ليحاسبكم آجلا أو عاجلا".

في مجتمعات أخرى مثل موسكو تحاصر الأسرة المسلمة أنماطٌ طاغية من الحياة الإلحادية، ويتربص بها عملاء الـ كى جى بى، قد

لا تعرف الفتاة شيئا عن علاقتها بالإسلام، حتى تبلغ سن الرشد، فإذا بها تسمع من أمها لأول مرة أنها مسلمة وليست كغيرها من الروسيات، ولكي تحافظ على إسلامها تنصحها بأمرين: ألا تقترب من الخمر وأن تحافظ على عفّتها، ويصبح هذا هو الخيط الوحيد الذي يربط فتاة مسلمة بالإسلام.

يعرض "أرستان بيكوف" وهو خبير قرغيزى نموذجا لانقسام الشخصية المسلمة بين توجهات دولة إلحادية تسيطر على حياة الفرد بكل تفاصيلها الدقيقة في كل لحظة، وبين مجتمع محلي ملتزم بالعقيدة الإسلامية ولا يقبل بغيرها بديلا، يمثل هذا النموذج رئيس مزرعة جماعية مسلم بمنطقة "أوشن" عرف أثناء عمله بعدائه الشديد لممارسة الشعائر الدينية حتى أنه تطوع بإغلاق المسجد السري الوحيد الذي كان يصلى فيه مسلمو المنطقة، فلما تقاعد عن العمل وجد نفسه فجأة عضوا في مجتمع من المؤمنين الملتزمين فبدأ يقيم الصلاة بانتظام، ويصوم في رمضان الذي اعتاد أن يسخر منه.

أما القوقاز فله قصة أخرى:

ذلك لأن الإسلام هنا كان دائما أقوى وأكثر رسوخا ومقاومة منه في أي مكان آخر بالاتحاد السوفييتي، ولذلك سنجد تصنيفا آخر مختلفا للمسلمين في الشيشان وداغستان وإنجوشيا على النحو التالي:

المؤمنون عن اقتناع ، والمؤمنون إيمانا مطلقا ، والمؤمنــون بــالميراث والتقليد، والمؤمنون المعتدلون، وكلها درجات من الإيمان الديني أعلى كثيرا من التصنيف الذي رأينـاه في آسـيا الوسـطى فيمـا عـدا المتأرجحون الذين أهملوا الدين ولكن بقى في مشاعرهم وسـلوكهم بعض آثاره، وهؤلاء لا يمثلون أكثر من 3.6% فقط من المسـلمين. وفوق هذا تختفي فئة "الملحدين" تماما من تصنيف العلماء السوفييت لمسلمي القوقاز الشمالي.

هكذا تبدو المجتمعات المسلمة وهي تقاوم بكل ما أوتيت مـن قوة زحف الإلحاد الشيوعي، وتحاول الإبقاء علـى نـبض العقيـدة الإسلامية حيًّا، رغم مرور أكثر من سبعين سنة من الحرب السوفييتية لهذه العقيدة، جرت فيها عمليات رهيبة لتجفيف منـابع الإسـلام واستئصاله من جذوره.

لقد نجح الشيوعيون في تدمير الأسس الاقتصادية والاجتماعيـة التي قام عليها الإسلام في القوقاز وآسيا الوسطى وقـاموا بـاقتلاع مجتمعات إسلامية بأسرها كما حدث في الشيشان وإنجوشيا والقـرم وكما حدث للبدو في آسيا الوسطى الذين تعرضوا للإبادة الجماعية، ولكن بقى الإسلام وبقيت تقاليده راسخة في المجتمعـات المسـلمة يمارسها المؤمنون باعتبارها جزءًا من دينهم ويمارسها غـير المـؤمنين باعتبارها جزءًا من هويتهم القومية.

وعجز الخبراء السوفييت عن فهم هذه الظاهرة كما عجزوا عن تفسيرها، وفي هذا يقول الخبير الشيشاني م. أ. عبد الله يف:

فسر الخبراء الروس حيوية الدين في بلادنا بأسباب مختلفة أرجعوها إلى تخلف الوعي، وإلى تأثير البرجوازية وإلى انخفاض مستويات المعيشة وتدنّي مستوى الإنتاجية وغير ذلك. ويعلق الرجل على هذا فيقول: "هذه كلها أسباب عامة قد يكون لها أثر ما على استمرار الدين، ولكنها لا تفسر كل شئ؛ فقد ارتفع مستوى المعيشة ومستوى الإنتاج عند الداغستانيين مثلاً بعد الحرب العالمية الثانية ولكننا نلاحظ في نفس الوقت أن مستوى الشعور الديني عندهم قد ارتفع أيضا .. ولذلك علينا أن نبحث عن أسباب أخرى لاستمرار الشعور الديني عند المسلمين بهذه القوة.

سأل صحفي فرنسي شيخا من أوزبكستان عام 1980 عن التغييرات التي طرأت على الإسلام منذ قيام النظام السوفييتي فقال:

"لا شئ أبدا .. الإسلام هو هو كما كان أيام أجدادنا".

قد يكون كلام الشيخ فيه مبالغة، وقد يكون مبررا من الزاوية التي ينظر منها إلى الموضوع ، ولكن الذي لا شك فيه هو أنه لا الخبير الشيشاني ولا العلماء السوفييت ولا السلطات الروسية اليوم قادرة على فهم سر تنامي الشعور الديني وقوته عند المسلمين وسيظل

الروس في صدام دائم مع المسلمين والإسلام حتى تندثر النزعة الإمبريالية، وتتخلى السلطة الروسية عن الاستعلاء والعنصرية.

الفصل الخامس

التقسيم السياسي للمسلمين

الخريطة السياسية للمسلمين التي تخلفت عن الاتحاد السوفييتي كما نراها اليوم يصعب فهمها ما لم نرجع إلى الأساس الذي قامت عليه في عهد ستالين، فسياسة ستالين في تقسيم الشعوب المسلمة إلى وحدات سياسية وإدارية في الاتحاد السوفييتي، هي السبب الرئيسي في الاضطراب والكوارث التي تنزل بالمسلمين اليوم بعد زوال الاتحاد السوفييتي، أذكر في هذا الشأن نموذجين اثنين من هذه الكوارث: الحرب الشيشانية، والحرب التي دارت بين أرمينيا وأذربيجان حول منطقة نجورنو – كاراباخ. هذا النموذج الأخير ليس أكثر من بؤرة الكوارث التي يعاني منها المسلمون اليوم كما يعانون من بؤر كوارث أخرى مماثلة خلفها الاستعمار البريطاني مثلا ، في كشمير وجنوب السودان، وفي إسرائيل التي زرعت عنوة في قلب العالم العربي.

حددت الإحصاءات الرسمية لعام 1979 مجموع عدد المسلمين في الاتحاد السوفييتي برقم 43.395.000 يتوزعون بين 37 شعبا أو وحدة سياسية تتألف كل وحدة من كتلة سكانية تنتمي إلى قومية معينة كعنصر أساسي مضافا إليها عناصر قومية أخرى بعضها مجلوب من مناطق مختلفة، وفي كل الأحوال توجد عناصر من المستوطنين الروس على هيئة أقليات متميزة ، قد تتضخم هذه الأقلية لتصبح هي الأكثرية كما في جمهورية كازاخستان.

وقد كشفت إحصاءات أحدث أُجريت سنة 1996م أن مجموع السكان المسلمين في جمهوريات وسط آسيا فقط قد بلغ أكثر من 63 مليون نسمة، يضاف إلى ذلك حوالي عشرين مليوناً آخرين يعيشون في جمهوريات ذات حكم ذاتي ومناطق أخرى في روسيا الاتحادية.

وفي التصنيف السوفييتي للسكان المسلمين لا تشير صفة "مسلم" إلى الانتماء الديني فحسب وإنما تشير إلى الانتماء القومي وإلى سمات نفسية وثقافية واجتماعية مشتركة بين المسلمين تميزهم عن غيرهم من الشعوب الأخرى، لا يهم بعد ذلك أن يكون المسلم مسلما أو ملحدًا.

ينقسم المسلمون إلى ثلاثة مجموعات عرقية ولغوية كبرى هي: الأتراك والإيرانيون والقوقازيون. أكبر هذه المجموعات هم الأتراك وأبرز الممثلين لهذه المجموعة هم الأوزبيك والكازاخ والتتار والأذيريين والتركمان والقرغيز والبشكير. يلي ذلك مجموعة الإيرانيين وأبرز ممثلي هذه المجموعة هم الطاجيك والأوسين والأكراد، أما المجموعة الثالثة فهي مجموعة القوقازيين وأبرز ممثليها هم الداغستانيون والشيشانيون والكبردين والإنجوش والأديجه والأبخاذ والشركس. وفيما عدا هذه المجموعات اللغوية الثلاثة توجد مجموعات مسلمة

صغيرة تنتمي إلى عائلات لغوية وعرقية أخرى مثل مجموعة الدونجان وهم من أصول صينية هربت بسبب الاضطهاد، كان عـــددهم 52 ألف نسمة في إحصاء سنة 1979م.

وبالمثل هاجر مئات الألوف من الاتحاد السوفييتي ومن روســـيا القيصرية بسبب الاضطهاد وسياسة الاستئصال، مثل تتار القرم الذين هاجروا إلى تركيا ومثل الشيشانيين والداغستانيين الذين هاجروا من القوقاز إلى تركيا وسوريا والأردن.

وهناك قوميات كبرى نراها مقسمة على نحو متساوٍ تقريبا بـــين الاتحاد السوفييتي (السابق) وبين دولة واحدة أو عدة دول مجـــاورة، وأبرز مثل على ذلك الأذيريون، حيث يوجد الآن منهم في أذربيجان سبعة ملايين ونصف ويوجد مثل هذا العدد تقريبا في إيران، وأكثـــر من نصف الطاجيك مبعثرون في العراق وأفغانستان والصين، وكذلك الحال بالنسبة للتركمان والأوزبيك والكازاخ والقرغيز.

هذه المجموعات اللغوية القومية الممزقة هنـــا وهنـــاك تفصـــلها الحدود السياسية بعضها عن بعض، ولكن تجمعهم صـــلات القـــربى والنسب والثقافة المشتركة التي لا يمكن أن تلغيهـــا تلـــك الحـــدود السياسية. وكان الاتحاد السوفييتي ينظر إلى هذه الحقيقـــة بتـــوجس شديد، ولعل هذا سر تدخله العسكري في أفغانستان، وسر تواجـــده

العسكري النشط بعد ذلـــك علـــى الحـــدود الأفغانيـــة في دولـــة طاجيكستان وهي دولة المفروض أنها مستقلة.

الحقيقة أن هذه البلاد الواسعة الأرجاء والتي تمتد من الصين إلى شمال القوقاز، وتضم كتلة سكانية ضخمة من المسلمين يبلغ مجموعها ثمانين مليونا من البشر تشكل هاجسا مؤرِّقًا لروسيا وللغرب معهـــا، خصوصا وأنها إلى جانب القوة البشرية التي تتمتع بها تملك ثـــروات طبيعية ضخمة من بينها البترول والغاز الطبيعي، وتتصـــل حـــدودها بشعوب مسلمة كبيرة مثل تركيـــا وإيـــران وباكســـتان والعـــراق وأفغانستان، ولذلك فإن روسيا والغرب معها يرون في إمكانية يقظة هذه الشعوب وتوحّدها خطرا شديدا لابد من العمل علـــى تجنبـــه. وهذا الشعور المشترك يفسر لنا كثيرا من المواقف التي تتخذها روسيا ضد هذه الشعوب بشكل علني سافر أو بشكل خفي غـــير معلـــن، ويدعمها في ذلك الدول الغربية بمواقفها السلبية أحيانـــا وبمســـاندتها الاقتصادية أحيانا أخرى كما هو حادث الآن في الحرب الشيشـــانية رغم جرائم الحرب وانتهاكات حقوق الإنسان.

هذه التوافق في السياسات الروسية والغربية يبـــدو واضـــحا في تدعيم الحكومات الشيوعية المهيمنة الآن على دول آســـيا الوســـطى المسلمة التي استقلت عن الاتحاد السوفييتي السابق، فقد انهارت جميع الحكومات الشيوعية والدكتاتوريات التي كانت تحكم بلاد أوروبـــا

الشرقية كلها، وروسيا نفسها تبخر فيها النفوذ الشيوعي، ولكن الغرب والولايات المتحدة بصفة خاصة وقد ساندت هذه الشعوب كلها للتخلص من النظم الشيوعية ومن الدكتاتوريات المستبدة مثل شاوشسكو وغيره، هي نفسها التي تساند الحكومات الشيوعية وتحافظ على قوتها وسطوتها رغم سقوط شرعيتها في بلاد المسلمين، وروسيا تتدخل عسكريا مع الحكومات الشيوعية غير الشرعية ضد حركات المقاومة الإسلامية في طاجيكستان وغيرها.

وليس صحيحا الزعم بأن القيادات السياسية في الغرب وفي الولايات المتحدة بصفة خاصة لا يتدخلون لوقف العدوان الروسي الوحشي على شعب الشيشان تحسبا للقوة النووية التي لا تزال روسيا تملكها، فإن هؤلاء القادة لديهم ألف وسيلة ووسيلة لمساندة الشيشانيين ووقف العدوان الروسي عليهم دون أن يضطروا لمواجهات نووية مع روسيا، وهذا موضوع يحتاج إلى دراسة مستقلة.

ذكرت فيما سبق أن التقسيمات السياسية الموروثة عن الاتحاد السوفييتي ولا تزال قائمة حتى اليوم في بلاد المسلمين كانت إجراء تعسفيا اتخذه ستالين، وقد وضعه على أساس تعريفاته الخاصة لمصطلحات: الأمة والقومية والمجموعة الإثنية (العرقية)، وجعل لكل فئة من هذه الفئات معايير تحددها، وتحدد طريقة حكمها ودرجة استقلالها في إطار النظام السوفييتي.

ونلاحظ في هذا التقسيم التعسفي أربعة مراتب:

أعلاها: الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، وهذه — بمقتضى الدستور — جمهوريات فدرالية لها الحق في البقاء أو الانسحاب — نظريا — من الاتحاد السوفييتي. في هذه الفئة توجد ست جمهوريات مسلمة في آسيا الوسطى هي: أوزبكستان وكازاخستان وتركمانستان وطاجيكستان وقرغيزيا وأذربيجان.

لتشكيل هذه الجمهوريات وضع ستالين ثلاثة شروط أساسية:

أن تتوفر لها مواصفات الأمة.

ألا يقل عدد سكانها عن 300 ألف نسمة.

أن تقع على حدود دولة أجنبية أو تكون لها حدود بحرية.

يلي ذلك ثمانية جمهوريات مسلمة ذات حكم ذاتي هي تتاريا وبشكيريا وداغستان والشيشان والإنجوش والكبردية والبلقارية ونخشفان وإدرجاريا وقرة قلبقستان، ويدخل في هذه الفئة أيضا جمهوريتان مسلمتان جزئيا وهما أبخازيا والأوسيت الشمالية.

في الدرجة الثالثة من سلم التقسيم توجد أربع مناطق حكم ذاتي هي أصغر مساحة وأقل في عدد السكان من الفئة السابقة وتعتبر وحدات إدارية متميزة لها خصائصها اللغوية والثقافية المعترف بها، وعادة ما تكون هذه المناطق ملحقة بجمهوريات فدرالية.

في أسفل السلم توجد أربع شعوب لا تتمتع بوحـــدة إداريـــة خاصة، وقد تتمتع مميزات وطنية غير واضحة في النظـــام الســـوفييتي الشمولي.

هذا التصنيف للشعوب وضعه ستالين سنة 1913م ونشـــره في كتاب بعنوان: الماركسية والمسألة القومية في ســـنة 1914م, كـــان تصنيفا مشوشا وبه أخطاء جسيمة سمحت له بالتلاعب فيـــه، فهـــو يؤكد أن السمة القومية لا تستمر على حالها بشكل نهائي وإنما تتطور دائماً مع تطور حياة المجتمعات البشرية التي تمثلها، فإذا فقدت أمـــة أحد العوامل التي تحدد قيامها لا تبقى أمة وإنما تتقهقر نحـــو أطـــوار أدنى: إلى قومية أو مجموعة إثنية.

من المعايير التي وضعها ستالين – كما أشرنا – عدد الســـكان، وقد رأينا أنه تلاعب بهذا الشرط بأساليب إجرامية، من أبرز الأمثلـــة على ذلك تتار القرم، كانوا يشكلون جمهورية قبل الحـــرب العالميـــة الثانية فلفق لهم ستالين تهمة التآمر مع الألمان ونفاهم إلى وسط آســـيا وأحلّ مكانهم مستوطنين روس، واختفوا تماما من إحصاءات 1959 و 1970 و 1979م، وألحقت جمهورية القرم بأوكرانيا.

وفعل ستالين نفس الشئ في الشيشان حيث نفى الشيشانيين سنة 1944م إلى سيبيريا وكازاخستان وألغـــى جمهوريتـــهم وألحقهـــا بجورجيا.

ولذلك عندما ننظر في الوحدات السياسية الراهنة لابد أن نأخذ في الاعتبار كل هذه الحقائق والعوامل التي ورثتها هذه الوحدات من الاتحاد السوفييتي، والتي لا تزال آثارها تكشف عن نفسها في الاضطرابات التي تعصف بها. فعندما تفكك الاتحاد السوفييتي أعلنت الجمهوريات الاشتراكية الفدرالية السوفييتية الستة المسلمة الاستقلال، ولم يعترض الروس على ذلك، ولكن عندما أعلنت الشيشان استقلالها وهي جمهورية ذات حكم ذاتي اعترض يلتسن وكان رئيسا لروسيا فقام بتغيير الدستور دون استشارة الأطراف الأخرى في الاتحاد الروسي وأعلن أن الشيشان جزء لا يتجزأ من الأراضي الروسية وشن عليها الحرب سنة 1994م، فلما مُنيت قواته بالهزيمة أعاد الكرّة سنة 1999م وظلّت الحرب الشيشانية مشتعلة لبضع سنوات.

إن جُملة ما فعلته روسيا في الشيشان وشعبها، سواء في الماضي أو الحاضر لا يمكن وصفه إلا بما يستحق: فهو عدوان استعماري متواصل.

والحقيقة أن العلاقة بين الشعب الشيشاني وروسيا لم تكن في أي وقت سوى علاقة شعب مستعمَر يكافح من أجل حريته ودولة استعمارية باطشة لا تتورع عن استخدام أبشع أدوات العنف والإبادة الجماعية لقمع هذا الشعب وإبقائه تحت السيطرة العسكرية.

الفصل السادس

الحــرب الشيشــانية

البعد السياسي المباشر:

يكاد المراقبون السياسيون الغربيون يجمعون علـى أن الحـرب الشيشانية حرب مفتعلة، من تأليف وإخراج الرئيس الروسي يلتسين وبطانته في الكرملين، ويرون أن توقيتها وثيق الصلة بموضعين: أولهما يتعلق بالفضائح المالية التي تفجرت أخبارها في الإعلام الغـربي قبـل الحرب مباشرة، حول أموال المساعدات والقروض التي تقدمها الدول الغربية لروسيا، والتي تتم سرقتها وتحويلها إلى حسابات خاصـة في البنوك الدولية.

وقد وجهت الاتهامات إلى شخصـيات سياسـية معروفـة في الكرملين من بطانة الرئيس يلتسين وأفراد أسرته.

ويرى هؤلاء المراقبون أن الحرب ومقدماتها الدرامية التي سبقتها، متمثلة في حوادث تفجير العمارات السكنية بموسكو وغيرهـا مـن المدن الروسية وسقوط ثلاثمائة قتيل مدني من جراء ذلك، يـرون أن هذه الحرب هي التي حولت انتباه الرأي العام الروسي والعالمي عـن الفضائح المالية التي أحاطت بيلتسين وأسرته، وشبّهوا ذلك بموقـف الرئيس الأمريكي بل كلينتون عندما استعرت الحملات الدعائية ضده وأحاطت به الفضائح أثناء شهادة "مونيكا لوينسكي" في الكونجرس العام الماضي، هنالك انطلقت حملة القصف الصاروخي المركز علـى العراق التي بدأت قبل شهر رمضان واستمرت أثناء الشهر الكـريم،

كما اشتملت الحملة على عمليات قصف أخرى دمرت مصنع الدواء السوداني، واستهدفت مقر أسامة بن لادن في أفغانستان. ومن الواضح أن حملة كل من كلينتون ويلتسين قد حققت بالفعل أهدافها بإخماد أنباء الفضائح الأخلاقية والمالية التي ثارت ضدهما.

الانتخابات:

أما الموضوع الثاني الذي يرى المراقبون السياسيون صلته الوثيقة بالحرب الشيشانية وتوقيتها فهو موضوع الانتخابات البرلمانية التي كان من المقرر إجراؤها يوم الأحد 19 ديسمبر 1999م، وانتخابات الرئاسة التي كان مقررا عقدها في صيف العام التالي، أي بعد ذلك بستة أشهر. ولكنها أُجريت مبكرا في 26 مارس 2000 بسبب استقالة الرئيس يلتسين من منصبه.

كانت الصورة الشائعة عن الرئيس يلتسين وبطانته في الكريملين أنهم يمثلون حكومة ضعيفة وفاسدة، تسببت في هزيمة مهينة للجيش الروسي في حرب الشيشان الأولى، وهي عاجزة عن التصدي لمشكلات الغلاء الفاحش وعصابات الجريمة المنظمة واستغلال الرأسمالية الجديدة، علاوة على أن رئيس الدولة رجل معتل الصحة مدمن على الخمر وحوله بطانة فاسدة.

وكانت المعارضة الروسية ذات الأغلبية البرلمانية يرتفع صوتها عاليا في البرلمان وخارجه حول قضايا خطيرة أهمها:

خصخصة القطاع العام وآثارها الاجتماعية المروّعة.

إفلاس الصناعات الروسية.

انهيار الخدمات الصحية والنظام التعليمي.

فساد الأجهزة الحكومية وتفشّي الرشوة والتهريب، والتهاون في محاسبة المتهربين من دفع الضرائب.

مع بداية الحرب في الشيشان تجمدت كل هذه القضايا والاتهامات، في ثلاجة، ومع الانتصارات التي يحققها الجيش الروسي – بدون خسائر – على الإرهاب الإسلامي [المزعوم] في الشيشان، أصبحت الحرب والانتصارات هي كل شئ في وسائل الإعلام، "ولا صوت يعلو فوق صوت المعركة"!.

في جو القصف المتواصل واستيلاء الجيش على الأراضي الشيشانية والزحف المستمر نحو جروزني لتطويقها، قام الكريملين بحملة انتخابية بارعة لصالح أنصار يلتسين ومؤيدي حكومة بوتين (الرجل القوي).

كانت التركيبة البرلمانية طوال حكم يلتسين تسيطر عليها كتلة المعارضة الشيوعية، وكان يلتسين وأنصاره الذين يطلق عليهم اسم "الإصلاحيين" المنسوبين إلى اقتصاد السوق والديمقراطية الغربية، يواجهون معارضة شرسة في مجلس الدوما (البرلمان)، وقفت عقبة كأداء أمام قرارات يلتسين ومشروعاته، وأصبح الصدام بين يلتسين

والدوما مسلسلا متصل الحلقات بلغ ذروة من العنف سنة 1993م عندها هاجم يلتسين مبنى البرلمان بالدبابات والقصف المدفعي، واقتحمت قواته المجلس لتقضي على اعتصام النواب وتلقى القبض على زعماء المعارضة، وتكشفت مزاعم يلتسين الديمقراطية عن فضيحة عالمية.

جاءت نتيجة الانتخابات لصالح أنصار يلتسين وبوتين، هم لم يحصلوا على أغلبية المقاعد كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما حصلت كتلتهم على عدد من المقاعد يوازي عدد المقاعد التي فاز بها نواب الحزب الشيوعي، وبذلك فقد الشيوعيون السيطرة المطلقة على الدوما، واستمرّت لعبة التشكيلات والتحالفات في المجلس قائمة لفترة من الزمن قبل أن تنحسم.

وكان السبب في ذلك وجود 105 مقاعد فاز بها نواب مستقلون لا ينتمون إلى كتلة بعينها، وفي بلاد العجائب ظهرت بورصة للنواب يُشترى فيها النائب بمليون دولار أمريكي، ووراء هذه البورصة ومموّلها صديق يلتسين وصاحب النفوذ البارز في الكريملين الملياردير اليهودي الشاب "أناتولى تشوبايس" الذي أعلن في برنامج تلفازي أنه سوف يدعّم بوتين في انتخابات الرئاسة القادمة عند

انتهاء مدة يلتسين، ومن المُرَجَّحِ أن "تشوبايس" هذا هو الذي رشح بوتين لرئاسة الوزراء في الحكومة.

كان "فلاديمير بوتين" عقيدا مغمورا في جهاز المخابرات الـــذي كان يطلق عليه في الماضي اسم الـــ "كى. جى. بى"، وهـــو رجـــل غامض تحيط به أسرار يحرص ألا يفضّها، ليس له برنامج سياسي أو اقتصادي معروف، وكل ما صرح به لا يزيد عن بعض الشـــعارات الرنّانة:

أنه يدعّم الإصلاح الاقتصادي في أجواء خاليـــة مـــن الفســـاد والجريمة المنظمة، وأنه وراء احترام القـــانون وضـــد التـــهرب مـــن الضرائب.

لقد سبقه رئيس وزراء ذو تاريخ سياسي معروف هو "إيفجـــنى بريماكوف" كان له برنامج واضح محدد، وحاول بالفعل – خـــلال فترته القصيرة في الحكم – ترشيد المساعدات الاقتصـــادية، ووعـــد بالقضاء على الفساد وبدأ بالفعل في تنفيذ وعوده بإلقاء القبض على أحد رءوس الفساد المسمى "بروزفسكى"، فلما ذهب رجال الأمـــن إلى مسكنه فوجئوا بأن زملاء لهم في جهاز الأمن هم الذين يقومـــون بحراسته، نظير أجر إضافي سخيّ لتحسين أحوالهم المعيشية.

كان بريماكوف – فيما يبدو – يخطـــو في طريـــق الإصـــلاح الحقيقي، ولكن لم يعجب هذا التوجه يلتسين وبطانته في الكـــريملين

خصوصا أنه كان يدعم اتفاقية ألكسندر ليبيد للسلام في الشيشـــان ويرفض الحل العسكري، من أجل ذلك أقاله يلتسين من منصبه كما أقال ليبيد من قبل.

الحزب الذي دخل به يلتسين انتخابات الدوما يسمى حـــزب الوحدة، هذا الحزب لم يكن له وجود قبل الانتخابات بثلاثة أشهر، وإنما ظهر فجأة من لا شئ، ليس له أجندة عمـــل، ولا خطـــط أو برامج سياسية منشورة، وكان يتجنب الحوار مع الأحزاب الأخرى، ويمكن القول أن هذا الحزب الشبح لم يكن له وجود حقيقي خارج شاشات التلفاز، فالشبكتان الفدراليتان للتلفاز في قبضة مجموعة مـــن الناس هم الذين ألّفوا هذا الحزب أو اخترعوه، وجعلوا لـــه الـــدب رمزا، ووضع يلتسين على رأسه وزير الطوارئ، حظي هذا الحـــزب مع حزب اليمين المتطرف بزعامة "فلاديمير جرينوفسكى" بضـــعف الوقت المخصص لجميع الأحـــزاب الأخـــرى في التلفـــاز للدعايـــة الانتخابية، ذلك لأن حزب اليمين المتطرف يشكل مع حزب الوحدة كتلة أنصار يلتسين وبوتين. وقد أُنفقت أموال طائلـــة علـــى هـــذه الكتلة، التي قامت بحملة دعائية قذرة ضد منافسيها، تجاوزت فيهـــا كل المعايير الأخلاقية والإنسانية.

وجرت الصحافة على نفس المنوال في دعايتها الانتخابية لدرجة أن بعض رجال الحكومة أنفسهم عبروا عن صدمتهم بهذا المســـتوى

اللاأخلاقي في الدعاية الانتخابية، حيث صرح وكيل وزارة الإعلام بأنه: "لم يتوقع أحد مثل هذه الحملة الشرسة العنيفة ولا استخدام هذه الحيل القذرة التي لا يمكن تصورها".

فلما ظهرت نتائج الانتخابات شرع "أناتولى تشوبايس" يبث دعاية موجهة لاستهواء الدول الغربية حيث قال: "إنها أول مرة منذ 1989م يصبح لروسيا برلمان لا يسيطر عليه الشيوعيون، وستكون هذه الانتخابات خطوة ناجحة في طريق التحوّل المنشود".

لعل من أهم آثار هذه الحملات الدعائية أنها أخرست كل المعارضين للحرب الشيشانية فلم يجرؤ أحد على انتقادها خوفا من انصراف الناخبين المعبئين عن طريقه، وخشية أن يُتهم بالخيانة ومساندة الإرهاب الإسلامي.

كان صوت بريماكوف خافتا فقد التزم الهدوء بخصوص الحرب، فيما عدا قوله: إن على الحكومة ألا تجعل قصف جروزنى يُكسب روسيا عداوة الشيشانيين المدنيين، ويُفقدها أصدقاءها الغربيين.

أما زعيم الحزب الشيوعي جينادى زوجانوف فقد تعمد أن تكون تصريحاته غامضة: انتقد يلتسين للقرار الإجرامي بإعلان الحرب على الشيشان وقال إنه لا ينبغي أن نسمح بمعاناة النساء والأطفال، ولكن في تصريح آخر قال: "يجب إيقاف الإرهاب، كما يجب علينا أن نساند قواتنا المسلحة".

يعلق "جوناثان سْتيل" في صحيفة الجارديـــان البريطانيـــة (23 ديسمبر 1999م) على نتائج الانتخابات البرلمانية التي اعتبرها أنصار يلتسين انتصارا لكتلتهم فيقول: "كانت انتخابات الأحـــد الماضـــي صدمة لكل من كان عنده أمل في انتهاء القصف المروع للشيشانيين، لأنها قضت على هذا الأمل تماما .. وأصبح قدر الشيشانيين المـــدنيين الذين يعيشون في حالة بائسة من الجوع والخوف تحت درجة الصفر، إما في عربات قطارات قديمة متهرئة، أو في خيام اللاجئين بأنجوشيا، أو في أقبية تحت الأرض في المدينة المنكوبة جروزني، أصبح قدرهم أن يتحملوا هذا كله مع القصف الروسي المستمر لستة أشـــهر أخـــرى قادمة حتى يحين موعد انتخابات الرئاسة".

ذلك لأنه ليس من المتوقع أن يتخلى مستشارو الكريملين عـــن سياسة القصف المتواصل في الشيشان بعد أن ثبت نجاحها في التجربة الأولى للانتخابات.

البعد الاقتصادي للحرب:

في علاقة البترول بالحرب الشيشانية هناك دراستان على جانب هام لابد من الإشارة إليهما:

قدم الدراسة الأولى مارشال جولدمان(*) إلى مـــؤتمر عُقـــد في بولندا خلال شهر ديسمبر 1995، تحت اســـم (القـــانون الـــدولي

والجمهورية الشيشانية) أما عنوان دراسة جولدمان فكان (البتـــرول والأنابيب وبارانويا القوقاز). استطاع أن يصور الدور الذي يلعبـــه البترول في الصراع الروسي مع الغرب للسيطرة على القوقاز.

ولكي يضع الأمور في حجمها الطبيعي بدون مبالغات أعلن في بداية بحثه أنه ربما يكون من التجني على التاريخ أن نزعم بأن الحرب الروسية في الشيشان قد نشأت فقط بسبب السباق للسيطرة علـــى بترول الشيشان وعلى مصانع تكريره وعلى شبكة أنابيب البتـــرول الهامة التي تمر عبر جروزني، وبعد ذلك لا أحد ينكر أن البترول قـــد لعب دورا مركزيا في الخلافات بين روسيا والشيشان خصوصا مـــع ظهور حقائق جديدة عن احتياطي هائل للبترول الذي يرقد في قـــاع بحر قزوين، آخذين في الاعتبار أن أفضل وأقصر خط أنابيب — إن لم يكن الخط الوحيد — لمرور بترول بحر قزوين إلى روسيا متجهـــا إلى أوروبا يمر عبر جروزني (العاصمة الشيشانية).

أما الدراسة الثانية فصاحبها "روبرت إ. إبيل" مـــدير برنـــامج الطاقة والأمن القومي في مركز الدراسات الإستراتيجية والدوليـــة في أبعادها التاريخية، فنرى مثلا أن بترول روسيا كان يمثل نصف إنتاج بترول العالم كله في بداية القرن العشرين، وأن أهم وأكـــبر منـــاطق إنتاج البترول حينذاك هي باكو (في أذربيجان) وجروزني.

استخرج البترول في أول الأمر من آبار سطحية في جروزني سنة 1833م، ثم تعاظم الإنتاج حتى بلغ 33.400 برميل يوميا سنة 1915م وكان هذا يمثل 18% من بترول روسيا، بينما حقول باكو كانت تنتج باقي البترول الروسي.1

من دراسة إبيل نعرف أن بداية الاهتمام الدولي ببترول روسيا كانت مبكرة، فأكثر من نصف رءوس الأموال التي استثمرت فيه قبل الحرب العالمية الأولى جاءت من الخارج، حيث بلغت الاستثمارات البترولية 214 مليون دولار أمريكي منها 130 مليون دولار من مصادر أوروبية، وكان أكبر مساهم فيها هي بريطانيا بنسبة 60%، وكان لها بذلك سيطرة على حقول البترول بنسبة 50% في جروزني و90% في حقول إمبا.

وبلغ إنتاج بترول جروزني أقصى مداه (154 ألف برميل يوميا) سنة 1932، وكان هذا يمثل ثلث إنتاج البترول في روسيا كلها، ثم حدث هبوط في هذه النسبة فيما بعد، نتيجة لعاملين: ظهور حقول جديدة في مناطق أخرى مثل غرب سيبيريا، وتدهور الإنتاج في حقول جروزني نفسها. ولكن جروزني لم تفقد أهميتها بل زادت هذه الأهمية إذ أصبحت متلقي شبكة أنابيب بترول كبرى إلى جانب

---

* مارشال جولدمان هو نائب مدير مركز البحوث الروسية في جامعة هارفارد الأمريكية.

وجود مصافي البترول الحيوية التي كانت تمـــد الاتحـــاد الســـوفييتي بالبترول الخاص بوقود الطائرات والبرافين، كما أصبحت إلى جانب ذلك ملتقى خطوط أنابيب الغاز من حقوله في كل من روسيا وآسيا الوسطى.

ونظراً لأهمية البترول في الحرب والسلم معا فقد كـــان هتلـــر يخطط الانقضاض على بترول جروزني وباكو وكان هذا الهدف من أولويات الغزو الألماني لروسيا، ولكنه لم يفلح في تحقيق هذا الهـــدف وإن كان قد اقترب منه، ولعل هذا أحـــد الأســـباب وراء إجـــلاء الشيشانيين جميعاً خارج وطنهم، فقد كان ستالين يحتاط من تعاونهم مع الألمان ضده، وليس لأنهم بالفعل تعاونوا معهم كما زعم كاذبا.

في أثناء الحرب الشيشانية الأولى تعمدت القوات الروسية تدمير آبار البترول الشيشانية فلم ينج من التدمير سوى مائة بئر من مجموع الآبار البالغ عددها 1500 بئرا، وكان هذا يتلاءم مع سياسة روسيا في حصارها الاقتصادي الذي أعلنته على الشيشـــان بعـــد إعـــلان استقلالها عن الاتحاد السوفييتي سنة 1991م، فروسيا كانت تريـــد حرمان الشيشان من الاستفادة بعائدات البترول في إصلاح اقتصادها الذي دمرته الحرب، أو في تطوير اتفاقيتها مع روسيا إلى اســـتقلال كامل عن الاتحاد الفدرالي، وذلك من خلال علاقـــات دبلوماســـية نشطة مع العالم الخارجي، الأمر الذي لم يتحقق، فقد كانت روســـيا

وراء إحباط كل محاولات حكومة أصـــلان مشـــهدوف (الـــرئيس الشيشاني المنتخب) بالحصار الاقتصادي والسياسي وبالدعاية المضادة ضد الحكومة الشيشانية واتهامها بالإرهاب.

ينظر روبرت إبيل نظرة شديدة التشاؤم إلى مســـتقبل إنتـــاج البترول في الشيشان إذ يرى أنه حتى بعد انتهاء المعارك في الشيشـــان فإن العودة إلى مستوى إنتاج البترول السابق على الحرب يكاد يكون مستحيلاً، وذلك للأسباب التي ذكرها: منها أن المتخصصـــين مـــن مهندسين وعمال قد هجروا حقول البترول ويحتاج الأمر إلى زمـــن طويل لتدريب كوادر فنية جديدة تحل محلهم، ومنها عـــدم وجـــود رءوس الأموال اللازمة لإصلاح الخراب الذي لحق بالآبار، ومنها أن الآبار من هذا النوع قليل الإنتاج إذا تركت لفترة طويلة معطّلة بغير تشغيل ربما لا تعود مرة أخرى إلى الإنتاج.

ولذلك فإنه يرى أن الاستقرار السياسي حـــتى لـــو تحقـــق في الشيشان لن يكون ضمانا لعودة تدفق البترول في أراضيها مرة ثانية، فما بالك إذا كان هذا الاستقرار بعيد المنال، خصوصا في ضوء مـــا نعرف من الطموحات القوية للشيشانيين ورغبتهم بل إصرارهم على الاستقلال التام عن روسيا، بينما لا يوجد في الأفق أي إشارة تـــدل على أن روسيا يمكن أن تسلم بهذا الاستقلال، ومن ثم فإن أنابيـــب

البترول في جروزني لن تكون أبدا في منأى عن احتمالات تفجيرهـــا في أي وقت إذا أراد الشيشانيون تفجيرها.

ينقلنا مارشال جولدمان إلى قلب المشكلات المعاصرة التي تحيط بالصراع البترولي، فإلى عهد قريب كان اهتمام موسكو مركزا على نمو إنتاج حقول البترول في غرب سيبيريا، ولكـــن إنهيـــار الاتحـــاد السوفييتي سنة 1991 ومع الاهتمام الأجنبي خصوصـــا شـــركات البترول الأمريكية والبريطانية باحتمالات وجود احتياطيات بتـــرول هائلة في بحر قزوين وفي حقول تنجـــز المجـــاورة (في كازاخســـتان) أصبحت هذه المنطقة مركز اهتمام عالمي، وبؤرة صراع بين القـــوى الدولية الكبرى.

كذلك بدأت الدول المستقلة حديثا عن الاتحاد السوفييتي تنظـــر في إمكانية طلب المساعادات التكنولوجية الحديثة في التنقيـــب مـــن الخارج، لأن التكنولوجيا الروسية للتنقيب في البحر غـــير متـــوفرة ، كما أن روسيا لا تملك رءوس أموال يمكن استثمارها في مشروعات كبرى للتنقيب.

ومن ناحية أخرى بدأ قادة أذربيجان وكازاخستان يدركون أن تنمية مواردهم البترولية بعيدا عن هيمنة روسيا سيؤكد اســـتقلالهم ويدعّم موارد بلادهم المالية، هذه الموارد الـــتي كانـــت تـــذهب إلى موسكو على مدى أكثر من سبعين عاما من النظام السوفييتي.

مثل هذا الشعور كان سائدا في الشيشان، ولكن الفرق الوحيد أن روسيا اعترفت باستقلال أذربيجان وكازاخستان ولكنها لم تفعل هذا مع الشيشان.

أعلن الشيشانيون استقلالهم من طرف واحـــد ســـنة 1991م فأرسل يلتسن قواته إليها ولكن تدخل جورباتشوف آنذاك وكان لا يزال رئيسا للاتحاد السوفييتي فأجهض المحاولة، واستطاعت الشيشان تحويل بعض إنتاجها البترولي لاستخداماتها الداخلية كمـــا حولـــت بعضه الآخر للبيع في الخارج. وفي بداية الأمر بدا وكأن الســـلطات الروسية لا تمانع في هذه الأوضاع المستجدة، ولكن هذا لم يدم طويلا حيث بدأت الحملة العسكرية الروسية على الشيشـــان في ديســـمبر 1994م.

بدأ الموقف الروسي الرسمي في سياسته البترولية يتحـــول نحـــو التشدد نتيجة لعدة عوامل من أهمها:

أولاً: كان بالكرملين قادة يحبذون استقلال جمهوريات الاتحـــاد السوفييتي باعتبارها عبئا لا يحتمل على الاقتصاد السوفييتي المنـــهار، هؤلاء القادة أنفسهم هم الذين بدأوا يدركون أن الثروات الهائلـــة في هذه الجمهوريات تتسرب من بين أصابعهم إلى قوى أخرى.

ثانياً: أن الاتحاد السوفييتي بإمكاناته كان وراء البحث والتنقيب واستخراج هذه الثروات وقد أنفق الكثير علـــى منشـــآتها وبنيتـــها

التحتية، ومن ثم فإن روسيا (التي تعتبر نفسها وريثة الاتحاد السوفييتي) تعتقد أن لها الحق في بعض عوائد بيع هذه الثروات.

ثالثاً: أن إعادة بناء الاتحاد السوفييتي مسألة واردة في المستقبل القريب أو البعيد، ويرى أنصار هذه النظرة الإمبريالية الكامنة في الكريملين أنه كلما تعاظم دخل هذه الجمهوريات من استثمارات هذه الثروات كلما تعاظمت مقاومتها للعودة إلى حظيرة الإمبريالية الروسية.

من هنا بدأت روسيا تحد من انفتاح هذه الجمهوريات على أسواق التصدير الخارجية، وهكذا فرضت على شركة شيفرون للبترول في كازاخستان أن يمر إنتاج حقولها عبر الأنابيب الروسية إلى دول الغرب، كما فرضت أيضا على هذه الشركة أن تحد من معدلات إنتاجها، وبذلك حرمت كازاخستان من عوائد الكميات الإضافية من البترول الذي كان في إمكانها إنتاجه من حقولها، والاستفادة بها في التغلب على الضائقة الاقتصادية التي كانت تمر بها.

هذا الموقف الروسي النمطي من الجمهوريات المستقلة جعل شعوب هذه الجمهوريات تشعر أنها بإزاء إمبريالية جديدة في روسيا، فتركمنستان مثلا تبدى تذمرها الدائم من مماطلة روسيا في دفع ثمن الغاز التركماني الذي تستهلكه محليا. أما أوزبكستان فإنها تبحث عن

أسواق لمنتجاتها في الشرق والجنوب بعيدا عن روسيا، وبهذه الطريقة تحاول التخلص من مضايقات روسيا وسيطرتها.

وقد فعلت روسيا الكثير لإعادة سيطرتها على بترول جمهورية تترستان والشيشان، ولكنها سمحت في النهاية لتترستان بتصدير بترولها إلى الأسواق الخارجية بعيدا عن المضايقات الروسية.

أما بالنسبة للشيشان فإن الأمر مختلف، ذلك لأن روسيا لم تعد مهتمة فقط ببترول الشيشان وإنما يتركز اهتمامها اليوم على شبكة أنابيب البترول التي تعتبر جروزني صرّتها في القوقاز كله، خصوصا بعد ظهور احتمالات بترول بحر قزوين الواعدة، فطبقا لبعض التقديرات أن هذه الحقول البحرية الجديدة ستجعل من أذربيجان رابع أكبر مصدر للبترول في العالم، كذلك فإن إنتاج حقول تنجيز مخطط لها أن تمر عبر الشيشان.

حتى الخط الجديد الذي تفكر روسيا في إنشائه خارج الشيشان ليحمل بترول تنجيز إلى "نوفو روسييك" على البحر الأسود، حتى هذا الخط سيكون هدفا سهلا للتخريب إذا أراد الشيشانيون ذلك لأنه سيمر على حدود الشيشان غير بعيد عن بودينوفسك حيث استطاع الشيشانيون التسلل إليها في صدام مسلح مشهود خلال يونيه 1995.

ولسوف تجد روسيا نفسها تدور في حلقة مفرغة طالما هي مصرة على الحل العسكري وإخضاع الشعب الشيشاني بالقوة ولا تستجيب لنداء العقل بالعودة إلى المفاوضات والحلول السياسية مع الحكومة الشيشانية المنتخبة، فإنها تكتسب مزيدا من عداء الشعب الشيشاني لها وتفقد فرصًا اقتصادية مواتية، فقد نجحت الولايات المتحدة الأمريكية في عقد صفقة بين تركيا وأذربيجان لإنشاء خط جديد لنقل بترول بحر قزوين من باكو إلى البحر الأسود مارا بجورجيا بعيدا عن روسيا وعن الشيشان، تتحمل تكاليف بنائه شركات البترول الأمريكية، وبهذه الطريقة تحاول الولايات المتحدة حرمان كل من روسيا وإيران من مكاسب محتملة لو كانت أنابيب البترول ستمر في أراضى أي منهما.

كان الاقتراب الأجنبي من بترول بحر قزوين محرما أثناء وجود الاتحاد السوفييتي، ولا تزال روسيا تقاوم هذا الاتجاه وتضع أمامه العراقيل رغم أنها لا تملك التكنولوجيا اللازمة للتنقيب والإنتاج في البحر، ولكنها وجدت نفسها غير قادرة على احتمال الجلوس في مقعد المتفرجين بينما أذربيجان تحصد مليارات الدولارات من عوائد بترول بحر قزوين، وأدركت أذربيجان حساسية الموقف، ولكي تتفادى ضغوط روسيا أو غضبها سعت إلى إشراك عدد كبير من

الشركاء في استثمارات بترول بحر قزوين، وذلك من خلال فتح مناقصة عالمية انتهت إلى تركيبة واسعة من الشركاء على هذا النحو:

شركة SOCAR الأذيرية 30%

الشركة البريطانية للبترول 17%

شركة أموكو الأمريكية 17%

شركة LUK الروسية 10%

إلى جانب ثلاث شركات أمريكية أخرى كل منها حصلت على 9%، ثم أربع شركات حصلت كل واحدة منها على 2% إحداها أمريكية وأخرى بريطانية وسعودية وتركية.

وقد رغب الإيرانيون في المشاركة فتنازلت أذربيجان لهم عن 5% من حصتها، ولكن على الرغم من أن إيران لها سواحل على بحر قزوين ورغم العلاقات التاريخية بين إيران وأذربيجان ورغم التقارب العرقي والديني بينهما فإن الولايات المتحدة أصرت على استبعاد إيران من المشاركة فأذعنت أذربيجان وسحبت عرضها. و لم تعترض الولايات المتحدة عندما تنازلت أذربيجان عن مزيد من الأسهم لشركة لوك الروسية فنزلت حصتها من 30% إلى 20%. والغريب أن مطامع روسيا لم تقف عند هذا الحد، فلم تعتبر هذا التنازل كافيا حيث احتجت بأن هذه شركة خاصة ولكن الحكومة

الروسية لها اهتمامها المستقل ببترول بحر قزوين، ولها حقوق تاريخية – حسب زعمها – في هذا البترول.

تحتج روسيا بأن بحر قزوين ليس في الحقيقة بحرا وإنما هو بحيرة داخلية، ومن ثم فإن أذربيجان لا تملك من مياه أمام سواحلها أكثر من عشر كيلو مترات وهذا أقل كثيرا من حقها لو كان بحرا لا مجرد بحيرة، كما تحتج بأن أي جهة تريد أن تنقب في بحر قزوين عليها أن تحصل مقدما على تصريح من روسيا، ذلك لأن التنقيب في زعمها تحكمه اتفاقيات دولية منها: اتفاقية 1940 بين إيران والاتحاد السوفييتي واتفاقيات ثنائية أخرى قبلها في عامي 1921 و1935م. وتدعى روسيا أنها الوريثة الشرعية لجميع امتيازات الاتحاد السوفييتي السابق، وأن تغيير هذه الاتفاقيات لابد أن يمر خلال برلمان كل من الدولتين الروسية والإيرانية، ولذلك ترى روسيا أن جميع الاتفاقيات الثنائية التي عقدت بين أذربيجان والدول الأخرى غير قانونية.

هذا الموقف الروسي المتشدد يعكس تزايد الشكوك لدى موسكو في نوايا الدول الغربية، كما يكشف عن أطماعها الإمبريالية في ثروات جيرانها.

ويشيع في الكتابات الصحفية الروسية الإشارة إلى مؤامرات غربية على روسيا فالغرب يسعى للحصول على معلومات روسية للسيطرة على مصادر البترول ولا يكتفي بهذا بل يسعى إلى عزل

روسيا عن منطقة ما وراء القوقاز (أذربيجان وجورجيا)، ويـــرون في هذا الزحف الغربي الأمريكي على روسيا من الجنوب هو اســـتكمال للزحف الأمريكي الغربي على روسيا عبر دول شرق أوروبا.

ويرى هؤلاء الكتاب الروس أن الزحف الغربي على روسيا مـــن الجنوب قد تبلور في مشروع خط أنابيب البترول الذي تم الاتفـــاق عليه لنقل بترول بحر قزوين من باكو إلى تركيا عبر جورجيا لإلغـــاء خط الأنابيب القائم بالفعل والذي يمر في جروزني.

ولعل إصرار روسيا على الحل العسكري للقضية الشيشانية يراد به استعراض قوة روسيا وقدرتها على السيطرة على شبكة خطـــوط البترول في الشيشان وتأمينها من المخاطر المحتملة. بل ذهبت أبعد من ذلك فأبدت استعدادها لبناء خط أنابيب آخر من البحر الأسود عند ميناء بورجاس في بلغاريا يتجه إلى "ألكسندروبولوس" في اليونان على البحر المتوسط. ويرى الروس أن جورجيا بحروبها الأهلية ليست أكثر أمنا أو استقرارا من الشيشان، وأن إصرار الشركات الأمريكية على إنشاء خط أنابيب يمر بجورجيا ليس إلا رغبة في حرمان روسيا مـــن حقوق مرور البترول في أراضيها، وإبعاد سيطرتها على إنتاج بتـــرول بحر قزوين.

ونظرا لتزايد الأطماع الروسية في السيطرة حاولـــت روســـيا إسقاط القيادة السياسية الأذيرية مرات عديدة، وسوف تحاول بكـــل

قوتها إعادة سيطرتها على بترول بحر قزوين. وستفعل كـــل مـــا في وسعها لتدمير أي حكم مستقل في الشيشان وإبقاء قواتها المسلحة في الأراضي الشيشانية كجيش احتلال دائم لضمان تـــأمين خطـــوط البترول، وهذا وهم كبير لأن تأمين خطوط أنابيب البترول لا يمكـــن أن يتحقق بمعاداة الشعب الشيشاني وتدمير بلاده.

حرب واحدة لا حربان:

تعرضنا آنفا للبعد الاقتصادي في الحرب الشيشانية متمـــثلا في الصراع الدولي للسيطرة على احتياطيات البترول المتوقعـــة في بحـــر قزوين، وألمحنا إلى الأهمية الخاصة لشبكة أنابيب البترول التي تمر عـــبر جروزني. ومن قبل رأينا كيف أن الانتخابات الروســـية بمرحلتيهـــا العاجلة والآجلة وثيقة الصلة بالحرب الشيشانية. ولكننـــا نريـــد أن نؤكد هنا أنه لا العامل الاقتصادي ولا العامل السياسي المباشر يمكن أن يفسّرا كل شئ عن هذه الحرب ، ربما يُفسّران توقيتها وشراستها، ولكن تظل هذه الحرب غير مفهومـــة حـــتى نستكشـــف أبعادهـــا الأخرى. لقد نشأت مشكلات انفصال لجمهوريات أخرى في روسيا الاتحادية ولكنها عولجت بالدبلوماسية، فلماذا تحاول روسيا أن تعالج مشكلاتها مع جمهورية الشيشان بالذات بالحرب والإبادة بدلا مـــن الدبلوماسية والمفاوضات؟

هناك أسباب عميقة الجذور في العلاقات التاريخية بين روسيا وبين شعوب القوقاز المسلمة بصفة عامة والشيشانيين على وجه الخصوص، وأقرب الأحداث التاريخية إلى الذاكرة حرب الشيشان الأولى التي استمرت عامين من سنة 1994 إلى سنة 1996م، وانتهت بهزيمة منكرة للجيش الروسي.

والحقيقة أن الحربين معًا ليستا سوى حالتين حادتين في حرب واحدة متصلة بدأت سنة 1991 عندما أعلن الرئيس جوهر دوداييف استقلال الشيشان بعد تفكك الاتحاد السوفييتي.. بل إنني أزعم أن هذه الحرب بكل حلقاتها الهادئة والملتهبة ليست بدورها إلا مرحلة معاصرة لصراع تاريخي طويل بين روسيا وبين الشيشانيين الذين رفضوا الاستعمار الروسي الإمبريالي، وظلوا يقاومونه جيلا بعد جيل، على مدى قرنين من الزمن على الأقل.

كان موقف الحكومات الروسية – في جوهره – واحدا على مر العصور وتغيّر الأنظمة هو: التشويه والإبادة، وكان موقف الشيشانيين دائما واحدا هو: الرفض والمقاومة حتى الموت في سبيل الحرية.

قامت الحرب الشيشانية على أساس افتراءات ثلاثة:

الحكومة الشيشانية حكومة إرهابية.

الإرهاب لابد من معاقبته.

إذن الغارات والقنابل ضرورية للقضاء على الإرهاب.

ولكن الذي يتأمل القضية الأولى والثانية – كمقدمات منطقية – لا يمكن أن يسلم بهما دون بحث في صحة انطباقهما على الواقع، فباب الأخذ والرد فيهما مفتوح على مصراعيه، وحتى لو سلمنا جدلا بصحتهما فإنهما لا يؤديان بالضرورة إلى النتيجة الواردة في القضية الثالثة، وذلك لسببين جوهريين: أولهما أنه يمكن اللجوء إلى حلول أخرى غير الحرب، وقد ثبت أن الرئيس الشيشاني أصلان مشهدوف كان يسعى جاهدا طوال العام الماضي لإقناع الكرملين باستئناف المفاوضات التي قطعتها الحكومة الروسية نفسها، وتنفيذ بنود اتفاقية السلام التي وقعها مع ممثل الكريملين الجنرال "ألكسندر ليبيد" منذ ثلاثة أعوام، ولكن الحكومة الروسية لم تنفذ حرفا واحدا مما التزمت به في هذه الاتفاقية، ولم تُعِرْ أي اهتمام لجهود أصلان مشهدوف لاستئناف المفاوضات، ولا يمكن وصف حكومة يسعى رئيسها للمفاوضات ويلتزم ببنود اتفاقية سلام وقع عليها بأنها حكومة إرهابية.

أما السبب الآخر فهو أن الذي شاهدناه في الشيشان ليس حملة مقصورة على هدف محدد هو القضاء على مجموعة من الإرهابيين وإنما حرب شاملة قوامها مائة ألف جندي روسي مدعمة بالدبابات والمدافع الثقيلة والصواريخ والطائرات الحربية، وبعد أن مضى على

هذه الحرب ثلاثة أشهر أو تزيد لم تدخل القوات الروسية في معارك مع إرهابيين وإنما هي تشن حربا سافرة على المدنيين، ورأى العالم ما أسفرت عنه من كوارث في صفوف هؤلاء المساكين الأبرياء. علما بأن ما رأيناه ليس إلا جزءاً من الحقيقة الرهيبة فالقوات الروسية كانت تفرض تعتيما إعلاميًّا على هذه الحرب، وتمنع الصحفيين والمصورين من الاقتراب منها، حتى الصحفيين الروس غير مسموح لهم بالتحدث إلى الشيشانيين اللاجئين أو الفارين من جروزني، ولذلك فنحن ولا أحد يعلم شيئًا سوى ما يذيعه الجيش من أخبار، ولا نرى إلا الصور التي يعدّها للنشر بمعرفته، وقد توقف إحصاء عدد اللاجئين عند الرقم مائتين وعشرين ألفاً رغم النزوح المستمر الذي لم ينقطع لهؤلاء اللاجئين.

العجيب أن حكومات العالم غرْبا وشرقا صدّقت الافتراءات الروسية، أو تظاهرت بتصديقها حتى تفلت من مساءلة شعوبها: لماذا لم تقف ضد هذه الحرب الوحشية على الشعب الشيشاني؟ نسيت هذه الحكومات أو تناست أن الحكومة الروسية التي ألّفت هذه الافتراءات وزيّفت الحقائق هي وريثة أكبر مدرسة لتزييف الحقائق في التاريخ الحديث كله، إنها مدرسة ألـ (كي. جي. بي)، وأن هذه المدرسة هي التي تخرّج منها أكثر السياسيين الذين يحكمون روسيا الآن، وعلى رأسهم فلاديمير بوتين رئيس الوزراء.

أسباب مفتعلة:

كانت الحملة العسكرية على الشيشان التي بدأت في شهر سبتمبر عام 1999 م قد خطط لها الجيش الروسي لمدة ثلاثة سنوات، أي بعد انتهاء الحملة السابقة بهزيمة مهينة له على يد الشيشانيين في جروزني، ولكن كان لابد من إيجاد أسباب مباشرة لهذه الحملة، وقد وجدتها الحكومة الروسية متمثلة في حادثتين:

الحادثة الأولى تتلخص في التحاق مجموعة من المقاتلين الشيشانيين بقيادة شامل باسييف بقريتين داغستانيتين كانتا متمردتين على الحكومة الداغستانية منذ فترة، وأعلنوا قيام دولة إسلامية فيهما، ويبدو أن هذا العمل كان فرقعة إعلامية ولفت نظر أكثر من كونه عملا جادا مخططا له، ويراد له الاستمرار لتحقيق أهدافه، وربما رأى أصحابه — وهم محسوبون من قيادات المعارضة الشيشانية — أنهم بهذه الحركة قد ينجحون في إقناع الروس بالعودة إلى المفاوضات وتنفيذ اتفاقية السلام التي أهملوها، وبذلك يكسبون نقطة ضد سياسة أصلان مشهدوف التي تتسم بالعقلانية والنفس الطويل، والدليل على صحة هذا الرأي أن التمرد انتهى فور تحرك الجيش الروسي وقصفه للقريتين، مع ضجة إعلامية في الصحف والإعلام الروسي والعالمي على السواء، وهكذا انسحب المقاتلون الشيشانيون من داغستان.

طبعاً لم يثبت أي علاقة للحكومة الشيشانية بهذه الواقعة، بل إن الرئيس الشيشاني أصلان مشهدوف استنكر الحادثة وتبرأ من القائمين بها، ومع ذلك أصرت السلطات الروسية على اتهام الرجل بأنه وراء هذه العملية التي وصفها الإعلام الروسي بالعملية الإرهابية، وأنه يتستر على الإرهابيين والأصوليين الإسلاميين، وظهر في الإعلام تهمة جديدة هي "الوهابية" الوافدة من الشرق الأوسط...!

أما الحادثة الثانية فتتمثل في تفجيرات مجهولة لبعض العمارات السكنية في موسكو ومدن روسية أخرى راح ضحيتها ثلاثمائة قتيل من المدنيين، هذه الحادثة أثارت ضجة إعلامية كبرى ضد الإرهاب الشيشاني والأصولية الإسلامية، مما أهاج الرأي العام في روسيا وخارجها لبشاعتها واستهدافها المدنيين.

ولكن السلطات الروسية لم تقدم دليلا واحدا على صحة اتهاماتها، و لم تأت بمتهم ولا بشاهد واحد .. علماً بأن لديها في موسكو مليون قوقازي منهم ثلاثمائة ألف شيشاني على الأقل، وكل ما حدث أن عمدة موسكو "يورى لوجكوف" استغلها فرصة فانقض على القوقازيين المسلمين بشرطة شديدة الوطأة اقتحمت مساكنهم وأخضعتهم لإجراءات قمعية واضطهاد وإهانة في الشوارع، وسحبت منهم تراخيص العمل لتبددهم وتشتت شملهم.

كما أن شامل باسييف الذي كان يفخر بعملياتـــه الفدائيـــة أو الإرهابية (من وجهة نظر السلطات الروسية) نفى نفيا قاطعا أي صلة له بهذه التفجيرات، فتفجير العمارات لـــيس أســـلوبا معروفـــا ولا مشروعا في أوساط المقاتلين الشيشانيين، وليس جزءاً من ثقافتهم ولا تقاليدهم التاريخية في المقاومة، ومن أراد أن يفهم هذا عليه أن يقـــرأ تاريخ حركة المقاومة الشيشانية كثيرا.

يعرف هذا المثقفون المنصفون من الروس كما يفهمه الجنـــرال ألكسندر ليبيد الذي وصف هذه الحادثة [بأنها مفتعلة ولا يستبعد أن تكون من تدبير الكريملين وعملائه في المخابرات](*). ويضيف ليبيد (في حديث له نشر في صحيفتي واشنطون بوست والتيمز اللندنية في آن واحد) معلقا على سؤال بشأن الحملة الروسية الســـابقة علـــى الشيشان يقول: "كثيرا ما سؤلت عما إذا كنت أعرف من المســـئول عن هذه الحرب .. نعم أعرفهم بأسمـــائهم، وأدرك أيضـــا أن هـــذه الحرب لها جذور اقتصادية متسترة في شكل سياسي، وليس الوقـــت مناسبا للكشف عن أسماء هؤلاء الناس المسئولين عـــن الحـــرب، لأن المناخ لا يزال ينذر باستئناف الحرب مرة أخرى بقوة جديدة وعلـــى

---

* التحقيق الذي قامت به محطة التلفاز البريطانية ITN وأذاعته في شهر مارس 2000م أثبت ضلوع المخابرات الروسية في تدبير حوادث تدمير العمارات السكنية.

نطاق أكبر .. أولا لابد من وقف القتال والعودة إلى الحياة السلمية، عندها سوف يضع القضاء العادل كل إنسان أمام مسئوليته ويحدد درجة إجرامه".

قال هذا الكلام ألكسندر ليبيد منذ عامين وقد تحقق ما تنبأ به فهل لهذا من معنى!؟ وهل يستطيع أحد أن يزايد على كلام هذا الرجل الذي اجتهد عاما كاملا للتوصل إلى اتفاقية سلام مع الشيشانيين ألتزمت حكومة الشيشان بتنفيذ بنودها، و لم تعبأ بها الحكومة الروسية، والكلام مرة أخرى للجنرال ليبيد الذي قال: "لم يكترث أحد في السلطة بتفعيل الاتفاقية باتخاذ خطوة سياسية أو اقتصادية لإعادة الوضع في الشيشان إلى مجراه الطبيعي".

كانت الاتفاقية في نظر الجنرالات الروس والحكومة الروسية مجرد هدنة تُلتقط فيها الأنفاس، وتسمح بوقت كاف للإعداد لحملة عسكرية جديدة على الشيشان، تتم فيها الإبادة الكاملة للشعب الشيشاني، وينتقم بها الجنرالات لهزيمتهم في الجولة السابقة من الحرب، ويستعيد بها يلتسين كرامته ويدفن فيها فضائحه، ويرفع بها بوتين أسهمه في الانتخابات الرئاسية القادمة.

وعندما يأتي بوتين ليروج عن الشيشانيين تهمة الأصولية والإرهاب الإسلامي ويصف المقاومة بأنها إجرام شيشاني فإنه لم يأت بشئ جديد، فقد كانت هذه المزاعم وأمثالها تتردد على لسان

السلطات الروسية الإمبريالية على مر العصـــور وتتخـــذها مـــبررا للانقضاض على الشعب الشيشاني، كما أنه ليس بجديد أيضا أن يرفع الشعب الشيشاني السلاح في وجه الاستعمار الروســـي في مقاومـــة متصلة دفاعا عن أرضه وحريته، ويبدو أن هذا هو قدر الشيشـــانيين الذي لا مفر منه.

الميراث العنصري:

كانت الصورة التقليدية للشيشانيين وشعوب القوقاز جميعـــا في نظر السلطات القيصرية أنهم حيوانات متوحشة ، وشعوب همجية لا يؤمن جانبها، بينما تنظر إلى نفسها باعتبارها الدولة المتحضـــرة ذات المكانة العالمية حامية حمى المسيحية الأرثوذكسية ، نظرة حادة قطبية أحادية الجانب ، يقف فيها الآخر غير المسيحي قبليّـــا فظّـــا خائنـــا همجيا، في حين تمثل روسيا القيصرية الحضارة والأخلاق والنظام.

في هذا المناخ الاستعلائي للذات المتضخمة وللآخـــر الوضـــيع تبلورت رسالة روسيا الإلهية نحو الآخرين: التنصير والترويس، ولأن الآخرين حيوانات أو على أحسن الفروض أطفال بـــلا عقـــول .. لاتدرك مصلحتها ، فقد تحددت الوسيلة لتحقيق الرسالة وهي القهر والقمع ثم التدريب.

هذه هي الصورة التي دأبت السلطات القيصرية على بثّها في عقول الشعب الروسي وجنود الجيش الروسي خلال دعايتها، وذلك بهدف كسب تأييد الشعب لها في حروب القوقاز، فهل اقتنع الشعب الروسي بهذه الدعاية أم كانت له رؤية مختلفة عن شعوب القوقاز؟، ولماذا كانت السيطرة على القوقاز بهذه الأهمية لروسيا القيصرية؟.

الإجابة على هذين السؤالين تفرض نفسها بقوة، ليس فقط لفهم تاريخ الصراع الروسي الشيشاني، ولكن أيضا لتفسير هذه الشراسة أو – على الأرجح – الوحشية التي تتسم بها الحروب الروسية ضد الشيشان.

إذا ابتدأنا بالإجابة على السؤال الثاني علينا أن نعي حقيقة جغرافية ترتبط بها حقائق أخرى سياسية واقتصادية بل جيولوجية أيضا.

فجبال القوقاز بمرتفعاتها الشاهقة وامتدادها في جنوب روسيا تسعمائة ميل ، من بحر قزوين إلى البحر الأسود، تمثل حاجزا طبيعيا أو جدارا مانعاً يعوق حركة الجيش الروسي عن الوصول إلى المناطق الشاسعة فيما وراء القوقاز وفي آسيا الوسطى كلها، ومن ثم فقد كانت جبال القوقاز ومقاومة شعوب القوقاز هما العقبة التي وقفت حائلا دون التوسع الإمبريالي لروسيا القيصرية لأكثر من قرنين.

حقائق تاريخية .. ومواجهات:

هناك بعض حقائق تاريخية لابد أن يعيها أي دارس لهذه المنطقة، تتصل بالفترة التي سبقت امتداد الحدود الروسية إلى القوقاز الشمالي من أهمها:

أن الإسلام هو الذي كان يحكم هذه المنطقة بما في ذلك روسيا نفسها.

لم يكن اسم روسيا – في الحقيقة – متداولا ولا معروفا عندما زحف المد الإسلامي عبر جبال القوقاز ليسيطر على مساحة كبيرة من أوروبا الشرقية مشتملة على إمارة "موسكوفيا"، وكانت إمارة صغيرة لا تزيد مساحتها عن 250 كيلو مترا مربعًا ، وظلت هذه الإمارة تابعة لحكام الأسرة المالكة المعروفة باسم القبيلة الذهبية الذين حكموا إمبراطورية إسلامية شاسعة من حدود الصين إلى شبه جزيرة القرم، حتى سنة 1480م.

في الوقت الذي كانت فيه الصراعات الداخلية بين خانات القبيلة الذهبية تضعف سيطرتها وتوهن قواها كانت موسكوفيا تتقوى وترقب الموقف لتبدأ توسعها في الوقت المناسب.

في عهد إيفان الرهيب ملك روسيا غزا غرب سيبيريا واستولى سنة 1552م على قازان في منطقة الفولجا ثم على إستراخان سنة 1556م. وكانت هذه أول المناطق الإسلامية التي سقطت في يد

روسيا القيصرية، ولكن تسمرت أقدامها أمام القوقاز الشمالي ثلاثة قرون.

في سنة 1604م قام القيصر "بوريس جودونوف" بهجوم كبير على داغستان لاحتلالها، ولكن انتهت حملته العسكرية بكارثة كبرى، فقد أبيد الجيش الموسكوفي على أيدي الداغستانيين، الذين دمروا القلاع الروسية على أنهار سولاك وسونجا وتريك، وأجبرت القوات الروسية الباقية على الانسحاب إلى إستراخان.

شهدت المنطقة صراعات محلية بين القيادات القوقازية أثارت شهوة روسيا للغزو من جديد، خصوصا بعد نجاحها في القضاء على إمارة القرم سنة 1783.

من سنة 1783 وشعوب القوقاز، أو الجبليون – كما عُرفوا في التاريخ الروسي – في حرب متصلة مع روسيا حتى اليوم.

من أعنف المواجهات وأشهرها في التاريخ، المقاومة الباسلة التي قادها الإمام "منصور أو شورمه" ضد القوات الروسية، حشد فيها الإمام منصور مجاهدين من الشيشان وداغستان وكوبان في معارك استمرت ثمانية أعوام من سنة 1783 إلى 1791م.

وكان أكبر انتصار حققه المسلمون في ذلك الوقت هو تدمير القوات الروسية على ضفاف نهر سونجا سنة 1785م، وكانت هذه أكبر هزيمة أصابت جيوش القيصرة كاترين الكبرى.

الإمام شامل:

استمرت المواجهات بين الروس والقوقازيين، ولكنها لم تكن انتصارات دائمة للقوقازيين، فقد استطاعت القوات الروسية أسْر الإمام منصور سنة 1791 حيث مات في سجنه بعد ذلك بعامين، و لم تصمد القيادات الإقطاعية الضعيفة المتنافسة بعده أمام تكتيك حرب الإبادة الذي اتبعه الجنرال الروسي "ألكسى بتروفيتش أرمولوف".

ثم أشرقت في القوقاز الشمالي صفحة أخرى من صفحات الجهاد الإسلامي البطولي بقيادة الإمام شامل استمرت خمسة وثلاثين عامًا (من 1824 إلى 1859م) خاضها فرسان من الصوفية المريدين ضد الجيش الإمبراطوري، الذي أمره القيصر نيقولا بغزو شمال القوقاز والسيطرة عليه مهما بلغت التضحيات ، وكان هذا الجيش آنذاك يعتبر من أقوى وأعتى الجيوش في العالم . وقد اختار القيصر نيقولا لقيادة الحملة القوقازية أفضل جنرالاته، ومع ذلك استطاع الإمام شامل بمجاهديه الشيشانيين والداغستانيين – وهم أقل عددا وعدّة – أن يوقع في صفوف الجيش الروسي هزائم مروعة وصمدت مقاومة المسلمين للغزو الروسي خمسة وثلاثين عاما ، وكان لهذه المقاومة أثر بالغ في بعث روح المقاومة وانتشار حركاتها في مناطق عدة خارج القوقاز.

وفي سنة 1859 تمكن الجيش الروسي من محاصرة الإمام شامل وقد انقطعت صلته ببقية جنوده فاضطر إلى الاستسلام، ومع ذلك ظل الشيشانيون يقاومون السيطرة الروسية بعناد شديد مما أهاج غضب القيصر الروسي فأمر بإبادة أربعمائة ألف من السكان العزّل من السلاح، فتسببت هذه الكارثة المروعة في ثورة داخلية أطاحت بعرش القيصر.

لعلنا نقترب الآن من الإجابة على السؤال الأول الذي طرحناه فيما سبق وهو: هل اقتنع الشعب الروسي بالصورة السلبية التي كانت حكومته تبثها في دعايتها الرسمية عن القوقازي الهمجي المتوحش .. أم كانت له رؤية مختلفة عن هذا القوقازي؟.

من هوالنبيل ومن الهمجى الوضيع ؟!:

الحقيقة التي لم تستطع الحكومة القيصرية أن تمحوها من التاريخ عن الشيشانيين وعن شعوب القوقاز الشمالي بصفة عامة، أن هذه الشعوب صمدت على مدى قرنين من الزمن أمام الغزوات الوحشية للجيوش الروسية الإمبريالية، واستهانت – في سبيل حريتها ودينها وكرامتها – بتضحيات يصعب على الخيال حصرها.

أثبتت هذه الشعوب أنها مستعصية على الاستعباد، كأنما كان قدر القوقازيين أو الجبليين (كما كان يسميهم الروس) إما أن يحيوا مسلمين مجاهدين أو أن يموتوا شهداء دون ذلك.

من هنا برزت الصورة الأخرى للقوقازي المدافع دائماً عن حريته بجسارة نادرة، المستعد دائما للشهادة والتضحية بنفسه، الفارس النبيل بالفطرة والطبع، ترسخت هذه الصورة في عقل المثقف الروسي ووقعت في وجدانه موقع الانبهار لتزيح أمامها الصورة التقليدية الرسمية للقوقازي المتوحش الهمجي.

كانت السلطة القيصرية في نظر المثقف الروسي سلطة جائرة مستبدة يساندها إقطاع بشع يفرض عبودية على الفلاح الروسي لا نظير لها في أي إقطاع آخر، ومن ثم كان نفور المثقف الروسي من المسلك العدواني للحكومة الروسية تجاه الشعوب القوقازية، وهو مسلك لا تبرره إلا الأطماع الإمبريالية، مجرد من أي دوافع حضارية كما تزعم.

وقد انعكس هذا في الأدب الرومانسي الذي أبرز الصورة المعاكسة للصورة الرسمية عن القوقازيين، حيث تبنى عنهم صورة الحرية والنبل الفطري، وهذا في حد ذاته انفصال واحتجاج عقلي على صورة القوقازي الهمجي المتوحش، واحتجاج ضمني على السلطة الإمبريالية الغاشمة والإقطاع الجائر.

يتجلّى هذا الموقف في القصة الشعرية الرائعة لأمير شعراء روسيا ألكسندر بوشكين (1799 – 1837) المسماة "أسـير القوقـاز"، فالصورة التي يجسّدها بوشكين في هذه القصة عن القوقازي الجبلـي تعتبر انقلابا ثوريا على الصورة الإمبريالية القبيحة له. كذلك رأينا أن قراء بوشكين يرفضون هذه الصورة الإمبريالية ويتوحّدون مع الرؤية الرومانسية التي يجسدها القوقازي الحر الثائر على العبودية والقيـود، الذي يقبل على الموت بروح بطولية، وهكذا ثبت في وجدان المثقفين الروس أن الجبل هو مهد الحرية، وأصبح الهرب من المجتمع المدني إلى الجبل – حيث المغامرة والنبل البدائي – حلما يراود الخيال.

وتتأكد صورة النبل البدائي في الأدب الروسي عند عملاق آخر هو تولستوى في روايته "قوزاق التّرِيكْ" ثم في روايته الأخرى "الحاج مراد" الذي يُعتقد أنه أنجزها بين عامي 1897 و 1904م، وفيهـا يهدم تولستوى أسطورة الانتصار القيصري في حرب القوقاز، وهـي رجعة أخّاذة إلى الخيط الرومانسي الذي يوثق عرى الاتصال الروحي بين الجبليين الأحرار البسطاء وبين الشعب الروسي المغلوب على أمره المتطلع أبدا إلى الحرية.

فرواية "الحاج مراد" تحكى قصة اعتداء إمبريالي دبرته بليلٍ نخبة روسية مستغربة وقاده القيصر نيقولا الأول. ويهاجم فيها تولستوى

بعنف شديد أسطورة المجد الوطني في القوقـــاز، ويســـتنكر الحـــرب الوحشية التي شنها الجيش القيصري على القوقـــازيين، ويؤكـــد أن الدافع إليها لم يكن سوى الشهوة إلى سفك الدماء، متسترة في دعاية مزيفة عن حرب دفاعية ضد الآسيويين البرابـــرة أعـــداء المســـيح، ووصف تولستوى جنرالات الجيش القيصري بأنهم "محطمو جمـــاجم الأطفال في القوقاز" في حين يزعمون أنهم ذهبوا إلى برابـــرة آســـيا يحملون رسالة التنوير.

لم يكن عجيبا إذن أن يهرب آلاف من الجنود الروس من الجيش الإمبراطوري إلى الجبال للالتحاق بقوات الإمام شـــامل، ويعتنقـــون الإسلام وينشئون أُسرا هناك.

ولكي يشوّه الجنرالات هذه الحقيقة أشاعوا فريـــة مؤداهـــا أن الإمام شامل كان يعد الهاربين من الجيش الروسي بالحرية وامـــتلاك أراضي في القوقاز. والحقيقة أن الجاذبية الآسرة للكتابات الرومانسية عن القوقاز، وفكرة الفرار إلى الحرية والنقاء بعيدا عن الحياة الكئيبـــة تحت وطأة النظام الإمبراطوري القمعي كانت هي الـــدافع الحقيقـــي وراء هرب الجنود الروس وغيرهم من عشاق المغامرة والبطولـــة إلى الجبال، وليست المنافع المادية كما يزعم الجنرالات.

وكان الأديب الروسي "ليرمونتوف" في صدر شبابه طالبا بالأكاديمية العسكرية في بطرسبورج (من سنة 1832 إلى 1834م)، وقد أشار في كتاباته إلى واقعة شاهدها بنفسه حيث قال:

"كان طلاب الأكاديمية يتحرقون شوقا إلى جبال القوقاز وحياتها الساحرة بعد أن اطّلعوا على ملحمة بوشكين "أسير القوقاز"، حتى أنهم كانوا يخفون القصة في طيات كتبهم الدراسية ليستمتعوا بقراءتها بين المحاضرات".

وعندما أعلن الجيش الروسي هزيمة القوقاز وأسر قائده الإمام شامل، أصيب الروس بصدمة عاطفية كبرى، وشعروا بخسارة روحية وانعطاف غامر نحو الأسير القوقازي الذي كان يمثل عندهم الحرية بلا حدود.

كان الروس يتابعون أخبار البطل الأسير في بطرسبورج بلهف شديد، فلما علموا بعزم الحكومة إخراجه من السجن وترحيله هو وزوجته شوانيت إلى منفاهما في منزل ببلدة "كالوجا" تجمع الناس أمام أبواب السجن ليلقوا عليه نظرة وداع أخيرة، فلما رأوه خارجا مكبلا بالأغلال تحت حراسة مشدّدة للقوات الروسية أخذوا يهتفون له: "وداعا يا شامل .. ابق معنا يا شامل .. قولوا له إننا نحبك حبا شديدا ، قولوا له إننا ندعو لك بإقامة طيبة يا شامل ..".

استغرق الروس في حلم الحرية الآسر الذي سقط رمزه الأكـــبر الإمام شامل بعد خمسة وثلاثين عاما من المقاومة ، لم يكن لـــديهم مساحة أخرى للتفكير في هذه الحقيقة: ماذا حقق الغـــزو الروســـي للقوقاز من الوعود الفضفاضة بالتحضّر والتقدم؟

شخص واحد سأل نفسه هذا السؤال هو الكاتـــب الروســـي "روسكو سلوفو" (سنة 1861) وأجاب على سؤاله فقال متحسّرا: "لم يحقق الغزو للقوقاز التعيس سوى تصـــدير الفودكـــا والقمـــار والأمراض الجنسية"..!!

كانت الحكومة الروسية في استطاعتها قتل الإمام شامل كمـــا فعلت مع آلاف القوقازيين قبله، ولكنها أمام العواطف الجياشة الـــتي أحاطه بها المواطنون الروس، أبقت عليه لتروّج عن نفســـها صـــورة الدولة التي تدع الجبلي الصالح يتألق، لا كرمز للثورة والحرية هـــذه المرة، ولكن كرمز لقوة روسيا القيصرية وسماحتها.

ولكنها شرعت على الفور تبث الصـــورة الســـلبية في الثقافـــة الروسية من خلال برامج التربية والتعليم، الصورة الكريهة للـــهمجي المعتدى المناهض لحضارة المسيحية. أبرز مثال على ذلـــك كتـــاب "رستوسلاف فاديف" بعنـــوان: ســـتون عامـــا مـــن الحـــرب في القوقاز..نشر سنة 1860م. ، تنعكس فيه الصورة الإمبريالية عـــن

القوقازي الهمجي الوضيع آكل لحوم البشر، الذي كان على روسيا اقتلاعه من جذوره.

ويردد الكولونيل "ديمترى رومانوفسكى" نفس النغمة في سلسلة محاضراته العامة بقاعة "باساج" في سان بطرسبورج خلال نفس الفترة: "انتصار روسيا المسيحية على المسلمين الأشرار".

محاولة ستالين إبادة الشيشانيين:

إنها نفس الصورة السلبية التي روجها ستالين عندما أقدم على جريمته الكبرى باستئصال الشعب الشيشاني من أرضه ونفيه إلى سيبيريا بتهمة مزيفة زعم فيها خيانة الشيشانيين وانحيازهم إلى العدو النازي أثناء الحرب العالمية الثانية.

في 23 فبراير 1944م اقتحمت القوات السوفييتية الأراضي الشيشانية وأمرت السكان بالرحيل. كانت قد أعدت لهم شاحنات النقل المخصصة لقطعان الماشية، فحشرت فيها ثمانمائة ألف شيشاني، بعضها اتجه إلى صحراء كازاخستان وأكثرها إلى سيبيريا.

استمرت الرحلة أياما طويلة بدون ماء ولا طعام ولا وسائل للنظافة، كتل بشرية متراصة في جو ثلجي عاصف، من يصرخ مستغيثا أو يبدي احتجاجا كان الحراس يطلقون عليه النار فوراً ثم يلقى به في عرض الطريق. الشيوخ والأطفال والمرضى الذين لم

يحتملوا عذاب الرحلة إلى الجحيم قضوا نحبهم قبل أن يصلوا إليـــه. ونتيجة لسياسة ستالين الإرهابية تم الإجهاز على أكثر مـــن نصـــف الشيشانيين، ومزق ستالين أراضـــي جمهوريتـــهم فوزعهـــا بـــين الجمهوريات المجاورة.

ولكن بعد موت اسْتالين تمت تبرئة الشيشانيين من تهمة الخيانـــة وسمح لمن بقى منهم على قيد الحياة بالعودة إلى وطنهم، ولذلك فـــإن الشيشانيين الحاليين يعتبرون أبناء وأحفاد الشيشانيين النـــاجين مـــن الكارثة، وبينهم قلة من الشيوخ الذين عاشوا الكارثة أطفالا لا تزال ذاكرتهم تحمل في أعماقها التفاصيل المروعة لرحلة الجحيم.

يلتسين وسياسته تجاه الشيشان:

لم تكد تمضى على هذه الكارثة خمسين عاما حتى جاء الـــرئيس الروسي يلتسين يعيد إلى الأذهان صورة الشيشاني الهمجي المتمـــرد على النظام والقانون، ويشن حملة عسكرية على الشعب الشيشاني في ديسمبر 1994 بحجة الحفاظ على الدستور والدفاع عـــن الســـيادة الروسية التي انتهكها الرئيس الشيشاني دوداييف بإعلانه الاستقلال، ولكن تنتهي الحملة بهزيمة مهينة للجيش الروسي في سنة 1996م.

ولذلك يعود يلتسين مرة أخرى بعد ثلاث سنوات وقد اســـتعد لحملة ثانية انتقاما من هزيمته السابقة، ويعلن رئيس وزرائه فلاديمـــير

بوتين تبريرا لهذه الحملة أن الجيش الروسي ذاهب لمحاربة الإرهـــابيين وقطاع الطرق واستئصال الأصوليين الإسلاميين وإعادة الأمن والنظام إلى الشيشان.

فهل يصدق عاقل أن تجرّد دولة كبرى جيشا من أقوى جيـــوش العالم بدأ بمائة ألف جندي ..ثم يتضخم عدده مـــع مـــرور الأيـــام لتحارب قطّاع طرق وعصابات إرهاب، تقول إحصاءاتها الرسمية أن عددهم ثلاثة آلاف إرهابي!؟

وهل المقصود حقا هو استئصال الإرهاب أم استئصال شـــعب عنيد يصر على حريته مهما كانت التضحيات؟

ذكرت فيما سبق أن الحرب الشيشانية المعاصرة ليست حربـــان ولكنها واحدة متصلة الحلقات، وأقول إنها لم تبـــدأ ســـنة 1994 ولكنها بدأت في الحقيقة سنة 1991 فور إعلان الرئيس دورايـــف استقلال بلاده وتمثلت هذه البداية في الحصار الاقتصادي الذي فرضته الحكومة الروسية على الشيشان، وتوقفت عن دفع معاشات كبـــار السن وعن الدعم المالي المقرر لها في الميزانية الفدرالية.

وعندما نجح ألكسندر ليبيد في إنجاز اتفاقية سلام مع الحكومـــة الشيشانية تعهدت الحكومة الروسية بإصلاح ما دمرتـــه الحـــرب في الشيشان حيث قدرت خسائرها بحوالي 34 مليار دولار.

ولكن الحكومة الروسية لم تنفذ تعهداها، و لم تــف بالتزاماهــا الأخرى التي نصّت عليها الاتفاقية، فقد اعتبرت هذه الاتفاقية مجــرد هدنة لالتقاط الأنفاس والإعداد لجولة أخرى من الحرب.

ولذلك بدلا من أن تساعد روسيا الحكومة الشيشانية في إعــادة الإعمار والسيطرة على الأوضاع المتردية بسبب الحرب والدمار، إذا بها تعمل على إشاعة مزيد من الفوضى والمعاناة: أولا بعدم تنفيذ بنود اتفاقية السلام التي وقعتها مع الحكومة الشيشانية، خصوصا ما يتعلق بالتعويضات والالتزامات المالية، وثانيا بالعمل السري داخل الأراضي الشيشانية، بغرض تحقيق أربعة أهداف أساسية:

خلق كارثة إنسانية واجتماعية هائلة تعجز الحكومة الشيشــانية — بإمكاناها الهزيلة— عن مواجهتها.

إظهار الحكومة الشيشانية بمظهر العاجز عن الحكم والســيطرة وعدم القدرة على إنقاذ شعبها من المعاناة.

العزل الدولي التام للحكومة الشيشانية حتى لا تتمكن من تطوير استقلالها بحكم الأمر الواقع الذي ينعكس في نصوص الاتفاقيــة إلى اعتراف دولي بالسيادة.

تشويه صورة الشعب الشيشاني أمام الجماهير الروســية وأمــام العالم الخارجي حتى لا ينهض أحد لمساندها في الجولة التاليــة مــن الحرب., وقد حدث.

آثار الحملة الروسية الأولى في الشيشان:

نحاول فيما يلي استعراض أبرز آثار الكارثة التي خلفتها الجولة الأولى (1994 – 1996م) من الحرب الشيشانية، وما تبع ذلك من عمليات سرية وحملات إعلامية ضد الشيشان وشعبها، هي في الحقيقة استمرار للحرب الروسية التي بدأها روسيا فور إعلان الشيشان استقلالها سنة 1991م.

أولاً: خسائر فادحة في الأنفس:

ففي الشيشان التي لا يزيد تعداد سكانها عن مليون وثلاثمائة ألف نسمة قتل الروس منهم أربعين ألف مدني، وفُقد ألفان من السكان، ألقت المخابرات الروسية القبض عليهم في بيوتهم وفي الشوارع ولم يعرف مصيرهم حتى هذه اللحظة.

وعلاوة على القتلى خلّفت الحرب 74 ألف مُعاق منهم 19 ألف طفل، فقد منهم ألفان حاسة الإبصار، وألف وخمسمائة فقدوا السمع والنطق، وفي الشيشان 12 ألف طفل يتيم فقدوا آباءهم، ومن الشيشانيين 35% دمرت منازلهم فأصبحوا بلا مأوى، و85% لا يجدون عملا، وبين كل عشرة أسر شيشانية هناك تسعة أسر لا تجد ما يكفى لطعامها اليومي، وبدأ الناس بالفعل يأكلون علف الماشية، فقد دمرت الحرب المصانع وقتلت معظم حيوانات المزارع.

ثانياً: تدمير البنية الأساسية للنظام التعليمي:

كان تدمير النظام التعليمي أول ما استهدفته القوات الروسية في الحرب، فقد دمرت الجامعة الشيشانية إلى جانب ثمانية معاهد فنية للدراسات العليا، وأربعة مدارس فنية متوسطة، وأربع مراكز للأبحاث، إلى جانب التدمير المتعمد لقاعات المحاضرات والأرشيف الوطني والمتحف الوطني.

ثالثا: كارثة بيئية وصحية:

دمرت القوات الروسية آبار البترول فتدفقت آلاف الأطنان المشتعلة منه في حرائق لوثت الهواء والتربة وأحدثت كارثة بيئية لا تقل عن كارثة الكويت في حرب الخليج الثانية.

وتدهورت الأوضاع الصحية للشعب الشيشاني خصوصا بين الفئات الضعيفة والأكثر فقرا من النساء والأطفال وكبار السن، نتيجة لسوء التغذية وتدنّي الخدمات الصحية وافتقاد النظافة والمرافق الصحية، والتلوث البيئي الذي أصاب المياه والهواء.

ولذلك ارتفعت نسبة الوفيات بين الأطفال (120 من كل ألف طفل يموتون)، وطبقا لأبحاث دولية أجريت وُجد أن كل ثاني طفل مولود يموت في شهره الأول، وأن الأطفال الشيشانيين يعانون من الأنيميا وفقدان سوائل الجسم، ويُولد كثرة من الأطفال مرضى

وضعاف البنية ومشوهين. وهناك قصـــور في الخـــدمات الصـــحية للحوامل والتوليد، فقد دمر الروس المستشفيات متعمدين، ولا توجد في المستشفيات الباقية سوى 6.6% مـــن الاحتياجـــات المطلوبـــة للأطفال.

وفي السنتين السابقتين للجولة الثانية من الحرب انخفض معـــدل المواليد مرتين ونصف مرة عن معدلاتها الطبيعية السابقة.

ويوجد نقص هائل في الأدوية والأدوات الطبية حتى أصـــبحت الحقنة الواحدة يتكرر استخدامها لمرضى آخرين.

وهناك يأس عام ورعب دفين يطل من عيون الأطفـــال الـــذين روعتهم أحداث الحرب واجتثتهم من بيوتهم وحيـــاتهم المســـتقرة ، وألقت بهم في الملاجئ، وأصبحت الكثرة الغالبة منـــهم لا يعرفـــون طريقهم إلى المدارس التي دمرها الروس.

النساء الشيشانيات مشكلاتهم الصحية أكثر حرجا خصوصـــا الحوامل منهن فقد دمرت المؤسسات التي كانت ترعاهن، وأول مـــا يعانين منه إصابات الجهاز الهضمي التي تـــؤدى إلى الوفـــاة بنســـبة 80%، هذا إلى جانب أمراض الكبد الفيروسية وسرطانات الـــدم، وقد وُجد أن امرأة من كل خمسة نساء حوامل تحتاج في الـــولادة إلى عملية قيصرية.

استشرى مرض الدرن الرئوي (السّل) بشكل وبائي، ولا يوجد مكان للعلاج، وإذا وُجد المكان فلا يوجد أطباء ولا أدوية كافية، فالمستشفيات كلها تقريبا محطمة، والتي لم يتم تحطيمها معطلة أو لا تعمل بكامل طاقتها، خصوصا بعد رحيل هيئة الصليب الأحمر الدولية على أثر مقتل ستة من موظفيها على يد عملاء المخابرات الروسية.

يقول الكاتب "ليوما أوثمانوف": "للولايات المتحدة موقف غريب فقد كان في إمكانها المساعدة في المجال الطبي وعلى الأخص مقاومة وباء الدرن الرئوي، فالشيشان في حاجة ماسة إلى أدوية وإلى أطباء وفنيين، وقد استوعبت الولايات المتحدة خمسة وثلاثين ألف طالب روسي يتلقون تعليما وإيواء كاملا بالمجان، ولكن ليس بينهم طالب واحد من الشيشان. هؤلاء الطلاب مبعوثون في إطار برنامج يسمى "المشاركة من أجل الحرية"، من شروطه التي يؤكدون عليها أن تمنح المساعدة لمن هو أكثر حاجة إلى التعليم، والسؤال هو "أليس الشيشانيون بأوضاعهم المأساوية التي تسببت روسيا في إحداثها هم أولى الناس بأن يكون لهم نصيب في هذا البرنامج!؟".

ويلفت الكاتب نظرنا إلى واقعة أخرى أشد غرابة يقول: "عندما تلقّت روسيا شحنة ضخمة من القمح والأغذية الأمريكية لم تكن

بحاجة حقيقية ملحّة لها، فقد كان محصول القمح الروسي في تلـــك السنة وافرا ، ولذلك قامت روسيا ببيع الفائض منه لدول أخـــرى، ولو كانت روسيا تعتبر الشيشان جزءًا من أراضـــيها كمـــا تـــزعم لقدّمت إلى شعبها الجائع شيئا منه، ولكن الشيشان تكون جـــزءًا لا يتجزأ من روسيا عندما تشن عليها روسيا حرب إبادة، وتصـــرخ في وجه العالم ألا يتدخل أحد لأنها قضية داخلية تمس السيادة الوطنيـــة لروسيا، وهذا منطق يكشف ببساطة حقيقة الموقف الروسي، فروسيا تريد عودة الشيشان إليها ولكن بدون الشعب الشيشاني".

وإذا لم يكن من الأمر بدٌّ فليكن شعبا من المرضـــى والعجـــزة والمتسولين ومن الجُهَّال والعاطلين، شعب من الأموات لا شعب حي يناضل من أجل حريته وعقيدته، ومن أجل حياة كريمة كمـــا كـــان شأنه دائما عبر القرون.

عمليات إرهاب مريبة وحملات تزييف إعلامي:

إلى جانب الكارثة التي أحدثتها روسيا في الشيشـــان بســـبب الحرب وتواصل العمل على تفاقمها شرعت – بعد الحملة العسكرية الأولى – تلعب لعبة قذرة جنّدت فيها سبعمائة عميل قوقازي مـــن العاطلين ومن رجال عصابات المافيا الروسية، للقيام بعمليات إرهابية واختطاف رهائن، دبرها أجهزة المخابرات الروسية ثم نسبها الإعلام

الروسي إلى الشيشانيين، والهدف من ذلك واضح: زعزعة الأمن والنظام في الشيشان، وتشويه صورة الحكومة الشيشانية والشعب الشيشاني في نظر الرأي العام الروسي والعالمي.

من أبرز هذه العمليات:

اختطاف "فريدكوني" وقتله: هذا الرجل الأمريكي جاء إلى الشيشان سنة 1995 ممثلا لمؤسسة سوروس الخيرية لإنشاء برنامج واسع النطاق للمساعدات الإنسانية في الشيشان، وهو رجل له خبرة في العمل الإنساني استمرت ربع قرن شاهد فيها ثلاثين حربا، قال في تصريح صحفي له معلقا على ما رآه من آثار الحرب الشيشانية:

"هذا أبشع مكان في العالم شاهدته في حياتي، فالحرب الشيشانية لا يمكن مقارنة بشاعتها بأي حرب أخرى من حيث التدمير الذي ألحقته بالمناطق السكنية"، كان في هذا اتهام غير مباشر لوحشية الحملة الروسية على الشيشان. وفجأة اختفى "فريدكوني" ولم تظهر جثته حتى الآن، ومن ثم أغلقت صفحة برنامج سوروس للمساعدات الإنسانية في الشيشان إلى الأبد.

كان للصليب الأحمر الدولي بعثة كبيرة في الشيشان أنقذت فيها مئات الجرحى من السكان المدنيين ومن المقاتلين الشيشانيين أثناء الحرب، ولذلك كان للصلب الأحمر منزلة رفيعة في نفوس الشيشانيين وقد استمرت البعثة في الشيشان بعد الحرب لتعويض القصور في

الخدمات الصحية التي دمرتها الحرب، ولكن حدث في سنة 1996م أن اقتحم مجهولون مساكن العاملين في البعثة تحت جنح الليل وقتلوا منهم ستة أفراد وهم نيام بطريقة بشعة، ومرة أخرى تسارع أجهزة الإعلام الروسية فتنسب الجريمة إلى العصابات الشيشانية من الأصوليين الإسلاميين، وتصفهم بأنهم مجرمون أغبياء لأنهم يقتلون الناس الذين جاءوا لمساعدتهم.

كان من نتيجة الحادثتين المذكورتين أن أحجمت منظمات دولية أخرى عن تقديم خدمات إنسانية كانت تعتزم تقديمها إلى الشعب الشيشاني المنكوب.

في 8 ديسمبر سنة 1998 أُكتشفت حادثة قتل مروعة راح ضحيتها ثلاثة بريطانيين ونيوزيلندي كانوا يعملون خبراء لشركة اتصالات بريطانية في تركيب شبكة تليفونات مستقلة، تستوعب ثلاثمائة ألف خط تليفوني في جمهورية الشيشان، وكان هذا أحد المشروعات الهامة التي عوّلت عليه الحكومة الشيشانية في ربط بلاد الجمهورية بعضها ببعض وتسهيل الاتصالات الخارجية بعد أن نسفت القوات الروسية الشبكة القديمة و لم تترك عمودا واحدًا من أعمدة التليفونات قائما في الأراضي الشيشانية.

اختفى الخبراء الأربعة يــوم 3 أكتــوبر 1998م ثم ظهــرت رءوسهم مقطوعة ومُلقاة بالقرب من قرية "أسنو فسكايا" على بعــد 25 ميلا غرب جروزني يوم 8 ديسمبر 1998م.

وزعمت أجهزة الإعلام الروسية أن القتلــة هــم إرهــابيون شيشانيون، وفسرت الحادث بأنه اختطاف رهائن من أجل الحصول على فدية من الحكومة الشيشانية، وأن هذه الحكومــة فشــلت في التفاوض مع الخاطفين أو عجزت عن استدراجهم والقبض علــيهم فقاموا بقتل الرهائن الأربعة.

ولكن حدث خطأ صغير من جانب المخابرات الروسية ألقــى بكثير من الشكوك حولها، سرّبت شريط فيديو إلى التلفاز يتحــدث فيه أحد الرهائن قائلا أن شبكة التليفونات التي كان يزمع إنشاؤها في الشيشان مصممة بحيث تسمح للمخابرات الأمريكيــة والبريطانيــة والألمانية والإسرائيلية بالتجسس من خلالها، وكان المقصود من إشاعة هذا الخبر إثارة سخط الرأي العام الروسي على الشيشانيين العمــلاء الذين يتعاونون مع أعداء روسيا.

وتساءل المحللون السياسيون: من له مصلحة في إشاعة خبر كهذا أكثر من السلطات الروسية؟، وإذا كان الخــاطفون هــدفهم هــو الحصول على المال فما الذي يهمهم إذا كانت الشبكة للتجســس أو لغيره؟ وما الذي يجعلهم حريصين على انتزاع معلومات كهذه مــن

الرهائن وإذاعتها؟، وإذا كانت حكاية التجسس حقيقة فهـــل مـــن المعقول أن تتطوع الشركة التي صممت الشبكة بإذاعة هذا السر إلى مهندسين كل مهمتهم كانت منحصرة في تنفيذ تصميمات جاهزة لا أكثر ولا أقل؟.

لذلك يرى هؤلاء المحللون أن الرهائن قد تعرضـــوا للتعـــذيب الشديد على يد المخابرات الروسية للإدلاء بتصريحات أُمليت عليهم. وقد ناشد الرئيس الشيشاني أصلان مشهدوف الحكومة البريطانيـــة لإرسال خبراء للتحقيق في هذا الحادث وألح في طلبه، ولكن يبدو أن الحكومة البريطانية كانت تعلم بحقيقة القتلة فلم ترد إحراج أصدقائها الروس واكتفى وزير الخارجية البريطاني بالقول: "إننـــا لا نريـــد أن نعرّض مزيدا من الأشخاص لمثل هذه المخاطر".

لو تأملنا في معظم حوادث الخطف والقتل لوجدنا أنها وقعـــت قريبا من مدينة (أوروس مارتان)، وهي مدينة معروفة بأنهـــا مركـــز المعارضة السياسية في الشيشان، المناوئة للحركة الإسلامية، ومعروف أن قيادات هذه المعارضة من الشيوعيين، ولذلك نجت هذه المدينة من الغزو ولم يتعرض لها الروس في الحملة العسكرية السابقة بالقصـــف والتدمير، ولم يتعرض سكانها للتشريد والترحيل كما فعل الروس في المدن الأخرى.

وفجأة – بعد انتهاء الحرب – تظهر بها عصابات إرهابية من الإسلاميين الأصوليين تخطف الأجانب وتقتلهم..! من الواضح أنه تزييف إعلامي خالٍ من الذكاء.

ولكن وقعت حادثة اختطاف معينة كشفت عن الوجه الحقيقي للمجرمين الذين يقومون بهذه العمليات، فقد تم اختطاف الفرنسي "فنسنت كوشيتل" وكان ممثلا لمدير هيئة الإغاثة بالأمم المتحدة، وكالعادة نسبت وسائل الإعلام الروسية عملية الاختطاف إلى الأصوليين الإسلاميين، ولكن المخابرات الفرنسية كانت تعلم حقيقة أخرى، ولذلك توجهت الحكومة الفرنسية إلى السلطات الروسية مباشرة ، وتدخل الرئيس الفرنسي شيراك بنفسه حتى أُطلق سراح الرجل بعد أن قضى 317 يوما في الأسر، وهكذا أصبح من الواضح أن عمليات القتل واختطاف الرهائن كانت عمليات روسية لا علاقة للشيشانيين بها، ومما يعزز هذا الاعتقاد حادث إجرامي وقع في نهاية صيف 1998م استهدف خبراء كانوا يشرفون على أول محطة خدمة للإنترنت في الشيشان، كانت الحكومة الشيشانية تستخدمها لتبادل الرسائل والمعلومات مع ممثليها في الخارج، فقام مجرمون مجهولون بقتل هؤلاء الخبراء، في هذه المرة لم يكن هناك رهائن ولا طلب فدية مالية ولا سرقة، وإنما قتل سياسي مقصود به نسف هذه الخدمة الحيوية التي كانت الحكومة الشيشانية في أمس الحاجة إليها، وبطبيعة

الحال لا يمكن أن يهتم المجرمون وقطاع الطرق بخبراء نظم المعلومات وتكنولوجيا المعلومات وهم لا يدركون طبيعة عملــهم ولا قيمتــه، فتلك أمور تقع في إطار اهتمام أجهزة المخابرات واختصاصها.

في كل هذه الوقائع لم تستند التهم التي وُجّهت إلى الشيشانيين على حقائق ولا أدلة ولا أي مناقشات منطقية، وإنما مجــرد هجــوم وسباب، فعلت هذا الصحف الروسية وتابعتها صحيفة بريطانية بهــا متعصبون ضد الإسلام والمسلمين هي الإندبندنت، ففــي عــددها الصادر بتاريخ 24 ديسمبر 1998م كتب الصحفي "ريفز": "كيف سقطت الشيشان التي صفق لها الغرب مرةً لروحها الاســتقلالية إلى هذا المستوى من الفوضى والبربرية؟".

ثم حاول تبرير العدوان الروسي على الشيشانيين بأنه كان نتيجة لسلوكهم وميولهم الإجرامية، وأن عــدم خضــوعهم واحتــرامهم للقانون له جذور عميقة في التاريخ وفي تكوين الشخصية، وبلغ بــه السفه أن زعم بأنها "مشكلة جينات في خلايا هؤلاء المسلمين".

يعود "مستر ريفز" إلى الاتهام التقليــدي الرسمــي للســلطات الروسية فيقول إن القوقاز كله دموي متوحش، وكان الأجدر به لو كان منصفا لتوجه بهذا الاتهام إلى الذين قاموا بالعدوان الغاشم علــى

الشيشان والشعب الشيشاني، وتسببوا في تـدمير بـلاده وتخريـب مؤسساته ووضع حكومته في موضع العاجز الذي لا حول لـه ولا قوة. لو كان مستر ريفز منصفا لاستمع إلى أصوات روسية حكيمـة عارفة ببواطن الأمور مثل أرملة "أنوريا زخاروف" التي صـرحت في لقاء إذاعي لراديو الحرية يوم 17 يوليه 1996م حيث قالت:

"إن الحرب الشيشانية جريمة تاريخية ارتكبتها روسيا ضد شعب بريئ".

لعل "إلينا بونر" كانت تقول هذا الكلام وهـي تستحضـر في ذاكرتها تقاليد الفروسية الشيشانية النبيلة، وتاريخ الروس العسـكري الشائن في حروب القوقاز، فقد كان من الوسائل التي اشتهرت عنهم خطف الرهائن المدنيين. وإن شئت فاقرأ كتابا نشر في بطروسبورج سنة 1995م بعنوان روسيا والقوقاز (ص 25) " Russia and Caucasus" يقول قائد روسي اسمه "أ. إرمولوف" موجّهاً كلامه إلى جنوده: "حذاري أن تخرجوا من أي معركة قبل أن تأسروا بعض الرهائن .. هؤلاء برابرة وإذا ظهر ضعفنا أمامهم تعنتـوا .. وبهـذه الرهائن نستطيع أن نملى شروطنا عليهم".

كلام "إلينا بونر" يؤكده برامج تلفازية في موسـكو فضـحت السلطات التي لا تزال تنتهج نفس الأساليب الإجراميـة، ففـي 17 نوفمبر 1998م ولمدة أسبوعين، أذاع التلفاز تحقيقات ومناقشـات

عن ترتيبات أمنية تجريها أجهزة سرية، وعن أوامر أصدرتها لعملائها بقتل وتصفية عدد من رجال الأعمال وشخصيات سياسية، وخطف أفراد، هذه الاعترافات لم تشر إلى الشيشان بصفة خاصة، ولكن إذا كان من هذه الأوامر قتل رجل مثل "بوريس بروزوفسكى" المسئول عن "الدول المستقلة حديثا" فهل تتعفف هذه الأجهزة عن عمليات خطف وقتل تقوم بها في الشيشان ضحاياها من الأجانب؟.

وزارة الداخلية تؤلف كتابا عن الشيشان:

الكتاب عنوانه "النظام الإجرامي: الشيشان من 1991 إلى 1995م" عندما تريد السلطات الأمنية في دولة ما أن تروج لدعاية ضد فئة من الناس، أو ضد فكرة معينة فإنها عادة ما توعز إلى أجهزتها لتستأجر لذلك مؤلفا أو حتى تختلق اسما لمؤلف غير موجود، لكن في حالة روسيا وقد أصبحت دولة مضطربة وأجهزتها مشوشة، عمدت وزارة داخليتها إلى تأليف هذا الكتاب ونشره بمعرفتها.

الفكرة الأساسية للكتاب تتركز حول تصوير الشيشان بأنها دولة عبيد، وأحد فصوله يحمل عنوان "عبيد القرن العشرين"، وهو محاولة للتأثير على القارئ بل حمله على الاعتقاد بانحطاط أخلاق الشيشانيين حيث يصفهم بالوحشية والصادية والتعصب والفاشية، بل

يتهمهم بأنهم مسئولون عن إدمان الشباب الروس علـــى الفودكـــا وإغرائهم على الإفراط فيها. الكتاب حافل بمثل هـــذه الاتهامـــات والسباب المقذعة دون تقديم أدلة أو وقائع تثبت هـــذه الاتهامـــات، وتتلخص رسالة الكتاب في آخر عبارة وردت به: "لقد نفـــد صـــبر الشعب الروسي.. فمن لهؤلاء المجرمين لكي يوقفهم عند حدودهم؟".

الرسالة واضحة وبسيطة إلى درجة السذاجة: اتهام شعب بأكمله بالإجرام .. ومن ثم وجب القضاء عليه، وفي هذا تهيئة للرأي العـــام الروسي للحرب القادمة ضد الشيشان.

يسوق الكتاب اتهاماته للشيشانيين من خـــلال مجموعـــة مـــن الحكايات المختلفة أجريت على ألسنة أشخاص بأسماء روسية اعتبرهم الكتاب شهود عيان، ولكن الذي يتمعّن في هذه الشهادات يفاجـــأ بأخطاء جغرافية وإثنية مثيرة للضحك، ويبدو أن المؤلفين الذين أسند إليهم تلفيق هذه القصص من الجهل وضحالة الثقافة إلى الدرجة التي يخلطون فيها بين القوقاز وآسيا الوســـطى. ولأن تزييـــف الحقـــائق واختلاق الوقائع كان هو الطابع العام للكتاب أصيب المثقفون الروس بخيبة أمل، ولذلك عزوا هذه الفضيحة إلى ضـــعف ميزانيـــة وزارة الداخلية التي لم تستطع استئجار مؤلفين أفضل يجيدون حبك القصص ولا يتورطون في هذه الأخطاء الفاحشة.

هذه الصورة الشائنة للشعب الشيشاني التي حاول كتاب وزارة الداخلية ترويجها يدعمها الإعلام الروسي المملوك للدولة، فمن نماذجه التلفازية: "الشيشانيون مصاصو دماء"، وفي الصحافة كتب ميخاييل بارسكوف في "أخبار موسكو" (20 يناير 1996م) يقول:

"الشيشاني قادر فقط على القتل، فإذا لم يستطع ذلك فإنه يسطو، فإذا لم يستطع السطو يسرق، وليس هناك نوع آخر من الشيشانيين خلاف ذلك".

استفزت هذه الصورة المزورة عقولاً روسية نظيفة مثل "فاليرى تشكوف" مدير معهد الدراسات الإثنية والسكانية بالأكاديمية الروسية للعلوم الذي وصف هذه المحاولات بأنها مجرد دعاية روسية لا أساس لها من الصحة، نشأت قبل الحرب واستمرت أثناءها، ولذلك نُشر له مقال في "نوفو فريما بتاريخ 15 إبريل 1995م" يقول فيه: "شكرا للصحافة لا في روسيا فحسب بل في خارجها أيضا فهي التي خلقت صورة "المافيا الشيشانية" وبفضل هذه الصورة الزائفة تراجع التعاطف الروسي والعالمي عن الشيشانيين في محنتهم، ولولا هذه الصورة لكانت المساندة العالمية للشيشانيين أقوى وأبرز". لقد استفز فاليرى تشكوف أكثر من هذا محاولة بعض أنصاف العلماء مثل "مادلين كارتيل" التي سقطت في أسر الدعاية الروسية وذهبت إلى

الكلام عن نظرية "مناطق الإجرام"، فرد عليها بالاستنكار قائلا: "إنني لا أوافق مطلقا على نظرية "مناطق الإجرام" هذه التي يراد فرضها على عقول الناس، فهذه محض خرافة، وذلك لأن مستوى الجرائم بين الشيشانيين في موسكو ليس أعلى من مستوى الجرائم بين الجورجيين أو الروس"، ويلوّح "فاليرى تشكوف" من بعيد بمافيا المال والتجارة بين الروس فيقول: "الشيشانيون ناجحون في علاقاتهم التجارية فهم ليسوا بحاجة إلى الجريمة لترويجها".

مجزرة قرية سامشكى:

للشيشانيين تقاليد راسخة في كرم الضيافة وعشق الحرية والمساواة، وروح الفروسية، مما تردد صداه في الأدب الروسي الكلاسيكي والكتابات الأخرى. وفي الحرب التي فرضتها الحكومة الروسية عليهم تصرفوا بشجاعة وكانوا أبطالا شرفاء، فلما انتهت الجولة السابقة من الحرب وأُبرمت اتفاقية سلام بينهم وبين القوات الروسية نفذوا بنودها بأمانة وشرف وأفرجوا عن جميع الأسرى الروس دون أن يمسوا أحدا منهم بسوء، أما الروس فكانوا أبعد ما يكونون عن الأمانة والشرف، فلم يعبأوا بتنفيذ الاتفاقية التي وقّعوها و لم يفوا بوعودهم وعهودهم، وكان لديهم ألفا سجين مدني قتلوهم بلا محاكمات ولا توجيه تهم إليهم.

وكان سلوكهم في الحرب سلوك قتلة وقطاع طرق لا سلوك محاربين، وفيما يلي نموذج واحد من مئات الجرائم التي ارتكبوها أثناء الحرب في حق المدنيين: فقد قامت القوات الروسية في 15 إبريل 1995م باقتحام قرية "سامشكى" الشيشانية وأوقعوا بالأهالي المسلمين مجزرة وحشية. يقول شهود العيان: "توجهنا إلى القرية بعد خروج الروس منها لنتحقق من خبر شاع في المنطقة بأن مجزرة ما حدثت في مدرسة أطفال القرية، فلما وصلنا إلى المدرسة هالنا منظر عشرات من جثث الأطفال ممزقة بالرصاص في أرجاء المدرسة، وكان هناك نساء من أمهات الأطفال وأقاربهم يحاولن جمع الأشلاء المبعثرة لدفنها، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى منزل أشار إليه الأهالي فدخلناه لنفاجأ .بمشهد مروّع لجثث أطفال مشنوقين بأسلاك كهرباء، معلقين في سقف المنزل، كانت عيونهم جاحظة ووجوههم متورمة. لقد هرب هؤلاء الأطفال من مجزرة المدرسة ولكن تتبعهم الجنود الروس إلى حيث عثروا عليهم مختبئين في ذلك المنزل فأمسكوا بهم وشنقوهم هناك، ولم يكتف الروس بقتل الأطفال فقط وإنما قاموا بإحراق ثلاثين جثة رأيناها مبعثرة حول المنزل المنحوس".

فماذا فعل الروس بعد المجزرة..؟ لقد أحاطوا القرية بسياج ومنعوا الدخول إليها لمدة ثلاثة أيام في محاولة لإخفاء معالم جريمتهم،

ولكن يبدو أنه لم يكن لديهم الوقت الكافي لطمس كل آثار المجــزرة فأشعلوا النار في جثث الأطفال قبل أن يرحلوا.

(أنظر في هذه الواقعة تقارير منظمة العفو الدوليــة في نــوفمبر 1995م)

وفي الجولة الثانية من الحرب التي بدأت في ســبتمبر 1999م- ارتكبت القوات المسلحة الروسية جرائم وحشية ضد المدنيين، عرفنا أطرافا منها وخفي عنا الكثير من حقائقها وتفاصيلها؛ وذلك بسبب التعتيم الإعلامي الذي فرضته السلطات الروسية بــالقوة والتهديــد بالقتل، فالصحفيون الروس كانوا ممنوعين مــن دخــول أراضــي الشيشان أو التحدث مع الشيشانيين، وقد صرح بعضهم أن تهديدات بالقتل وُجّهت إليهم من مصادر أمنية إذا تحايلوا على الــدخول إلى الشيشان أو نشروا أخبارًا أو صورا عن الحرب غير تلك التي تنشرها السلطات الرسمية في أجهزة إعلامهــا. وفي 30 ديســمبر 1999م أفرجت السلطات الروسية عن سبعة من الصحفيين الأجانب تمكنــوا من دخول الشيشان وأذاعوا أخباراً عن وجود مقابر جماعية ومجــازر وقعت في بلدة خان-يورت، فقبضت عليهم الســلطات الروســية وحجزتهم عدة أيام بحجة التحقيق معهم، لــدخولهم إلى الشيشــان بدون تصريح رسمي، وصادرت الأفلام التي كانت معهم ولكن تمكن بعضهم من تهريب بعض صور للقتلى وللمقابر الجماعية.

في الأوبزرفر البريطانية قصة المأساة التي تعيشها قرية سامشكى مرة ثانية في الحرب الحالية بعد مرور أربعة أعوام على مجزرتها السابقة، فقد قامت الصحفية "أميليا جنتلمان" بتحقيق تحت عنوان "أسرار الحرب الانتقامية: الرعب في الشيشان محجوب عن العالم" تحكى فيه قصة القرية من خلال مأساة حلت بأسرة فيها تقول: "مدينا عبد الرحمانوف" فتاة شيشانية كسر الروس ساقها في الحرب السابقة وفي هذه الحرب قطعوا ساقها وذراعيها جميعاً، إنها فتاة في الثانية والعشرين من عمرها مكثت المرة الأولى خمسة أشهر في المستشفى بعد هجوم إبريل 1995م، وهي ترقد الآن في المستشفى للمرة الثانية غارقة في أوجاع لا تحتمل، أجريت لها عدة عمليات جراحية ولكنها لم تنجح، وهي لا تدري كم من الوقت ستبقى في المستشفى.

والدة "مدينا" عمرها 42 سنة واسمها "خافا" كانت تعمل محاسبة في مصنع تعليب أغذية، تقول: كنت أجهز طعام العشاء في مطبخ مظلم بدون كهرباء ولا غاز عندما رأيت الطائرات الروسية تحلق فوق القرية الشهر الماضي، فأسرعت أنا وابنتي إلى مخبأ بأسفل البيت، هو غرفة صغيرة كنا نحفظ فيها محصول البطاطس، وكنا قد أعددناه لنأوي إليه أثناء الغارات في الحرب السابقة، و لم تزل الشموع

موجودة به، كانت أصوات الانفجارات تصم الآذان فكنــا لــذلك نجلس صامتين أثناء القصف، وبين الغارة والأخرى كنــا نتحــدث أحيانا ماذا سنفعل إذا نجونا من هذه الحرب وكيف سيكون الحال إذا قتلنا".

سامشكى التي كانت رمزا للدمار التي أحدثته القوات الروســية في الحرب الشيشانية الأولى، أصبح سكانها أشد رعبا مــن القصــف هذه المرة، ولذلك اتفقت إدارة القرية مع القوات الروسية أن تخلــى القرية من المتمردين في مقابل ضمان من القوات الروسية ألا تهــاجم القرية، تقول "خافا" كنا نعرف أنه ليس عندنا متمردين ولا مسلحين فيما عدا بعض صبيان كانوا يلبسون زى المقاتلين ويمشون في القرية، وقد اقتنعوا بالرحيل عن القرية والالتحاق بالمقــاتلين في جــروزني، وعلم الروس بالأمر، ومع ذلك قذفوا القرية بوابل من القنابل، هكذا قالت "إيمان أفديفيا" عندما تحدثنا إليها في عربة قطــار قديمــة هــي ملجأها في إنجوشيا بعد خروجها من القرية لتعيش فيها مع أطفالهــا الأربعة.

وتمضى "إميليا جنتلمان" في استكمال قصة سامشكى المنكوبة، فتكتب على لسان لاجئ آخر كان يعمل بالشرطة الشيشــانية هــو "وحيد دربيشيف": "حدث أعنف هجوم روسي علينــا يــوم 23

أكتوبر استمر لمدة ساعة ونصف متواصلة، كانت الصواريخ تمــزق سكون الليل في القرية وتتساقط علينا من كل ناحية، وفي الصــباح خرجنا إلى قائد القوة الروسية المرابط خارج القرية فقال لنا: "لقــد كان خطأً ووعد ألا يتكرر هذا الخطأ، وكان علينا أن نقبل الوعــد، فلم يكن في مقدورنا الخروج من القرية والرحيل إلى إنجوشــيا، لأن الطريق الذي كان مفتوحا لسفر اللاجئين أغلقه الروس بحجة أنهم لا يستطيعون التمييز بين الأهالي وبين الإرهابيين، وفي 25 أكتوبر عاد الروس لقصف القرية مرة أخرى. في هذا الهجوم ارتفع عدد الضحايا كثيرا وغضب الأهالي فذهبوا يشكون إلى إدارة القرية، فقيل لهــم لا حيلة لنا مع الروس إنهم يعدون ويخلفون"، استمر القصف بعد ذلــك لعدة أيام دون انقطاع والأهالي قابعون في المخابئ لم يجرؤ أحد على الخروج أثناء النهار، كانت المحلات التجارية مغلقة، ولم يذهب أحد إلى العمل فالمصانع أيضا كانت مغلقة.

وتمضي أميليا جنتلمان تستكمل قصة قرية سامشكى على ألسنة أهلها في المهجر:

"بعيدا في إنجوشيا التقيت بالطفل "رستم دربيشيف 12 ســنة" كانت أسرته قد أرسلته إلى إنجوشيا ليعيش في خيمة مع إخوته الثلاثة .. يقول: بدأ الروس يقصفون القرية ثم دخلوها وقتلوا ابنــة عمــتي وقتلوا جدي برصاصة في ظهره وكذبوا علينا عندما قالوا إنها كانت

حادثة، لقد بدأت أكره الروس من قلبي. ويعقب وحيد أب رستم يصف الهجوم الذي قتلت فيه ابنة أخته: بدأ الهجوم الساعة 8.15 مساءً يوم 26 أكتوبر واستمر طول الليل .. كل شئ في القرية كان يحترق .. لم نكن قد تمكّنا من إعادة قطيع الماشية من الحقول .. وكان الروس يقتلون كل شئ حي يتحرك على الأرض .. قتلوا البقر والكلاب والقطط لم يتركوا شيئا .. في تلك الليلة قُصف منزل أختي فأصيبت في رأسها وعمودها الفقري وقتلت ابنتها على الفور .. وفي الصباح أسرعت إلى منزل أختي فحملتها إلى المستشفى .. ولكني وجدت المستشفى مليئة بالجرحى .. رأيت الجحيم في المستشفى: أكوام من البشر بدون أذرع وبدون أرجل وأنين يفوق الاحتمال .. نصحني الطبيب أن نذهب إلى مستشفى أخرى، فأخذتها وذهبت وكانت الطائرات الروسية تحوم فوق رءوسنا، .. كانت أختي تهلوس ودرجة حرارتها مرتفعة وتقول في أنين: كانت ابنتي بجانبي طول الوقت فأين ذهبت .. أين ذهبت؟".

في ذلك الصباح أصيبت "مدينا" عندما خرجت من مخبئها تحضر بعض مياه للشرب، تقول أمها: "توقفت الغارة ذلك الصباح وظننا أن هذا كان نهاية الهجوم فخرجنا وعندئذ استأنف الروس غاراتهم من جديد وكان منزلنا أول منزل تصيبه القذائف .. استعنت بجار لنا حملنا في سيارته، وذهبنا نبحث عن مستشفى ولكن الطائرات كانت

تقصف طريقنا والسيارة تسير بسرعة كبيرة وظننا أن نهايتنا قد اقتربت".

يتذكر أهالي قرية سامشكى المتقدمون في العمر أنها كانت قرية جميلة آمنة ترقد في أحضان النهر وتمتلئ حقولها بأشجار التفاح، أما اللاجئون العائدون منها حديثا فإنهم يقولون إنها أبشع الأماكن وأكثرها خرابا. يقول أحدهم واسمه "حسبواللاطوف"، عمره 63 سنة، رحل منها الأسبوع الماضي: "الذين قرروا البقاء في القرية يلاقون أسوأ معاملة وأقسى اضطهاد من الجنود الروس، فهؤلاء الجنود لديهم تعليمات لتطهير القرية من سكانها.. إنهم يفتشون البيوت كل يوم ويقرأون كل ورقة فيه بحجة البحث عن أسلحة، ويقتحمون البيوت المهجورة فيسرقون كل ما فيها .. لا يتركون شيئا من الدقيق أو الأجهزة الكهربائية .. حتى لعب الأطفال".

سكان قرية سامشكى عشرة آلاف هرب نصفهم لاجئين، وأما الباقي فبعضهم من كبار السن أقعدهم العجز، والآخرون فضلوا البقاء في وطنهم مع خطر الموت على عذاب اللجوء والتشرد.

جروزنى .. مدينة الصمود والشهداء:

منذ أول أغسطس الماضي وبوتين يردد في تصريحاته أن حملة موسكو في شمال القوقاز ستكون سريعة وحاسمة وستنتهي في غضون

أسابيع، وقد مرت أربعة أشهر و لم تنتهي الحملة الشيشانية بعد. ويأتي الجنرال "أنا تولى كفاشنين" رئيس هيئة الأركـــان ليصـــرح في 22 نوفمبر 1999م بأن جروزني أصبحت محاصرة بنسبة 80% وأنهـــا ستسقط بدون معركة كبيرة، كان الروس يقدّرون أن إحكام الحصار على المدينة لمدة ثلاثة أسابيع مع القصف المكثف سوف يـــؤدى إلى الاستسلام بدون قتال، ولكن مرّت أكثر مـــن أربعـــة أســـابيع و لم تستسلم جروزنى، وعندما اقتحمت القوات الروسية وسط المدينـــة أعلن الرئيس أصلان مسعدوف أن القتال الحقيقي قـــد بـــدأ الآن. وبدأنا بالفعل نسمع عن قتلى وأسرى روس، تختلف الأرقام المعلنـــة بين الروس والشيشانيين، ولا يوجد مراقبون من الصحفيين الأجانب ليؤكدوا لنا الحقيقة فقد أبعد الروس جميع الصحفيين عن الشيشـــان كلها، ولكن أعلن الشيشانيون يوم 2 يناير 2000م أنهم اســـتعادوا ثلاثة قرى في جنوب جروزنى من القوات الروسية، واضطرت روسيا في اليوم التالي للاعتراف بهذه الواقعة كما اعترفـــت بـــأن القـــوات المسلحة تواجه مقاومة عنيفة من المقاتلين الشيشانيين.

في الجولة السابقة من الحرب (94 – 1996م) كـــان وزيـــر الدفاع الروسي السابق "بافيل جراشيف" يتباهى بأن الشيشان يمكن أن تستسلم في ساعتين اثنتين من القصف الجوي المركـــز، ولكـــن الحرب استمرت عامين وانتهت بكارثة عســـكرية وهزيمـــة مهينـــة

لروسيا، وسقط الثلاثة الكبار الذين خططوا لهذه لحملة وأداروهـــا، سقط وزير الدفاع، وسقط وزير القوميات "نيقـــولاى إيجـــوروف" ومدير المخابرات الفدرالية "سيرجى ستيباشين".

فهل يتكرر نفس الســـيناريو في الحملـــة الجاريـــة الآن علـــى الشيشان؟ [سألت هذا السؤال في مقال كتبته أثناء المعارك الدائرة في جروزنى آنذاك وكانت إجابتي الفورية هي:

ا"لإجابة على هذا السؤال سابقة لأوانها، فإن هنـــاك مـــتغيرات كثيرة جدّت على الساحة خلال الأعوام الثلاثة الماضية لعل من أهمها أن الشيشان يُفرض عليها الحرب الآن وهي في أضعف أحوالها: آثار التدمير المروع متفاقمة، ومجتمع يعاني من الفوضى الإدارية والأمنيـــة التي زرعتها المخابرات الروسية في أرض الشيشان، وعزلة سياســـية وإعلامية طوقت بها روسيا الحكومة الشيشانية والشعب الشيشاني.

ومن ناحية أخرى تبدو القوات المسلحة الروســـية في أفضـــل أحوالها من حيث التخطيط والتدريب والاستعداد لحـــرب طويلـــة المدى.

والجنرالات الذين عادوا إلى الحرب الشيشانية تعلمـــوا دروس كثيرة من أخطائهم في الحملة السابقة، يعودون للانتقام والثأر والرغبة العارمة في تحقيق نصر كاسح على الشعب الشيشاني المتمرد.

على رأس هؤلاء "أناتولى كفاشنين" رئيس هيئة الأركـــان (53 سنة، جنرال 4 نجوم)، تحمّل النقد العنيف بسبب فشـــله في الحملـــة الأولى، وهو الآن متعطش للثأر، إنه مسئول عن تنسيق الإستراتيجية في موسكو ويطمع في منصب وزير الدفاع، أكـــد ليلتســـين أنـــه سيستقيل إذا أوقف الحرب لصالح الحل الدبلوماسي، وحـــذره بأنـــه "لابد في هذه المرة من استئصال الداء من جذوره قبل أن تستشـــري العدوى في كل مكان".

"وفيكتور كازانتسيف" قائد قوات منطقة شمال القوقـــاز (54 سنة، كولونيل جنرال)، رغم أنه لم يشترك في الحرب السابقة، ولكن أصيب فيها ابنه بجرح بليغ، ربما يفسر عنفه وحدته، إنه يجيد الوقوف أمام الكاميرات والحديث إلى التلفاز، وكثيرا ما صرح قـــائلا: لقـــد تعلمنا من الشيشانيين أشياء وجاء دورنا لنعلمهم الكثير.

"وفلاديمير شمانوف" قائد الجبهة الغربية (42 ســـنة، جنـــرال بنجمة واحدة)، كان من قادة الحرب السابقة، وعندما قيل له كـــن رحيما بالنساء البريئات، قال ساخرًا: عن أي نساء بريئات تتحدثون .. ليس في الشيشان إلا مجرمون، إنه من أشـــرس الشخصـــيات في الجيش الروسي، ويكره الشيشانيين كراهية عمياء.

و"جينادى تروشيف" قائد الجبهة الشرقية (52 سنة، جنـــرال بنجمتين)، من قادة الحرب السابقة، كان معتادا على التفاوض مـــع

الأهالي لإقناع المتمردين بالخروج من بلدة ما فإذا خرجـوا دكهـا بالمدافع كنوع من العقوبات الجماعية، فهو رجل لا يرحم ولا يرعى شرف الكلمة.

هذه هي نوعية القيادات العسكرية التي تشن الحرب حاليا على الشيشان، تتملكهم رغبة عارمة في الانتقام، ولديهم صلاحيات بـلا حدود، وإمكانات عسكرية هائلة موروثة من الاتحـاد السـوفييتي، وذخيرة لا ينضب معينها، يتباهون بسيطرتهم على الإعـلام وعلـى الكريملين نفسه، وهم – لذلك – مستعدون لأن يذهبوا في جرائمهم ضد الشعب الشيشاني إلى أبعد مدى يمكن أن يصل إليه الخيال، حتى لا تقوم لهذا الشعب قائمة بعد اليوم."

فلاديمير بوتين والسفينة الغارقة:

مهندس هذه الحرب هو "فلاديمير بوتين": وهـو الـذي أقنـع يلتسين بجدوى تدعيم القوات المسلحة بالإنفاق السخي لشن حملـة جديدة على الشيشان تتآزر فيها عمليات التخطيط المحكم بجوانبـها العسكرية والسياسية والإعلامية، بذلك يكون نجاحهـا مضـمونا، وتخرج روسيا منها دولة قوية منتصرة، قادرة على قمع التمرد في أي مكان، ويستعيد يلتسين وأنصاره المصداقية في نظر الشعب الروسي، وتكسب روسيا المهابة في الخارج.

وقد نجح بوتين في تسويق فكرته أيضا لدى جنرالات الجيش الروسي الذين يتعطشون للثأر وإنقاذ سمعتهم المتردية، ومن ثم استطاع بوتين أن يقدم نفسه للجميع باعتباره رجل الإنقاذ الذي وصل في موعده المناسب لانتشال سفينة أوشكت على الغرق.

ليس مستغربا – بعد ذلك – أن تتعلق أحلام بوتين بجائزته الخاصة، أن يرتقى مقعد الرئاسة في الكريملين بعد انتهاء مدة يلتسين، فنجاح الحملة الشيشانية سيجعل منه المرشح الأقوى الذي يحجب الآخرين عن هذا المنصب في الانتخابات القادمة، وهي مخاطرة جديرة بالمحاولة، فبوتين – حتى لو فشلت الحملة الشيشانية – لن يخسر شيئا، لأنه جاء إلى الكريملين بدون تاريخ سياسي يخشى على ضياعه، فقد كان رجل مخابرات مغمور ثم قفز فجأة من الكواليس إلى خشبة المسرح السياسي ليلعب دور البطولة ؛ أولا كرئيس لوزراء روسيا، ثم تلى ذلك الخطوة الثانية، فعلى مدى ثلاثة أشهر السابقة على انتخابات مجلس الدوما كانت أجهزة الإعلام الروسية تضخ في عقول الجماهير صباح مساء أخبار وصور انتصارات متوالية في الشيشان على الإرهاب الإسلامي وقُطاع الطرق أعداء القومية الروسية، بينما يرتفع نجم بوتين القوى، مما انعكس في نتائج الانتخابات التي جاءت بمزيد من الأنصار في الدوما.

ثم جاءت الخطوة الثالثة في نفس الاتجاه (أعني تعزيز مركز بوتين) فقد فاجأ يلتسين العالم في آخر يوم بالألفية الثانية باستقالته وتنصيب خليفته بوتين قائما بعمل رئيس الدولة. وجاءت استقالة يلتسين في أفضل وقت بالنسبة لنفسه وبالنسبة لخليفته بوتين.

بالنسبة ليلتسين: تخلى عن السلطة وجيشه في أوج انتصاراته، بينما لا يزال هو يردد تحذيراته للغرب بعدم التدخل في الحرب الشيشانية، كما يردد تهديده للرئيس كلينتون بألا يستهين بروسيا فهي دولة عظمى ولا تزال تملك ترسانتها النووية، ونسى الناس فضائح الفساد وسرقة الأموال ونسوا صورة الرئيس المعتل الصحة المدمن على الشراب، الذي يفقد توازنه وهو أمام عدسات التلفاز، أما هو فلم ينس – قبل أن يرحل عن الكريملين – أن يستصدر قرارا رئاسيا من خليفته يمنحه الحصانة اللازمة لمنع ملاحقته أو تقديمه للمحاكمة بتهمة الفساد، ويشمل أيضا كل أفراد أسرة يلتسين، ويضمن عدم تفتيش منازلهم وسياراتهم ومكاتبهم وعدم التجسس على هواتفهم.

أما بالنسبة لبوتين: فقد قصّرت استقالة يلتسين عليه المدة التي كان عليه أن ينتظرها من ستة أشهر إلى ثلاثة أشهر فقط ، حسب ما يقضى به الدستور في حالة استقالة رئيس الدولة، ووفّرت عليه الجهد

والمخاطر المتعلقة بالحرب الشيشانية إلى النصف. ذلك لأنه كان على بوتين – لكي يضمن نجاحا مؤكدا في انتخابات الرئاسة – أن يمطّ في أمد الحرب الشيشانية ، وفي نفس الوقت يحافظ على مستوى إنجازاته العسكرية فيها لمدة ستة أشهر كاملة، قد لا تخلو من مفاجآت غير سارة ربما تقلب حساب التوقعات رأسا على عقب، ولكن باستقالة يلتسين تخفف بوتين من نصف الجهد ونصف المخاطر، فإذا نجح واستقر في مقعد الرئاسة بالكريملين لا بأس عليه أن يوقف الحرب ويبحث عن حلول دبلوماسية وهو ما يزال في موقع القوة ، وبذلك تكون الحرب الشيشانية قد استهلكت أغراضها ووصلت إلى غايتها.

والخلاصة أنه حتى يحين موعد انتخابات الرئاسة في 26 مارس سنة 2000 توجد أمام بوتين ثلاثة أشهر حرجة، أما بالنسبة للشيشان وشعبها فهي ثلاثة أشهر من الجحيم المستعر والدمار الشامل الذي لا يعلم مداه إلا الله.

حرب إبادة:

لقد انطلقت الآلة العسكرية الروسية بدون رادع ولا قيد، ولا حدود لما يمكن أن ترتكبه في الشيشان من جرائم وحماقات، بدأت تتكشف بعض ملامحها في تطورات بعينها وفي تصريحات القادة العسكريين، فعندما سؤل الجنرال "فكتور كوزانتسيف" قائد القوات

الروسية في الشيشان عما إذا كانت قواته ستقتحم العاصمة لتستولي عليها فقال بالحرف الواحد:

"سيتم الاستيلاء على جروزني بعملية خاصة انتـــهت القيـــادة العسكرية من وضع خطتها". و لم يشأ الجنرال كوزانتسيف أن يفصح عن حقيقة هذه الخطة أو يعلق بشئ من التفاصيل.

فإذا أخذنا هذا التصريح مأخذ الجد و لم نعتبره مجرد تهرب مـــن السؤال الأصلي علينا أن نحاول فحص بعض الحقائق والمؤشرات ذات الدلالة:

أولاً: اعتمدت القوات الروسية في حملتها الشيشانية الحالية منذ البداية على القصف الجوي والمدفعي المركز والعشوائي الذي تعلمتـــه موسكو من الولايات المتحدة والناتو في كوسوفا وفي حرب الخلـــيج الثانية، كذلك استفادت القوات الروســـية بالتكتيـــك العســـكري لسلوبودان ميلوسفيتش الذي دمر به يوغسلافيا والبوسنة على وجـــه الخصوص.

يعلق على ذلك الجنرال أندريا نيقولاييف ردًّا على سؤال إيـــان ترAينر (الجارديان 23 نوفمبر 1999م) فيقول: "إن هذا ليس جُبنا، إنما هو نوع جديد من الحرب .. حرب المستقبل.. حـــرب بـــدون خسائر ..".

تقوم روسيا بقصف القرى والمدن الشيشانية قصفا عشوائيا بلا حساب، كل ضحاياه من المدنيين، بحجة إيوائهم لحفنة من المجاهدين (أو الإرهابيين)، كنوع من العقاب الجماعي الذي أتقنه ميلوسفيتش وسبقته به إسرائيل.

هكذا يفعل الروس في الشيشان قصف جوى ومدفعي من بعيد مع تكتيك الحصار والتجويع والتهجير القصري، وإطلاق النار على قوافل المهجّرين من وقت لآخر لإشاعة جو من الرعب ليلوذ الجميع بالفرار، بعد ذلك تتقدم القوات ميلا بميل نحو جروزني، فلا يتدخل المشاة إلا للكنس خلف الآلة الحربية. وهذه أول مرة يحارب فيها الروس بهذا التكتيك، ففي الحملة السابقة هاجموا جروزني بقوات كبيرة اقتحمت المدينة فأصيبت بخسائر فادحة في الأرواح ومنيت بالهزيمة، لذلك لا يكررون نفس الخطأ في هذه الحملة.

ثانياً: يوجد في جروزني أربعون ألفا من السكان المدنيين تعتبرهم القوات الروسية رهائن تحت التهديد المستمر لكسر إرادة المقاتلين الشيشانيين، تركوا منازلهم المهدمة ليعيشوا في أقبية تحت الأرض بدون مياه ولا كهرباء ولا غاز، والطعام لديهم شحيح.

وعندما بدأت القوات الروسية تحكم حصارها على جروزني في 14 ديسمبر 1999م ثار الرأي العام الغربي مطالبا بفتح طريق آمن لخروج المدنيين، فتظاهرت موسكو بالاستجابة ومنحت سكان

جروزني مهلة 48 ساعة لإخلاء المدينة ، فلما شـــرع الســـكان في الهجرة أمطرهم الجنود الروس بطلقات نارية فعادوا من حيث أتـــوا. الممر الآمن كان إيهاما وخدعة فحسب، وكفى موسكو أنها أعلنت وحذّرت في وسائل إعلامها لكي يكـــف الآخـــرون عـــن النقـــد والصراخ، لقد أدت واجبها واحتفظت برهائنـــها وفقـــا لخطتـــها الأصلية، هؤلاء هم ضحايا القصف العشوائي اليومي على جروزني.

ثالثاً: مع مواصلة القصف العشوائي للمدينة وتكثيفـــه، ومـــع تطويق المدينة من جميع جهاتها وإغلاق كل الطرق التي تربطها بالعالم الخارجي، بدأت القوات الروسية تطلق عليها قذائف غـــير تقليديـــة كبالونات اختبار للرأى العام العالمي ، ومراقبة تأثير هـــذه القـــذائف على المقاتلين الشيشانيين: ففـــي 30 ديســـمبر الماضـــي أســـقطت الطائرات على جروزني قنبلة انشطارية ضخمة زنة خمسمائة كيلـــو جرام من المتفجرات، ورأينا في اليوم التالي صـــورًا للضـــحايا مـــن الأطفال المصابين تسربت إلى وسائل الإعلام الخـــارجي، وفي ذلـــك اليوم (31 ديسمبر) أسقطت الطائرات الروسية قنابل نابالم المحرمـــة دوليًّا، وقبل ذلك بأسبوعين أسقطت قنبلة غاز سام صغيرة قتلت على الفور ستة وعشرين شخصا، شاهدها الناس تسقط من طائرة روسية، ولكن القوات الروسية أنكرت ذلك، وزعمت أنها من عمل المقاتلين الشيشانيين بشعبهم لكسب تعاطف العالم الخارجي.

وعندما احتدم القتال حول جروزني وتكبدت القوات الروسية خسائر كبيرة واستطاع الفدائيون المسلمون أسر عدد من الجنود الروس، وصف الجنرال شمانوف المقاومة بأنها "مقاومة ضارية"، وصعّدت القوات الروسية قصفها باستخدام الأسلحة ذات الدمار الشامل، في هذه المرة قنابل كيماوية، هنالك طالب الرئيس الشيشاني أصلان مشهدوف بوقف القتال لمدة ثلاثة أيام بمناسبة عيد الفطر المبارك وحضور لجنة دولية محايدة للتحقيق في أمر القنابل الكيماوية التي تنكر موسكو استخدامها، ولكن موسكو لم تعن حتى بالرد عليه.

الترسانة العسكرية الروسية بها أنواع لا حصر لها من هذه الأسلحة غير التقليدية ذات الدمار الشامل، لديها مخزون هائل ورثته من الاتحاد السوفييتي، وروسيا الآن تجرّبه على الشعب الشيشاني المسلم بحجة القضاء على الإرهابيين المتمردين.

واستخدام هذه الأسلحة على نطاق محدود — حتى الآن — ليس إلا مؤشرا على المدى الذي يمكن أن تذهب إليه روسيا في حربها ضد الشيشان، ومؤشرا على الأبعاد الكارثية التي يمكن أن تلحق بالشعب الشيشاني إذا أصر مقاتلوه على مواصلة المقاومة و لم يستسلموا.

ولأن العالم الغربي غير معنيّ بهذه القضية، وإنما يعنيــه فقــط أن يرى خليفة صديقهم بوتين مستمرا في الكريملين، وأن يرى الشيوعيين في روسيا لا يتحكمون في الدوما، ولأن العالم المسلم في حالة غياب عن الوعي (إن لم يكن في حالة احتضار)، فإن التصعيد العســكري الروسي في مجال الأسلحة ذات الدمار الشامل سيكون له أخطر الآثار في الحرب الشيشانية.

يجب ألا ننسى أن القصف العشوائي بالقذائف التقليدية في حد ذاته كان له نتائج مروعة على المدنيين في جروزني، فغــارات يــوم واحد (هو يوم 27 نوفمبر الماضي) تسببت في مقتل خمسمائة إنسان، ومسلسل القصف الجوى والمدفعي مستمر على مدار ساعات الليــل والنهار.

رابعاً: كلما اشتدت المقاومة الشيشانية كلما صــعدت الآلــة الروسية الإعلامية حربها النفسية ضد المقاتلين، في محاولــة لتمزيــق صفوفهم بزرع الشكوك فيما بينهم؛ من نماذج هذه الحرب النفسية: جاءت السلطات الروسية بعميل شيشاني هو "مالك ســيداللاييف"، رجل أعمال ورئيس ما يسمى بــ "مجلس دولة الشيشان"، وموعود بأن يكون الرئيس الشيشاني الذي ســتعينه روســيا بعــد أصــلان مشهدوف الرئيس الحالي المنتخب، جيء بالرجل في 4 يناير ســنة 2000 ليعلن في موسكو أن هناك أربعة آلاف مقاتل من المتمــردين

يقودهم سبعة وعشرون ضابطا يرغبون في تسليم أنفسهم وأسلحتهم إلى السلطات الروسية إذا ضمنت سلامتهم الشخصية.

لو كان هذا الخبر صحيحا لانْتهت المقاومة الشيشانية، فـــالرقم التقديري للجيش الروسي حصر المقاومة في ثلاثـــة إلى أربعـــة آلاف متمرد فقط، وأصر على إشاعة هذا الرقم في كل تصريحاته الرسميـــة، والمحللون السياسيون مدركون أن الجيش كان يكذب مـــن البدايـــة ولابد أن يستمر هو وعملاؤه في الكذب، لذلك عنـــدما اصـــطدم بمقاومة عنيدة في الأسبوع الأول من يناير هذا العام وكثر عدد القتلى والأسرى الروس زعم المتحدث الرسمي في موسكو بأن أعداداً كبيرة من المقاتلين الشيشانيين يخترقون الحصار الروسي في المنطقة الجنوبيـــة ليلحقوا بالمقاومة في جروزني، ونسى أنه أعلن منذ أسبوع واحـــد أن جروزني مطوقة من كل ناحية وأنه حصار محكم لا يمكن اختراقه!.

نموذج آخر من هذه الحرب النفسية: إعلان موسكو قبل اقتحام جروزني مباشرة عن تأليف قوة من الشيشانيين، قالت إن عـــددهم ألف وخمسمائة شخص، دربتهم القوات المسلحة الفدراليـــة لكـــي يتقدموها في عملية الاقتحام، أما قائد هذه الوحدة فهـــو شيشـــاني أخرجه بوتين من السجن اسمه "بيسلان جنتا ميروف" وقيل إنه كان عمدة لجروزني في وقت من الأوقات، وأنه كان يقضى مدة عقوبـــة على جريمة نصب واحتيال ولكن بوتين أصدر أمرا بالعفو عنه.

في نظر المواطن الروسي لا يهم أن يستعين جيشه بمجرمين لأنهم سيقاتلون مجرمون مثلهم، فهذه صورة الشيشاني المقبولة في الإعـــلام الروسي، المهم أن هناك شيشانيون يحاربون في صـــفوف القـــوات الروسية ضد الإرهاب الإسلامي. لكن بعد أن احتدم القتال ذابـــت عصابة "جنتا ميروف" في جروزني فلم يعد أحد يسمع أخبارها.

وأهم من ذلك أن فِرْيَةَ موسكو لم تعد تقنع أحدا بأن روســـيا تحارب في الشيشان فئة متمردة محدودة العدد مـــن الإرهـــابيين، وأن الشعب الشيشاني يؤيديها ويقف إلى جانبها في حملتها التحريرية ضد الإرهابيين، فقد أصبح واضحا للجميع أن روسيا تشن حرب إبـــادة على الشعب الشيشاني كله وتدمر بلاده وتحرق أرضه.

في نهاية الأسبوع الأول من شهر يناير سنة 2000م سمعنا عـــن قتال عنيف ومقاومة ضارية تأخذ مجراها في المنطقة الجنوبية خـــارج جروزني، وهي منطقة كانت القوات الروسية قد أعلنت قبل أعيـــاد الميلاد أنها استولت عليها وأحكمت حصارها لجروزني.

في هذه المنطقة الجبلية تقع أربع قـــرى هـــي: خـــان يـــورت وخراشوى وفيدينو وتشيشكى، وهي مواقع بالغة الأهميـــة لضـــمان اتصال المجاهدين بمصادر الإمدادات خارج جروزني.

عرفنا خبر استعادتها للقوات الشيشان عن طريق تصريح للرئيس أصلان مشهدوف ثم اضطرت القوات الروسية للاعتـــراف بـــذلك،

كما اعترفت بخسائر من القتلى والجرحى الروس، ولكنها كالعـــادة قلّلت من هذه الخسائر، وصرح المتحدث الرسمـــي باســـم القـــوات المسلحة أن المقاتلين الشيشانيين قد تمكنوا من اختراق الطوق الجنوبي لحصار جوزنى وأن المقاومة الشيشانية – حســـب وصـــفه هـــو – ضارية، ولكنه لابد أن يضيف إلى ذلك فرية، فقد زعم أن المقـــاتلين يستخدمون دروعا بشرية من المدنيين الشيشانيين، وهو كلام إعلامي لازم لتشويه صورة المقاومة الشيشانية؛ داء قديم مازال يكشف عـــن نفسه في قلب السلطة الروسية.

لقد بدأت في كتابة هذا الفصل في آخر شهر بالألفية الثانيـــة ، وها نحن في الألفية الثالثة: شهر جديد وعام جديد وقرن جديد وألفية جديدة وأشياء كثيرة تغيّرت في هذا العالم، إلا العقليـــة الإمبرياليـــة الروسية لم تتغير منذ القيصر إيفان الرهيب إلى القيصر بوتين .. على الأقل في مسألتين: قهر القوقاز وقمع الإسلام فيه، ولكن لم يـــنجح القياصرة، ولا ديناصورات الاتحاد السوفييتي فهل ينجح قزم من الـــ "كي. جي. بي"!؟.

سأدع الإجابة على هذا السؤال لتفصـــح عنـــه الأحـــداث في السنوات القادمة ..

أكتب هذه السطور وأنا أشاهد الآن على شاشة التلفاز البريطاني لقطتين من أرض المعركة تلخص كل شئ في لمحات خاطفة:

مجاهد شيشاني مع مجموعة صغيرة من زملائه في فترة راحتهم يجيب على سؤال لصحفي: هل تخاف وأنت تواجه الآلة العسكرية الروسية..؟ فأجاب ببساطة وهو يبتسم: هناك مثل شيشاني قديم يقول: "من يأت إلينا حاملًا سيفه نقتله به".

أما اللقطة الثانية فهي لجندي روسي يرقد جريحًا على فراشه في المستشفى، سأله الصحفي ماذا رأيت في المقاتلين الشيشانيين عندما اشتبكت معهم..؟ فأجاب: "إنهم يبدون مهارة فائقة في القتال ولا يمكن لأحد إلا أن يغبطهم ويحترمهم" (مساء 6 يناير 2000).

في اليوم التالي (7 يناير 2000) أذيع هذا الخبر من نفس القناة:

"إقالة اثنين من الجنرالات الروس المسئولين عن قيادة الحرب في الشيشان".

فهل لهذا الخبر من دلالة معينة على تطورات هذه الحرب؟

سوف تكشف الأيام القادمة عن حقيقة ما يحدث الآن في الشيشان.

□

الفصل السابع

أوزبكستان

في آسيا الوسطى (تركستان الغربية) ست جمهوريات مسلمة ظلت جزءا من الاتحاد السوفيتي قرابة سبعين عاما حتى انهار هذا الاتحاد فاستقلت جميعا سنة 1991م، وخرجت من عزلتها تواجه عهدا جديدا من الحرية باحثة عن هويتها الحقيقية وتعيد علاقاتها مع العالم الخارجي.

هذه الجمهوريات هي: أوزبكستان، وكازاخستان، وتركمنستان، وطاجيكستان، وأزربيجان وكيرغستان، كانت هذه الجمهوريات من أهم مصادر القوى البشرية والمادية في الاتحاد السوفييتي، فهي تحتوي على 50% من ثرواته الطبيعية مشتملة على البترول والغاز الطبيعي واليورانيوم والذهب والفضة .. وبها واحد من أكبر مراكز صناعة الطائرات (في أوزبكستان) وواحد من أكبر الترسانات النووية (في كازاخستان)، وأكبر منطقة لزراعة القطن (في أوزبِكستان).

مجموع سكان هذه الجمهوريات يبلغ 64 مليون نسمة غالبيتهم العظمى مسلمون، ولكن ليس هؤلاء هم كل المسلمين في الاتحاد السوفيتي، فلا يزال في روسيا نفسها مسلمون يبلغ عددهم حسب التقديرات المعلنة عشرين مليونا يعيشون في وحدات سياسية متميزة، عرفنا منهم الشيشان والتتار والباشكور، كما يوجد مسلمون في

جورجيا وأوكرانيا، ويشكل المسلمون 24% من سكان الاتحاد السوفيتي، ويمثل جنودهم في الجيش الأحمر 40% من قواته المسلحة.

تقع أوزبكستان في قلب هذه الجمهوريات ولها حدود مشتركة معها جميعا فيما عدا أذربيجان، وهي وإن لم تكن أكبرها مساحة إلا أنها أكبرها من الناحية السكانية، وتعتبر عاصمتها طشقند أكبر المدن وأشهرها في آسيا الوسطى كلها.

الجدير بالذكر أننا عندما اتجهنا إلى الاتحاد السوفييتي نطلب صداقته وفتحنا له الأبواب في الخمسينات من القرن العشرين لم نكن نعرف عن المسلمين فيه شيئا يذكر فقد كان اهتمامنا مركزا على الدعم السياسي والاقتصادي الذي منحه لنا وكنا في حاجة إليه لبناء السد العالي ومواجهة الاستعمار الغربي ، ولا يصح أن نتجاهل هذا أو نجحده. ولكن الاتحاد السوفييتي حجب عنا تمامًا الأوضاع المأساوية للمسلمين فيه، وكل ما عرفه الناس في ذلك الوقت شذرات من المعلومات تعطي صورة مضيئة لأحوال المسلمين هناك ، كما شاهدنا أطرافا من الفنون الشعبية من الرقص والموسيقى على مسرح جامعة القاهرة ومسرح الأوبرا قبل أن يحترق. وما دامت الشعوب ترقص فلابد أنها سعيدة. ربما كان هذا هو الانطباع الذي أريد لنا أن نستخلصه في العالم العربي حينذاك، وهو ما روّج له الكُتَّاب

الماركسيون عندنا، فقد قالوا لنا إن حال المسلمين هناك على خير ما يرام ، وإنهم متقدمون في الصناعة والزراعة والعلـم، وعلـى أسـوأ الفروض هم أفضل من حال المسلمين في اليمن وغيرها من البلاد التي كانت ترزح تحت حكام متخلفين من القرون الوسطى، وبدا لنـا في ذلك الوقت أن منطق الأمور يبدو متفقا مع الجزء من الواقع المسموح لنا بالاطلاع عليه..!

بطبيعة الحال كانت هناك دعاية أمريكية مضادة عن المسـلمين في الاتحاد السوفييتي، ولكننا لم نُعِرْها اهتماما لأنها آتية من مصـادر إمبريالية معادية، في ذلك الوقت كانت أمريكا وكل مـا تمثلـه في الحضيض.

فلما تفكك الاتحاد السوفيتي زال الجدار الـذي كـان يخفـي الحقائق عن هذا العالم المجهول، عالم المسلمين والإسـلام في هـذه الإمبراطورية الواسعة، حتى كانت الحرب الروسية في الشيشان الـتي زلزلت أعماق المسلمين في كل مكان، ولكن على مستوى العاطفـة والشعور، ولم يؤدِّ كل هذا إلى حفز الباحثين والدارسين العـرب إلى ارتياد الآفاق المجهولة للإسلام والمسلمين في هذا العالم البعيد.

في نفس الوقت انهال على جمهوريات آسيا الوسطى عشـرات الدارسين والباحثين من الدول الغربية وظهرت عشرات الدراسـات الهامة التي قام بها الأفراد والهيئات المختلفة، وتبع ذلك تدفق رجـال

الأعمال بأموالهم ومشروعاتهم الاستثمارية. وتتعـرض أوزبكستان أكثر من غيرها لهذه الهجمة الغربية الكثيفة، وهي ظاهرة لابد أن نلتفت إليها ونوليها عناية خاصة لنفهم حقيقة ما يدور في هذه المنطقة، وقد سبقتنا إليها إسرائيل بنشاط قوي تعزز به وجودها ونفوذها هناك.

هذه الهجمة الجديدة تشبه في تاريخنا الهجمة الاستعمارية التي جاءت في أعقاب الكشوف الجغرافية والوصول إلى توابل الشرق وذهبه عن طريق رأس الرجاء الصالح وما تبع ذلك من تحول للتجارة العالمية عن طريقها التقليدي عبر مصر والبلاد العربية فأصيبت بالفقر والضعف الذي كان مقدمة للاستعمار الغربي وزرع الدولة اليهودية في فلسطين. هذه تداعيات ظهرت في قلب العالم العربي نتيجة لكسر جناح الأمة الشرقي في وقت مبكر.

الغرب الآن (وإسرائيل في ركابه) في سباق شرس لتطويق الشعوب المسلمة في جمهوريات آسيا الوسطى وإبعادها عن إقامة علاقات مع الدول المسلمة، وموقف الولايات المتحدة من مشروع خط أنابيب بترول بحر قزوين وإصرارها على ألا يمر في أراضي إيران مؤشر له دلالته الواضحة على هذا الاتجاه.

لذلك فإن الاهتمام بمعرفة هذه البلاد وما يجري فيها الآن ليس من قبيل الترف العقلي أو التجمُّل وإنما هو واجب يفرضه المصير

المشترك لهذه الأمة، حتى لا نفاجأ بتداعيات في وسطنا لا ندري كيف بدأت ولا أين تقذف بنا.

من عطر الماضي:

لو تأملنا قليلا في تاريخ أوزبكستان لوجدنا أننا نستعيد ذكريات تاريخ مجيد عزيز على أنفسنا عميق الأثر في ثقافتنا ، فأرض هذه البلاد تضم ثلاث مدن عريقة لأسمائها رنين ساحر في تراث الإسلام الحضاري وفي أدبنا العربي، أسرت قلوبنا بروعة جمالها، وغزت عقولنا بروائع ما أثمرت في مجالات العلم والفكر والطب والفلك والفلسفة، ويكفي أنها قدمت لنا ابن سينا الطبيب الفيلسوف والإمام البخاري صاحب الجامع الصحيح.

ومن منا لم يسمع عن سمرقند وبخارى وطشقند، هذه الأسماء الرومانسية التي خلبت لب كبار الشعراء في أوروبا فتغنوا بها وخلدوها في كتاباتهم المبدعة وفي موسيقاهم، كتب عنها الشاعر الألماني جوته والفرنسي مارلو والإنجليزي كيتس والدبلوماسي الشاعر فليكر وخلدها هاندل في موسيقاه الرائعة، وقال عنها الرحالة الروسي والأوروبيون: "إنها جنة بحق"...!

سمرقند:

كانت سمرقند بالذات مهوى أفئدة هؤلاء المبدعين الغربيين، ولكنهم لم يكونوا ينظرون إليها بإعجاب كما كانوا ينظرون إلى العواصم الإسلامية الأخرى مثل القاهرة ودمشق واسطنبول التي كانت تتألق في منطقة البحر المتوسط، فما كانت سمرقند تستحضر في خيالهم أي مدينة أرضية وإنما كانت تتمتع عندهم بسحر خفي من عالم آخر.

ولم تكن مكانة سمرقند عند المبدعين العرب بأقل من مكانتها عند الأوروبيين، فقد أفاضوا في وصف سحر طبيعتها وجمال قصورها ومساجدها وبساتينها وأنهارها. يقول أحد الشعراء عنها:

للناس في أخراهم جنة   وجنة الدنيا سمرقند

وقال عنها آخرون: "ليس في الأرض مدينة أنزه ولا أطيب مستشرقا من سمرقند"، وشبهها "حصين بن المنذر الرقاشي" فقال: "كأنها السماء للخضرة وقصورها الكواكب للإشراق، ونهرها المجرة للاعتراض، وسورها الشمس للأطباق".

غزاها الإسكندر الأكبر ونصب أحد أبنائه ملكا عليها، وفتحها المسلمون فأصبحت على أيديهم مركزا للعلوم والحضارة الإسلامية، ودمرها جنكيز خان، وأعاد بناءها تيمورلنك وجعلها عاصمة

إمبراطوريته في تركستان، فحجبت شهرتها اسم بغـداد والقـاهرة وشيراز.

اشتهرت بها مدارس مثل مدرسة أولوجبيك (في القرن الخـامس عشر الميلادي) ومدرستي "شيردور" و"طيلاكاري" وهما تنتميان إلى القرن السبع عشر الميلادي. وكانت مدرسـة أولوجبيـك نموذجـا لجامعات العصور الوسطى الإسلامية، بينما كانت "طيلاكاري" تجمع بين الجامعة والمسجد شأنها في ذلك كشأن الأزهر الشريف.

كانت سمرقند عاصمة الثقافة تعج بالشعراء والعلماء والرياضيين الذين أضافوا إلى سحرها بهجة وشهرة، حكمها حفيـد تيمورلنـك أربعين سنة فازدهرت في عهده وبني في القرن الخامس عشر الميلادي مرصدا فلكيا وبني (سداسية) ضخمة من الرخام كانت آلة لقيـاس أبعاد الأجرام السماوية فكانت قياساتها من الدقة ما أذهـل علمـاء العصر الحديث.

وسمرقند اليوم هي ثاني أكبر مدينة في أوزبكستان بعد العاصـمة طشقند، وهي مركز رئيسي في التعلـيم والصـناعة، بهـا مصـانع الكترونية لتصنيع أجزاء الراديو، وبها المصنوعات الحريرية، والسـوبر فوسفات وأجزاء الجرارات الزراعية.

بـُخَارَى:

أطلق عليها بعض المؤرخين اسم: "بخارى الشــريفة .. بــلاد الإسلام والشريعة"، وكثر ذكرها في كتبــهم فــأطنبوا في وصــفها ووصف خيراتها وبهاء خضرتها. قال عنها ياقوت: "إنها مدينة قديمــة نزهة، كثيرة البساتين واسعة الفواكه جيدتها تحمل منها إلى الأطراف، وهي أحسن بلاد ما وراء النهر إذا علوت قهندزها (مكان مرتفع) لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على خضرة متصــلة ، خضــرتها بخضرة السماء، فكأن السماء مكبة خضراء مكبوبة علــى بســاط أخضر، تلوح القصور فيما بينها كالنواوير فيها، وأراضي ضــياعهم منعوتة بالاستواء كالمرآة، وليس بما وراء النهر وخراسان بلدة أهلــها أحسن قياما بالعمارة على ضياعهم من أهل بخارى ولا أكثر عــددا على قدرها في المساحة".

ومن أبناء بخارى العظام الإمام عبد الله محمد بن إسماعيــل بــن المغيرة بن بردزبه الجعفي الفارسي البخاري صاحب الجامع الصحيح في الأحاديث النبوية، الذي أظهر في اختياره للأحاديث براعة فائقــة ومحّصها تمحيصا دقيقا وسافر في الأقطار الإسلامية زمنا طويلا والتقى بمئات المحدثين ليستمع منهم ويزن رواياتهم، كان عظيم الأمانــة في إيراد المتن.. وبذل جهدا خارقًا لكي يصل إلى أضــبط مــا يمكــن

الوصول إليه. ولد في بخارى عام 194 هـ. ووافته المنية في الثلاثين من رمضان عام 256 هـ ودفن بالقرب من سمرقند.

وتشتهر بخارى اليوم بصناعة السجاد، وهي متحف مفتوح في الهواء تتألق فيها المساجد والقصور الأثرية ، ومن أهم مساجدها التاريخية مسجد "بوي كالون" بمنارته الشهيرة التي يبلغ ارتفاعها مائة وخمسين مترا ، ويرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر الميلادي وهي مبنية على شكل برج اسطواني، أما قصر "سيتواري موهي – خوسا" فكان قصر أمير بخارى الذي حوفظ عليه إلى اليوم بحالة جيدة ، ومن بين روائع هذا القصر المعمارية قاعته البيضاء بزخارفها المحفورة.

طشقند:

أو "تاشكنت" جرت المخطوطات العربية والفارسية على كتابتها بصيغة "تاشكند"، وهي أكبر مدينة في آسيا الوسطى كلها وأعظم مراكزها التجارية حيث كانت تقع على الطريق التاريخي المشهور "طريق الحرير" وهو أطول طريق لتجارة القوافل في العالم القديم كان يبدأ من الصين وينتهي على سواحل البحر المتوسط ، كانت القوافل تسير فيه آلاف الأميال لتنقل حرير الصين والبرسلين وغيرهما من دقائق المصنوعات الصينية البديعة إلى الشرق الأوسط وأوروبا.

كانت المدينة تحفها سهول نضرة كثيرة الرياض والبساتين وكان لها سور ضخم مبني من الآجر يبلغ محيطه 25 كيلو مترا بـــه ثلاثـــة عشر بابا، كان السور يحمي المدينة القديمة من غارات البدو المقيمين على الضفة الشمالية لنهر سايحون (سرداريا)، وكانت معظم منـــازل طشقند تحيط بها الحدائق وكروم العنب، وفيها المساجد والأســـواق والمدارس بأعداد كبيرة، وكان بها مصانع الحرير والقطـــن والحديـــد والبارود. وطشقند مشهورة منذ القدم بجودة هوائها وطيب مناخها. ولا يزال قبر الفقيه الشافعي أبي بكر القفال الشاشي (المتـــوفى ســـنة 336 هـــ) يشاهد في طشقند.

أصبحت طشقند الآن عاصمة جمهورية أوزبكستان فأضافت إلى سابق مجدها ازدهارا جديدا حيث أصبحت مركَزًا من أهم مراكـــز الصناعة كما أصبحت من أهم المراكز التجارية في آسيا الوسطى.

لمحات من تاريخ أوزبكستان:

عاش الناس في المنطقة التي يطلق عليها اليوم أوزبكســـتان منـــذ آلاف السنين، كانت جزءا من إمبراطورية الفـــرس حـــتى غزاهـــا الإسكندر الأكبر وأقام بها مملكة إغريقية في القرن الرابع قبل المـــيلاد، ومنذ ذلك التاريخ تعاظمت الأهمية التجارية لهذه المنطقة نظرا لمـــرور

"طريق الحرير" بها وهو كما أشرنا أقدم وأطول طريق تجاري في العالم.

وفي القرن السادس الميلادي بدأت قبائل تركية تتدفق على المنطقة، وفي القرن السابع الميلادي وصلها الفتح الإسلامي فانتشر بها الإسلام، وغزاها المغول بقيادة جنكيزخان في مستهل القرن الثالث عشر الميلادي.

أما "الأوزبك" الذين تنسب إلى اسمهم أوزبكستان فهم قبائل تركية غزت المنطقة في القرن السادس عشر الميلادي، وأقاموا بها وحدات سياسية باسم خانات وظلت على هذا الحال تضطرب بين أيدي الخانات المتحاربين حتى غزاها الروس في القرن التاسع عشر فاستولوا على بعض أراضيها وخضعت الأراضي الأخرى للتبعية الروسية حتى نشبت الثورة البلشفية (الشيوعية) في روسيا سنة 1917 واستولى الشيوعيون على الحكم في روسيا وتحولت أوزبكستان سنة 1924م إلى جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفييتي.

أحدثت الحكومة السوفيتية كثيرا من التغيرات في أوزبكستان، فاهتمت بإنشاء الطرق والمدارس والمساكن الحديثة وتوسعت في الصناعة ، وتحولت ملكية الأراضي الزراعية إلى الدولة فيما عرف

باسم المزارع الجماعية، وركز السوفييت على زراعة القطن حيث قرر الكريملين أن يكون الاتحاد السوفييتي مكتفيا بذاته في زراعة القطن بحيث لا يحتاج إلى استيراده من الخارج ، فكانت نعمة كبرى على الاتحاد السوفييتي، وكارثة بيئية كبرى على أوزبكستان فقد استلزمت زراعة القطن الكثيفة كميات هائلة من المياه وكميات هائلة من السماد الكيماوي، فتحولت مياه الأنهار الثلاثة التي كانت تصب في بحر آرال لري القطن، فجفت مياهه وعلت ملوحته وتلوثت بالسماد كما تلوثت مياه الشرب وقضي على الأحياء المائية والأسماك في بحر آرال وانتشرت أمراض السرطان بين سكان المنطقة، وهذه من أعوص المشكلات التي تواجه أوزبكستان اليوم وهي تحاول معالجتها بمساعدة الأمم المتحدة.

سيطر الاتحاد السوفييتي سيطرة مطلقة على مظاهر الحياة في أوزبكستان خلال سبعة عقود من القرن العشرين وكانت له أيديولوجية إلحادية يقوم على تنفيذها بإصرار، مستخدما كل ما استطاع من وسائل القهر والاستئصال والترويع والتعليم والإعلام حتى ظهرت في أوزبكستان أجيال لا تعرف شيئا عن دينها ولا تاريخها، وانتشر تناول الفودكا وأكل لحم الخنزير وخلعت النساء الحجاب وأغلقت المدارس الدينية وأحرقت المصاحف، وأصبح

المستمسكون بدينهم لا يستطيعون أداء الصلاة إلا في الظلام خوفا من عيون الجواسيس، حتى انهار الاتحاد السوفييتي سنة 1991 كما ذكرنا من قبل وبدأ في هذه البلاد عهد جديد.

حقائق عن الأرض والسكان:

تقع أوزبكستان في قلب جمهوريات آسيا الوسطى، يحف بها من الغرب والشمال جمهورية كازخستان ومن الشرق جمهورية كيرغستان ومن الجنوب الشرقي طاجيكستان ومن الجنوب أفغانستان وتركمنستان.

وتبلغ مساحة أوزبكستان (447400) كيلو مترا مربعا ، معظم أراضيها سهول منخفضة تؤلف أربعة أخماس مساحتها ، وبها واحدة من أكبر صحراوات العالم هي صحراء "كيزلكوم"، وترتفع في شرقها فروع جبال "تيمان شان" و"بامير" ممتدة في شمالها الشرقي، وتصل أعلى قمة بها إلى ارتفاع 4643 مترا فوق سطح البحر. وليست الزلازل غريبة عن أوزبكستان فقد ضرب الزلزال طشقند سنة 1966 فدمر جزءا كبيرا من المدينة.

المناخ صحراوي ولذلك تتفاوت درجات الحرارة خلال السنة تفاوتا كبيرا، إذ تتراوح متوسط درجات الحرارة اليومية في يناير بين

درجتين وناقص ست درجات، وفي يوليه بين 26 إلى 32 درجة مئوية.

المطر قليل ولذلك فالري ضروري لزراعة المحاصيل فيما عدا المناطق الواقعة على منحدرات الجبال التي تصيبها الأمطار.

تصب أكثر أنهار أوزبكستان في مصبات داخلية مثل بحر أرال، وبعض هذه الأنهار تتلاشى مياهه قبل أن يصل إلى أي مصب، وأكبر هذه الأنهار اثنان هما "أموداريا" و"سيرداريا" وكلاهما يصب في بحر "أرال"، وقد استُهلكت المياه فيهما استهلاكا مفرطا لري زراعة القطن السوفييتي مما تسبب في كارثة بيئية أشرنا إليها فيما سبق.

يبلغ عدد سكان أوزبكستان وفقا لإحصاء سنة 1996م أكثر من 23 مليون، والمتوقع أن يصل هذا العدد إلى 26 مليون سنة 2001م. يعيش 59% منهم في المدن بينما يعيش في القرى 41% أغلبهم من الأوزبك المسلمين (71%) وهم ينحدرون من أصول تركية، وتوجد أقليات مغولية وفارسية، وكان الروس يشكلون 8.3% من السكان، ولكن تقلص عددهم كثيراً بعد الاستقلال حيث عاد أكثر من نصفهم إلى روسيا، ويمثل الطاجيك 4.7% والكازاك 4.1%، وفي أوزبكستان مزيج هائل من الأقليات العرقية جاءوا من أقصى الشرق وأقصى الغرب، قد يعجب الإنسان كيف جمعهم وطن واحد!، والحقيقة أن هذا الخليط العجيب كان نتيجة

لسياسة الاتحاد السوفييتي في عهد ستالين الذي كان يتلاعب بمصائر البشر في إمبراطوريته الواسعة، فقد كان ينقل مئات الألوف بين عشية وضحاها من مواطنهم الأصلية إلى مناطق أخرى لأسباب سياسية ، فهو الذي أخلى شيشينيا من سكانها المسلمين وقذف بهم في أصقاع سيبريا وفعل نفس الشيء في شبه جزيرة القرم ، وهو الذي قذف إلى أوزبكستان بمائتي ألف كوري كانوا يعيشون على حدود روسيا الشرقية خشية أن يتحولوا إلى طابور خامس لليابان إذا نشبت الحرب بين الإتحاد السوفييتي وبين اليابان. وكان في روسيا عدد كبير من الألمان استضافتهم الملكة كاترين منذ مائتي سنة للاستقرار في روسيا والمساعدة في تقدمها، فلما نشبت الحرب العالمية الثانية واتجهت القوات الألمانية النازية نحو روسيا نقل ستالين ألمان روسيا إلى أوزبكستان خوفا من تعاونهم مع القوات النازية الزاحفة. أما يهود أوكرانيا فقد أرسلهم ستالين إلى أوزبكستان مع مصانع الطائرات خوفا من قصف الطائرات الألمانية لهذه المصانع. ولا تزال طشقند إلى اليوم تحتفظ بهذه المصانع وباليهود معها.

لا تزال اللغة الروسية هي المستخدمة رغم قرار الحكومة بإحلال اللغة الأوزبكية محلها في المعاملات الرسمية، وكانت اللغة الأوزبكية تكتب بالحروف العربية في الماضي ولكن الروس غيروا الحروف العربية فاستبدلوها بحروفهم السلافية، ويخطط الأوزبك الآن

لاستخدام الحروف اللاتينية تيسيرا لتعلمها من جانب الأوروبيين الغربيين من ناحية وتيسيرا على الشعب الأوزبكي تعلم اللغة الإنجليزية.

لكن هذه المشروعات تتم الآن ببطء وتدرج شأن غيرها من مشروعات التغيير لأن الأوزبك أدركوا أن التسرع في التغيير عند جيرانهم التركمان قد أحدث عندهم هزات اجتماعية واقتصادية شديدة ، فقد وجد المتعلمون المتخصصون في شتى المهن – بعد تغيير اللغة – أنهم لا يكادون يفهمون محتوى الوثائق الرسمية إلا بصعوبة بالغة، ووجد الناس العاديون أنهم أصبحوا أميين بين يوم وليلة.

رغم كل الاحتياجات كان التحول الفوري من طغيان النظام السوفييتي بمثابة صدمة الانعتاق من سجن مؤبد والخروج المفاجئ إلى عالم الحرية والتعرض لرياح الانفتاح الاقتصادي وما صحبه من إجراءات الانتقال السياسي إلى عهد جديد. كل هذا أدى إلى هزات اجتماعية بدت آثارها واضحة في مجتمع الشباب، فقد ظهر في شوارع طشقند مجموعات من الشباب يلبسون الملابس الجلدية ويقودون السيارات الفاخرة، ويشار إليهم في الطريق باعتبارهم من أبناء الطبقة الجديدة صاحبة السلطة والثروة ، وحدثت موجة من سرقة السيارات انحسرت بعد الضربات الأمنية الموجعة للمشتبه فيهم، وأفاق اللصوص الجدد على أن السلطة لا تزال قبضتها من حديد،

فالرئيس إسلام كريموف كان رئيس الحزب الشيوعي في أوزبكستان ومعنى هذا أنه ابن شرعي للنظام السوفييتي السابق وقمع الجماهير ليس غريبا عنه، ولكن يحلو له في خطبه وتصريحاته أن يطلب من المعارضة الهزيلة المسموح بها أن تعبر عن رأيها بحرية فذلك "عهد لا تكمم فيه الأفواه ولا تقصف الأقلام".

وعادة ما يكون رد الفعل في البرلمان ضحكات هامسة وبعض نكات يتداولها أفراد المعارضة فيما بينهم فيقولون: "لا تقصف الأقلام ولكن تقصف الرقاب فقط" وتصل هذه الإشاعات إلى مسامع الرئيس كريموف ولكنه يتغاضى عنها ولا يعلق عليها كثيرا ، وهذه نقلة نوعية في مواجهة المعارضة الاعتراف بها والتغاضي عن بعض سيئاتها ما دامت لا ترفع عقيرتها بالنقد.

عندما استقلت أوزبكستان تحول الحزب الشيوعي بين عشية وضحاها فتقمص شيئا اسمه "حزب الشعب الديمقراطي" الذي أعلن أنه طرح الأيديولوجية الشيوعية جانبا. ولكن من الناحية العملية بقيت نفس الشخصيات الشيوعية في العهد السوفييتي هي التي تهيمن على الحزب الجديد وعلى الحكم في عهد الاستقلال ، ولا تزال قوات الشرطة القمعية القديمة ظاهرة في كل مكان، مع فرق بسيط وهو أنهم أصبحوا يتقاضون مرتبات قيمتها الشرائية ضئيلة مقارنة بمرتبات وأسعار العهد البائد ، ولذلك يلجأون إلى إيقاف السيارات ويفتشون

عن المخالفات مهما صغرت بقصد إجبار السائق على تقديم رشـــوة شخصية لكي يفلت بجلده. ولكن أفراد هذه الشرطة أذكياء ولذلك يتجنبون إيقاف السيارات المرسيدس أبدا مهما عظمـــت مخالفاتها، وذلك تحسبا أن يكون ركابها من أصحاب النفوذ.

الخوف من صحوة إسلامية:

عندما هيمن الشيوعيون على السلطة في بداية العهد الســـوفيتي بدأت أشرس حملة في التاريخ لمحاربة الإسلام وبعد جيـــل أو اثـــنين بدأت المساجد تخلو من المصـــلين و لم يعـــد في إمكـــان المســـلمين المستمسكين بدينهم تأدية صلاة الجماعة إلا متسللين بعيدا عن أعين رجال المباحث أو متسترين في سرابيل الظلام. كان في أوزبكســـتان (2400) مسجد أغلقها السوفييت وحولوا بعضها إلى مدارس لنشر الإلحاد، ومع الاستقلال انقشعت موجة الإلحاد الرسمي وبقيت فئات من تلامذة هذه المدارس تسيطر على الحكم والتوجيه في هذه الـــبلاد ولكنهم وجدوا أنفسهم في مواجهة جماهير متعطشة إلى العـــودة إلى دينها وهويتها المكبوتة، و لم يكن هناك بدٌّ مـــن الخضـــوع لرغبـــة الجماهير فعادت المساجد تفتح أبوابها من جديد، فعلى سبيل المثـــال فتح في بخارى أربعون مسجدا وكان بها من قبـــل 240 مســـجدا أغلقها السوفييت، وكان بها مدرسة دينية للبنات تنتمي إلى القـــرن

السابع عشر أعيد فتحها وأصبحت تسمع آيات القرآن الكريم يتردد صداها بين جدران هذه المدرسة الأثرية بعد أن عشش الخراب فيها سبعين سنة.

في هذا المناخ الجديد لا تزال النخبة المهيمنة تحيا بعقلية الفكر الماركسي وقد اعتادت على أساليب القمع والاستئصال لكل فكر مخالف ، لذلك تشعر بالخوف من انطلاق صحوة إسلامية يسمونها "أصولية إسلامية" فتقتلع أعضاء هذه النخبة المحظوظة وتطيح بها كما حدث في بعض الجمهوريات المجاورة. ولذلك كان الرئيس إسلام كريموف أكثر حذرا فاتخذ إجراءات احتياطية قاسية ، حيث استبعد جميع الأشخاص المعروفين باستمساكهم بالدين من جميع الوظائف القيادية الهامة، وشن حملة أمنية سرية على عدد من علماء الدين الذين يوجهون نقدا علنيا إلى التوجهات والإجراءات العلمانية الصريحة بين رجال الحكومة، ومن أبرز هؤلاء العلماء الإمام عبد الله ميرزاييف الذي اختفى في مطار طشقند يوم 26 أغسطس 1995م وكان متوجها لحضور مؤتمر إسلامي عالمي في موسكو.. والإمام ميرزاييف شخصية مرموقة ذات تأثير بارز في المجتمع الأوزبكي لا يقل عن تأثير رئيس الجمهورية.

الرئيس كريموف:

شخصية "كاريزماتية" لامعة، متمرس بالزعامة تحت أي شعار وفي إطار أي أيديولوجية فهو قادر على الانتقال، قادر على الإقناع بوجهة نظره الجديدة، وهو أحد الرؤساء القلائل الذين استطاعوا الاحتفاظ بمقاعدهم في السلطة بعد الاستقلال، وقد استطاع أيضا أن يقنع قادة الغرب بالثقة فيه فهو على حد قوله: "ضد الأصوليتين، الأصولية الشيوعية في الشمال (يقصد موسكو) والأصولية الإسلامية في الجنوب (يقصد إيران)".

عندما تولى السلطة بعد الاستقلال كان لا يزال في عقده الخامس، وهو رجل اقتصاد (بالتعليم) وله رؤية خاصة في الإصلاح والتقدم الاقتصادي، وهو حريص على جلب الاستثمارات الأجنبية ويعمل على تشجيعها، ولذلك وثّق علاقاته مع بريطانيا والولايات المتحدة ومع الفرنسيين والألمان والسويسريين، ويحاول تغيير فكرة الاتحاد الأوروبي بالنسبة لسمعة بلاده السيئة في مسألة حقوق الإنسان وفي الإصلاح السياسي، وهو دائم التأكيد على سيادة الاستقرار وعدم وجود أصولية إسلامية في بلاده، وهذا ما يردده في الحملات الإعلامية الأوزبكية الموجهة إلى رجال الأعمال والمال في الدول الغربية، كما يردده وزيره للعلاقات الاقتصادية الخارجية في العديد من المؤتمرات الاقتصادية العالمية التي يحرص على حضورها.

الرئيس كريموف يحاول في خطابه أن يعطي الانطباع بأن هدفه الرئيسي هو تقدم أوزبكستان وإصلاح اقتصادها وفق رؤيته الخاصة واعتقاده فيما هو أنفع لشعبه، وكثيرا ما يتدخل بنفسه شخصيا في مجرى تنفيذ المشروعات الاقتصادية للأجانب ليزيل العقبات حتى تستقر.

ورغم أنه بدا في الماضي كشيوعي مخلص للنظام السوفييتي إلا أنه الآن كثير التلميح في خطبه إلى الجماهير بأن أوزبكستان كانت مجرد مستعمرة ومصدرا للمواد الخام اللازمة لصناعات الاتحاد السوفييتي وأن النظام الشيوعي السابق قد نجح في قمع الشعب الأوزبكي روحيا وأخلاقيا، كما نجح في تدمير الثقافة والقومية واللغة وكل شئ عزيز في تقاليدنا، وأنه أصاب احترام الشعب لعقيدته ولذاته في مقتل ، وأنه سعيد لأن أوزبكستان قد تحررت أخيرا من موسكو.

وفي أسلوبه في مجال الإصلاح والتغيير يسير الرئيس كريموف بحذر وتؤدة وفي هذا يقول: "إن فشل الدول التي انفصلت عن الاتحاد السوفييتي يكمن في أنها أسرعت بهدم البيت القديم قبل أن تبني لها بيتا جديداً آخر .. ولكن سياستنا تتميز بأننا لا نصلح الأشياء لمجرد الإصلاح العاجل ، فالإصلاح بالصدمة كما حدث في روسيا وفي الجمهوريات الأخرى أساء إلى فكرة اقتصاد السوق .. وكلنا يدرك أهمية اقتصاد السوق، ولكن كل منا يختار أنسب طريق لواقعه ..

أعرف أنه لابد من ثمن للإصلاح ففي فترات التحول يعـاني النـاس كثيرا من أنواع الحرمان، ولكن هذا الحرمان لا يصـح أن يسـتمر طويلا".

أما موقفه من الإسلام فهو – كما ذكرنا – يؤكد أنه لا يقبـل "الأصولية الإسلامية" ويصرح قائلا: "نحن نحتـرم عقيـدة شـعبنا، والإسلام هو أعظم عقيدة ديمقراطية في العالم .. فهو لا يضع شروطا على معتنقيه (!) ويعلق على الوضع في إيران فيقـول: "الموقـف في إيران – حيث يستخدم الدين لأغراض سياسية ليس بالضرورة هـو النمط الإسلامي الوحيد، وليس التعصـب ملمحـا مـن ملامـح الشخصية الأوزبكية".

وخطاب الرئيس كريموف على غمـوض عباراتـه – يطـرح علامات استفهام كبيرة، فالإسلام إذا كان ديمقراطيا كما وصفه فهو إذن ليس دينا مجردا، أعني ليس مقصورا على الحياة الروحية فحسب لأن الديمقراطية مصطلح سياسي وهذا يعني أن الإسلام معنيٌّ أيضـا بشئون الحياة الدنيا وبالذات العلاقات بين الناس بعضهم ببعض، وبين الناس وبين حكامهم، فهل هذا هو مـا يعنيـه خطـاب الـرئيس كريموف؟ أما أن يضع هذه المقدمة ويستنتج منها أن الإسلام كمـا

يقول: "لا يضع شروطا على معتنقيه" فهذا أمر غير مفهوم، والعبارة يمكن أن تؤخذ بمعاني شتى لا تتفق مع حقيقة الإسلام، فالإسلام ليس دينا سائبا بلا أوامر أو نواهٍ، يفعل الناس فيه ما يشاءون كما يهوون بلا قيد كما توحي به العبارة الأخيرة في خطاب الرئيس.

شعب الأوزبك شعب مسلم حريص على عقيدته مستمسك بها رغم الكبت والقهر الذي تعرض له طوال عقود الإلحاد الشيوعي، وقد انبعثت بعد الاستقلال تقاليده القديمة التي كان يظن أنها اندثرت إلى الأبد فإذا بالشعب يزداد التفافه حولها بعد زوال هيمنة موسكو.

وتحت ضغط الجماهير تعيد الدولة فتح المساجد. بمعدل عشرة مساجد كل يوم، وتعيد فتح المدارس الإسلامية، وتحل الأعياد الإسلامية محل الأعياد السوفيتية.

ويشكل كل هذا – في نظر المراقبين الغربيين – عناصر الإحياء الإسلامي، وهو أمر يبدو محيراً في نظرهم، فهم يعلمون أن المستشارين الغربيين يعملون مع القيادات المحلية في وضع برامج لتشكيل أوزبكستان جديدة يرضى عنها الغرب، والإحياء الإسلامي يتعارض مع هذه البرامج كما يتعارض مع توجهات الحكومة في تحريم الأحزاب الإسلامية والجمعيات الإسلامية المدنية وأي نشاط إسلامي تُشَمُّ منه رائحة المعارضة للنظام العلماني القائم.

فما هو سر هذه (الإشكالية)؟

إذا عُدْنَا إلى الوراء قليلا إلى يوم الاستقلال لوجدنا أن شعب أوزبكستان – وقد هبت عليه رياح الحرية – بدأ يبحث عن هويته المفقودة، ووجد الناس أنفسهم –تلقائيا– يتوحّدون مع إسلامهم، و لم يكن في مقدور أي قوة في ذلك الوقت أن تقف في طريق هذا التيار الجارف، ومن ثم لم تجد النخب الحاكمة – رغم عدم اقتناعها ورغم توجهاتها العلمانية – مناصا من الانصياع لإرادة الشعب ، ومن ثم أعيد فتح المساجد والمدارس الإسلامية وغير ذلك من إجراءات رأوا أنها أصبحت ضرورية لاكتساب شرعية زالت عنهم بعد انهيار الشيوعية والنظام السوفييتي الذي كان يقف وراءها.

أما ضرب المعارضة وخصوصا تلك المعارضة ذات التوجه الإسلامي مع ادعاء الديمقراطية واحترام الرأي الآخر، فإنه امتداد لأسلوب القمع الذي تمرست عليه النخب الحاكمة في ظل النظام الشمولي السابق، والحجة التي يقدمونها دائما هي المحافظة على الاستقرار والأمن اللازمين للإصلاح والتقدم.

في بعض الجمهوريات كانت المعارضة من القوة بحيث تحول الأمر فيها إلى صراع مسلح بين فئات متقاتلة تلاشت فيها دعاوى الإصلاح والتقدم، وفقدت السلطة شرعيتها تماما عندما شعرت بضعفها فاستدعت قوات أجنبية لتثبيتها في الحكم رغم إرادة شعبها

كما حدث في طاجيكستان عندما استعانت بالقوات الروسية ضد المعارضة.

أما في أوزبكستان فقد تمكن الرئيس كريموف من تركيز السلطة في يده، ودعم أجهزة أمنه السرية بأفراد الـ "كي جي بي" السوفيتية السابقة، فلما نشبت الحرب الأهلية في طاجيكستان 1992م انطلقت أجهزة الأمن وراء المعارضة السياسية لتصفيتها، ووضعت الحواجز على حدودها مع طاجيكستان لمنع تدفق اللاجئين، وقامت السلطات الأوزبكية بإلغاء جميع المنظمات الاجتماعية والسياسية الطاجيكية في أوزبكستان وأغلقت جامعتهم في سمرقند، ووضعت أجهزة الإعلام تحت السيطرة الكاملة والمباشرة للدولة.

وصدر قانون جديد خاص بالأحزاب السياسية يحرم قيام أحزاب على أساس ديني أو قومي، وأي حزب معارض للدستور الذي صنعه الرئيس كريموف.

وبدت الأوضاع في أوزبكستان هادئة ومستقرة مما أتاح الفرصة لبعض الإصلاحات المالية والاقتصادية التي تجاوزت بها البلاد صدمة الاستقلال عن الاقتصاد الروسي المنهار والروبل الروسي الذي بلغت قيمته الشرائية في الحضيض، وقد شجعت هذه الإصلاحات المستثمرين الأجانب على التوجه إلى أوزبكستان بحماس كبير، وهذا

هو المحور الأساسي الذي تدور عليه سياسة الرئيس كريموف، والذي يعوّل عليه في تدعيم مستقبله السياسي واستمراره في السلطة.

والحقيقة أن الجانب الاقتصادي في حياة أوزبكستان المستقلة من الأهمية بمكان، بحيث لا يجب أن يحجبه عـن ناظرنـا أي مناقشـة للسياسة الأوزبكية مهما بلغت أهميتها، فسوف تتولى التجربة والزمن دفع الممارسة السياسية إلى تصحيح مسارها، ولعل في حادثة ميـدان الاستقلال في طشقند مؤشرا للقيادة السياسـية للبـدء السـريع في تصحيح المسار السياسي، فقد وقعت في صباح الثلاثاء 16 فبرايـر 1999م أربعة انفجارات ضخمة هزت وسط العاصمة وقيل أنها من عمل المعارضة التي لم تجد وسيلة أخرى للتعبير عن نفسـها بـالحوار السلمي.

الاقتصاد:

لخص الرئيس كريموف الموقف الاقتصادي في بلاده في مسـتهل النصف الثاني من التسعينات فقال: "لقد انتهت دراسـة الأجانـب لأوضاع أوزبكستان الاقتصادية، وهم الآن يعرفون قوانيننا الجديدة، ويعرفون بوجود ضمانات سياسية ومالية كافية لممارسة أنشـطتهم، كما يعلمون أن شعبنا محب للعمل متعلم لا يعاني من مشكلة الأميـة

.. ولكن أهم شئ هو الاستقرار السياسي والمالي، فحيث يتوفر هذا الاستقرار يمكن لرجال الأعمال أن يبدأوا نشاطهم".

والحقيقة أن الإصلاح المالي والاقتصادي الذي ركـزت عليه الحكومة الأوزبكية خلال السنوات الخمس الأول بعد الاستقلال – كما أنه أتاح لها الخروج من أثر الانهيار الاقتصادي السوفييتي وتردى قيمة الروبل والارتفاع الفلكي لأسعار السلع والمواد الغذائية– قد مكنها أيضا من تحقيق إنجازات اقتصادية يحق لها أن تفخر بها. وهذا ما يشير إليه "يورور سلطانوف" وزيـر العلاقـات الاقتصـادية الخارجية في خطابه أمام المؤتمر السنوي لرجال الأعمال بلندن سنة 1995م حيث قال: "خلال السنوات الثلاثة الماضية انخفض الدخل القومي في روسيا بنسبة 36% وفي أوكرانيا بنسبة 40% وفي كازاخستان بنسبة 43%، بينما تشير إحصاءات البنك الدولي بالنسبة لأوزبكستان في الشهور الستة الأولى لسنة 1995م إلى وجود زيادة عن 1992م بنسبة 99.5%.

ثم يضيف: "في العام الماضي اشترينا بترولا من روسيا مقداره 350 ألف طن وفي سنة 1996م سيكون عندنا اكتفاء ذاتي من الطاقة وفي سنة 1997م سوف نبدأ في تسويق فائض بترولنا في الأسواق الدولية، وقد ساعدنا الاكتفاء الذاتي في الحبوب والمواد

الغذائية توفير ملايين الدولارات لإعادة هيكلة اقتصادنا فأصبحت معظم وارداتنا تتركز حول المعدات وتكنولوجيا المستقبل العالية".

وأشاد الوزير في خطابه بالعلاقات الخاصة بين بلاده وبين بريطانيا وألمح إلى الزيادة المضطردة في حجم التبادل التجاري بين البلدين، وذكر أن أوزبكستان بها أربعة عشر شركة بريطانية.

كثيرا ما يتحدث القادة الأوزبك أن اقتصادهم يسير وفق خطط ومبادئ تهتم — في إطار الإصلاح – بتشجيع الاستثمارات الكبرى للشركات الأجنبية والعناية بالجانب الاجتماعي في نفس الوقت.

وتنسب إلى الرئيس كريموف – في هذا المجال – خمس مبادئ هي:

وضع الأيديولوجيات جانباً فيما يتصل بالعلاقات الاقتصادية الداخلية والخارجية.

الدولة هي المصلح الأكبر للاقتصاد.

القوانين الاقتصادية التي تصدر مقدسة ولا رجعة فيها.

تحرير الاقتصاد لابد أن تصحبه سياسة اجتماعية لتحسين مستوى المعيشة للشعب.

التدرج في الانتقال إلى اقتصاديات السوق لتجنب الهزات الاقتصادية والاجتماعية.

الزراعة:

أوزبكستان دولة زراعية أصلاً وتوجد أخصب أراضيها في المناطق الجنوبية الشرقية للبلاد حيث تغذيها ثلاثة أنهار كبرى هي: "أكسوس" و"جاكسارتس" و"زرافشان"، وهي رابع أكبر دولة منتجة للقطن في العالم وثاني أكبر مصدر للقطن بعد الولايات المتحدة، وأكبر مصدر للفواكه والخضروات ومن أهم البلاد المنتجة للطباق، وتتمتع باكتفاء ذاتي في الحبوب والمواد الغذائية، وأهم المحاصيل الزراعية بعد القطن الأرز والبطاطس، ويمثل الإنتاج الزراعي 40% من الدخل القومي، ومن أهم صادرات أوزبكستان – إلى جانب القطن والفواكه والخضروات – الأرز واللب والصوب.

المعادن والصناعات:

أراضي أوزبكستان غنية بالمعادن ولديها مستقبل عريض في هذا المجال خصوصا في إنتاج الغاز والبترول، وتعتبر سابع أكبر دولة في إنتاج الذهب ولديها كميات ضخمة من الفضة والرصاص والنحاس والزنك والبلاتين واليورانيوم.

وليست الصناعة غريبة على أوزبكستان، فالصناعة الثقيلة موجودة من أيام الاتحاد السوفييتي حيث نقل ستالين هذه الصناعة إلى طشقند خلال الحرب العالمية الثانية كإجراء وقائي حتى لا تدمرها

القنابل الألمانية، ولنفس السبب – كما ذكرنا سابقا – انتقلت مصانع الطائرات، ولا تزال صناعة الطائرات الأليوشن في طشقند حتى الآن، ويوجد في أوزبكستان 60% من صناعة الآلات الميكانيكية والصناعات المعدنية في جمهوريات آسيا الوسط.

ومن المنتجات الصناعية الأخرى: الآلات الزراعية والمواد الكيميائية والمصنوعات الغذائية والورق والنسيج والمعادن والفحم.

كانت أوزبكستان تنفق 35% من عائدات بيع قطنها في الحصول على البترول، أما الآن فهي ليست في حاجة إلى بترول من الخارج ومن ثم تستطيع توفير هذه المبالغ للإنفاق في مجالات أخرى. وبعد إنشاء مصنعها الجديد لتكرير البترول ارتفعت قدرتها في تصفية البترول إلى 2.5 مليون طن، وقد تكلف المصنع 250 مليون جنيه إسترليني، إلى جانب مصفاتها القديمة في "فرغانة" التي تكلف إصلاحها 16 مليون جنيه إسترليني.

وفي مجال الغاز الطبيعي تقدمت اليابان لتنفيذ مشروع إنتاج الغاز بتكلفة 120 مليون دولار أمريكي، ولكن الأوزبك فضلوا القيام به بأنفسهم، فاشتروا المعدات وتكلفوا 15 مليون دولار فقط.

ويقدر احتياطي الغاز بحوالي 20 تريليون قدم مكعب، وتعتبر بهذا ثامن أكبر دولة منتجة للغاز في العالم، ومن المتوقع أن تصعد

أوزبكستان في سلم الترتيب درجات أعلى من ذلـــك في المســـتقبل القريب.

وتنتج أوزبكستان 55 بليون كيلو وات من الكهربـــاء تحتـــاج منها فقط إلى 45 بليون كيلو وات، وتتجه حاليا إلى تصدير الفائض من الكهرباء.

كانت أوزبكستان تستورد 1.5 مليـــون طـــن فحـــم مـــن كازاخستان وروسيا، أما الآن فهي تصدر من 500 إلى 600 ألف طن، علاوة على أن الطبقة العليا للفحم تحتوي على تربة "الكاولين" وهي المادة التي يصنع منها الصيني والسيراميك.

تسيطر الحكومة على معظم الاقتصـــاد كمـــا تملـــك معظـــم الشركات والأعمال، ولكن اعتبارا من سنة 1990م بدأت تســـمح بنشاط القطاع الخاص، وتركز الاهتمام في أواسط التسعينات علـــى الخصخصة حيث بيعت كثرة من الأراضي والمصانع الصغيرة للقطاع الخاص، وتحولت أسهم بعض الشركات إلى ملكية العاملين فيها، ولا تزال الخصخصة تسير وفق خططها بخطوات ثابتة.

البنوك والتمويل:

منح البنك الدولي أوزبكستان 560 مليون دولار لمساعدتها في التحويل إلى اقتصاد السوق. واستطاعت الحكومة في إصلاحها المالي

أن تصل إلى نوع من الاستقرار في سعر العملة الأوزبكية حيـــث لا توجد سوى فروق طفيفة بين السعر الرسمي وسعر الســـوق الحـــرة. ونشأت في أوزبكستان عدد من البنوك الجديـــدة، ويهـــتم وزيـــر العلاقات الاقتصادية الخارجية بابتعاث الشباب إلى سويسرا والـــدول الغربية لدراسة الأعمال البنكية.

واستطاع "بختيار حميدوف" وزير المالية خفض التضخم المـــالي سنة 1995م إلى 2%، وأن يقيم علاقات جيدة مع البنك الأوروبي والبنك الدولي. وفي تصريح لمدير البنك المركزي "رستم أرزيمـــوف" أن أصول البنك ارتفعت مـــن 1.3 مليـــار دولار إلى 2.3 مليـــار دولار، ويعتبر المحاسبون البريطانيون "إرنست وينج" أن هذا البنـــك جدير بالثقة في التعاملات الدولية.

ولتشجيع الاستثمارات الأجنبية رفعت الدولة جميع القيود على ملكية الأجانب للأسهم، ومنحت المستثمرين إعفاءً ضـــريبيًّا علـــى مشروعات إنتاج السلع الاستهلاكية خصوصا المشروعات المشتركة مع رأس المال الوطني. ووضعت الحكومة على قائمة الخصخصة 39 مشروعا للمرحلة الثانية شاملة للطاقة والصناعات الزراعية والخفيفـــة وبناء الآلات والسياحة ومواد البناء والصناعات الكيميائية.

السياحة:

قطاع السياحة من أهم القطاعات الاقتصادية التي تعني بها الدولة، ولكنها تحتاج إلى بنية أساسية تفتقر إليها البلاد مثل الفنادق وغيرها، كما تحتاج إلى تدريب مئات من الشباب على الخدمات السياحية وإجادة اللغة الإنجليزية بصفة خاصة، والعناية بالمواصلات والاتصالات وتحديثها.

ويجري حاليا الاهتمام بمراكز السياحة الرئيسية في طشقند وسمرقند وبخارى وخيفا، وتحسين الخدمات الصحية للسياح، وفتح مكاتب سياحية في الخارج.

وتوجد أربعة آلاف موقع سياحي في البلاد من أهمها "طريق الحرير" وهو يحتاج إلى إعادة بناء وصيانة، وهو يمر في عدة مدن داخل أوزبكستان هي بخارى وسمرقند وطشقند وكوكاند وإيديجاني. وفي شرق أوزبكستان توجد آلاف الأميال المربعة من المناطق الغنية بالنباتات والحيوان والأنهار والحدائق والكروم، كما يوجد خمسمائة ألف فدان من الغابات والمحميات الطبيعية.

وقد سبق إلى مجال السياحة شركات أجنبية كثيرة على رأسها مجموعة المقاولين الهنود، "تاتا ولارسن وتويرو" كما دخل في اللعبة الأتراك الذين يمولون بناء فندق ومركز تجاري ضخم، ويتفاوض

الماليزيون على مشروع مماثل حيث اشتروا الفندق الرئيسي في طشقند لتحديثه.

الاستثمارات الأجنبية:

بدأ اهتمام الشركات الغربية بالاستثمار في أوزبكستان مبكـــرا، وسبقت الشركات البريطانية والأمريكية غيرها في احتكار استخراج الذهب، حيث وقعت الشركة الأمريكية "نيومونت" اتفاقيـــة مـــع الشركة الأوزبكية "نافوى" لاستخراج الذهب مناصـــفة، وتبعتـــها المجموعة البريطانية "لونرو".

تتوقع "نيومونت" مكاسب ضخمة من مشروعها الذي تكلـــف 140 مليون جنيه إسترليني، وهو مشروع "زرافشان – نيومونـــت" الذي يقع في صحراء "كيزيل كوم" بوسط أوزبكستان، ومخطط لـــه أن يتعامل مع 14 مليون طن من المادة الخام لإنتاج 450 ألف أوقية ذهب في العام الأول قابلة للزيادة في الأعوام التالية ولمدة 17 سنة.

أما "لونرو" البريطانية فقد ركزت نشاطها في مناجم "أمانطاتو" بنفس المنطقة الصحراوية، وبدأت بإنتاج 300 ألف أوقيـــة ســـنة 1997م تزيد خلال أربعة أعوام لاحقة إلى معدل ســـنوي قـــدره 450 ألف أوقية ذهب. وقد نأت الشركة الأمريكية بنفسها عن هذه

المناجم لوجود عوالق كيميائية يصعب فصلها عن الـــذهب، بينمـــا قبلت الشركة البريطانية لامتلاكها تكنولوجيا متقدمة للتعامـــل مـــع هذه العوالق استخدمتها من قبل في مناجم "أشانتي" بغانا.

الشريك الأوزبكي مع مجموعة "لونرو" هو أيضا شركة "نافوى" التي تملك قوة عمل يقدر عددها بثمانية وأربعين ألف عامل، وهـــي قوة في نمو مستمر، وقد امتد نشاطها إلى مجالات صناعية أخرى مثل صناعة الأسمدة الزراعية والآلات الميكانيكية واليورانيـــوم والنســـيج والمجوهرات، في مصانعها الموزعة بمنـــاطق "نـــافوي" و"زرافشـــان" و"أوتوشودوك".

وأقامت الشركة مدنا صناعية جديدة بمطاراتها الخاصـــة، ولهـــا مزارعها الخاصة لزراعة الفواكه والخضروات للاستهلاك المحلي.

ومن الشركات التي سبقت للمشاركة في التنمية الصـــناعية في أوزبكستان شركة مرسيدس بنز الألمانية، وشركة "دايوو" الكوريـــة، وتعتمد هذه الشركة الأخيرة على وجود 200 ألف أوزبكـــي مـــن أصل كوري جاء بهم ستالين إلى هذه البلاد لأغراض سياسية كمـــا سبق أن أشرنا.

ولا يزال لروسيا حظ معلوم في العلاقـــات الاقتصـــادية مـــع أوزبكستان، ولإسرائيل أيضاً حظ معلوم، ويحاول الغرب مســـاعدة

تركيا العلمانية لتعويض الغياب الإسلامي عن أوزبكستان، ولكن تركيا ليس لديها ما تريده أو ما تستطيعه سوى مجال السياحة وربما كازينوهات القمار.

وبينما يتنافس الجميع في التهام أكبر نصيب من "الكعكة" الكبيرة إلا أنهم جميعا متفقون على إبعاد الدول المسلمة المجاورة خصوصا باكستان وإيران من اختراق آسيا الوسطى ملوحين بخطر الأصولية الإسلامية، فالمناخ هناك ملغم – على المستوى الإعلامي– من الاقتراب الإسلامي.

فباكستان – وهي من أقرب البلاد المسلمة إلى الجمهوريات المسلمة في آسيا الوسطى – معزولة بالدعاية الغربية أولا ، ثم بإغراقها في وحل الحرب الأهلية في أفغانستان، وفي الصراع مع الهند على كشمير وسباق التسلح النووي معها، وما ترتب على ذلك من ضعف اقتصادي تدعمه الولايات المتحدة بالحصار الأخير الذي صعدته بعد تفجير الباكستان لقنابلها النووية.

ربما كانت إيران لنشاطها المكثف وقدرتها على اختراق الحصار الأمريكي وامتزاجها القومي مع شعوب آسيا الوسطى – ربما كان لهذه العوامل أثر في أن يكون لإيران حظ أفضل خصوصا بعد رحلة الرئيس رفسنجاني التي بدأت في 21 أكتوبر سنة 1993 في بخارى

حيث انتقل بعدها إلى عواصم الجمهوريات الأخـــرى فيمـــا عـــدا طاجيكستان بسبب الحرب الأهلية الدائرة فيها، واستطاعت إيـــران توقيع 12 بروتوكولا في المجالات الثقافية والتقنية مشتملا على إنشاء خط حديدي بطول 160 كم بين سراخس ومشهد.

وتفاوض الرئيس رفسنجاني مع "نور سلطان نزاربابيف" رئيس جمهورية كازاخستان على مشروع مرور خط أنابيب بتـــرول بحـــر قزوين عبر إيران، وأظهر الرئيس نور سلطان موافقته المبدئيـــة علـــى المشروع رغم استياء الدول الأوروبية ومقاومة الولايات المتحدة لهذا الاتجاه، بحجة أن إيران دولة إرهابية، وبعـــد أن أنفقـــت شـــركات البترول على التنقيب مليارات الدولارات وضع المشروع على الرف نظرا لتدني أسعار البترول وزيادة المعروض منه عن الطلب.

هل هناك فرص للتعاون الإسلامي؟

لابد أن تكون الإجابة بنعم، فالأمر لا يتوقف على إرادة أحـــد بل إرادة المسلمين، فإذا توفرت الإرادة أمكن الخـــروج مـــن وهـــم السيطرة الغربية التي لا تقاوم ومن وهم العجز عن مواجهة التحديات الغربية.

نحن أمام ست جمهوريات لشعوبها ميراث عميق الجـــذور مـــن الحضارة الإسلامية، وهي اليوم – وقد تحررت من الاستعمار الأجنبي

- تتطلع لإعادة علاقاتها مع العالم الخارجي خصوصـا مـع الـبلاد المسلمة التي تشترك مع شعوبها في العقيدة والشعور بالانتماء المتبادل، وإذا كانت دول أخرى قوية أكثر تقدما ونشاطاً قد سبقتنا إلى هـذه البلاد وأشاعت فكرا خاطئًا عنا، فعلينا أن نذهب إليهم في ديـارهم ونريهم أننا على غير الصورة التي قدمت إلـيهم، وأننـا نرغـب في التعاون وتبادل المنافع ولدينا بالفعل ما نقدمه في هذا السبيل.

بحثت عن أي مبادرة عربية ذات قيمة في هذا المجال فوجدت — لحسن الحظ - مبادرة واعدة قام بها مائة وسبعون من رجال الأعمال العرب قادها الدكتور أحمد محمد علي مدير بنك التنمية الإسـلامي، ذهبوا إلى المنطقة في رحلة استكشافية، وكان الرجل محقًّا عندما شرح لأعضاء الوفود طبيعة هذه المهمة فقال:

"هذه رحلة جهاد تستلزم كثيرا من الصبر والاحتمال، والـذين تعودوا منكم على فنادق (خمسة نجوم)، يجب أن ينسوا هذا في الأيام القادمة فإنكم في مهمة لبناء جسور من العلاقـات والتعـاون مـع شعوب لعب أجدادهم دورا عظيمًا في تاريخ الأمة الإسلامية".

حظيت الوفود العربية بترحيب واهتمام من أعلـى مسـتويات السلطة في الجمهوريات التي قاموا بزيارتها، وهذا - في حد ذاتـه - دليل على أمل كبير أن تسفر هذه البعثة عن تعاون حقيقي مع الدول الأربعة التي زاروها وهي: "كازاخستان وكيرغستان وتركمنسـتان

وأذربيجان"، و لم تتمكن من زيارة طاجيكستان وأوزبكستان. هـذه البلاد كلها غنية بالمصادر المعدنية التي تحتاج إلى تنمية.

وإذا لم تنتهز الدول الإسلامية ورجال الأعمال المسلمين فرصة مبكرة لبناء علاقات اقتصادية وتجارية معها فسوف تكمل الدول الغربية تطويقها وتغلقها أمام المستثمرين المسلمين. فهذه البلاد ناشئة وتفتقر إلى الخبرة ورجال الأعمال الأوروبيين والأمريكيين والإسرائيليين لهم مصالح قوية ولديهم خبرة في الاحتواء والتطويق، ولذلك فإن المشاركة الإسلامية المبكرة في التنمية قد تؤدي إلى تحقيق نوع من التوازن الضروري وهو مدخل إلى تعميق التواصل في مجالات ذات أبعاد ثقافية وروحية مشتركة لا يجب إغفال أهميتها.

اندهشت الوفود العربية للتقدم الاقتصادي الذي حققته هذه الدول الأربعة في وقت قياسي منذ استقلالها سنة 1991م خصوصا في مجالات الخصخصة وإعادة هيكلة المشروعات الاقتصادية ومعالجة التضخم المالي وتبين لهم أن هناك نشاطات جاهزة للبدء فيها كالسياحة والمواصلات والاتصالات والبنية الأساسية لخدمات البنوك والأعمال.

ومن خلال المناقشات والاتصالات التي أجراها أعضاء البعثة وصلوا إلى قرارات ومقترحات منها:

أن يعطي بنك التنمية الإسلامي أولوية للتجارة والتمويل وضمانات للمصدرين والمستثمرين وتوصيل المعلومات إلى الراغبين في الاستثمار، ولتنظيم وإعداد وفود من الخبراء في التنمية الزراعية والصناعية، وفي البنية الأساسية لقطاعات أخرى من النشاط الاقتصادي.

كما تم الاتفاق على أن تقوم الحكومات المعنية بإنشاء وكالات للتنمية في المشروعات الاستثمارية، وتنظيم زيارات لرجال الأعمال العرب، وأن تقوم هذه الحكومات بتقديم قائمة بالمشروعات الاستثمارية وفقاً لأولوياتها التنموية .. كذلك تم الاتفاق على أن ينشئ بنك التنمية الإسلامي مكتبا مركزيا في "ألماتى" عاصمة كازاخستان الحالية — والبدء في إجراء دراسة جدوى لمشروع خط جديد (ألماتى – أكمولا)، وأكمولا مدينة جديدة يتم إنشاؤها لتكون عاصمة المستقبل لكازاخستان ومقر حكومتها.

هذه مبادرة واعدة تحتاج إلى من يتابعها ويدعمها، كما تحتاج إلى من يفتح لها الطريق لتمتد إلى أوزبكستان التي تنتظر مبادرات جريئة من رجال أعمال يفهمون كثيرا في السياسة والثقافة.

□

الفصل الثامن

تركستان الشرقية

تشكل تركستان الشرقية مع تركستان الغربية كتلـــة جغرافيـــة واحدة تبدأ من الصين شرقا ، وتمتد أفقيا فى قلب آسيا الوســطى ؛ حيث تقع روسيا والأراضى التابعة لروسيا في عهـــديها القيصــري والشيوعي السوفييتي ، لذلك وقعـــت تحـــت وطـــأة ومنازعـــات الإستعمارين الروسيّ والصينيّ اللذين تصارعا على امتلاكها لأكثر من مائتيْ عام ، وهذا الصراع بينهما ، و إختلاف الإستعمار علـــى طرفيها أدى إلى تقسيمها و تجزئتها قسمين: الشرقي ويعرف باســـم تركستان "الشرقية" أو "الصينية" ، والغربيّ الذى يُطلَق عليـــه اســـم تركستان "الغربية" أو "الروسية".

ولقد قسم الجزء الغربى الشـــيوعيون الســـوفييت إلى خمـــس جمهوريات فى عام 1922 ، وبعد إنهيار الإتحاد السوفيتى إستقلت و ظهرت الجمهوريات الإسلامية المستقلة الـــتى هـــى أوزبكســـتان ، وقازاخستان ، و قرغيزستان ، و تركمانستان ، و طاجيكستان ، فى آسيا الوسط، أما الجزء الشرقى الذى إحتله الصين عام 1876 ، فقد قام الشيوعيون الصينيون بتسميته شينجيانج أو سِنكيانج وهى تعنى في اللغة الصينية "المستعمرة الجديدة".. فتذكر هـــذه التســـمية لأن الصين فيما بعد ادّعت أن سنكيانج جزء لا يتجزّأ مـــن الأراضـــى الصينية. كما زعمت فرنسا أن الجزائر جزء لا يتجزّأ من فرنسا.

دخول الإسلام:

بعد فتح بلاد فارس وخراسان قام المسلمون في العـــام الرابـــع والتسعين للهجرة بإتمام فتح بلاد ما وراء النهر ثم إتجه المســـلمون بقيادة "قتيبة بن مسلم الباهلى" نحو الشرق حتى وصلوا إلى كاشـــغر عاصمة تركستان الشرقية و فتحوها في العام التالي .. و فى العصـــر العباسى قرر الخاقان سلطان "ستوق بغْراخان" اعتناق الإســـلام ، و تبعه فى ذلك أبناؤه وكبار رجال الدولة ... و منذ ذلك الحين أصبح الإسلام دينا رسميا فى تركستان ، و تمت ترجمة معانى القرآن الكريم ، و تم بناء ثلاثمئة مسجد فى مدينة كاشغر وحدها وأبلى أبناؤها بلاء حسنا في نشر الإسلام ؛ فكان منـــهم الـــدعاة ، و المجاهـــدون فى الفتوحات الإسلامية ، كما ظهر منهم العلماء البارزون الذين أثْرَتْ بحوثهم ومؤلفاتهم الثقافة الإسلامية فى شتى فروع المعرفة الإنســـانية والشرعية .. و كان الطلاب المسلمون من مختلـــف أنحـــاء العـــالم الإسلامى يأتون إلى "كاشغر" لدراسة العلوم الإسلامية و الإنسانية و العلوم الطبيعية ، حتى أصبحت كاشـــغر تعـــرف باســـم "بخـــارى الصغرى".

منذ ذلك الحين و أهل تركستان الشرقية كلـــهم مســـلمون ، وبقيت تركستان دولة إسلامية مستقلة حوالى عشـــرة قـــرون ....

وكانت – ولاتزال – تشكل الإمتداد الطبيعى للأمة الإسـلامية فى آسيا .

جغرافية المنطقة:

علمنا فيما سبق أن الصين تحدّ تركستان الشرقة من الشرق ، أما باقى حدودها فهي كالآتى: من الشمال ستجد "منغوليا و روسـيا الإتحادية"، ومن الغرب "قازاخستان و قرغيزستان و طاجيكسـتان و أفغانستان" ، ومن الجنوب "باكستان و كشمير و التبت".

وتبلغ مساحتها أقل قليلا من مليوني كيلومتر مربـع ، و هـى بذلك تشكل خمس مساحة الصين كلها بما فيها مستعمرات الصـين الشعبية مثل التبت و منغوليا الداخلية ، وتبلغ مساحة الصحراء فيها حواليْ 650 ألف كيلومتر مربع ، و أما مساحة الغابات فهـى 91 ألف كيلومتر مربع.

ومن القضايا المثيرة للجدل فى تركستان الشرقية هـو "عـدد السكان فيها" ، حيث لا يوجد إجماع على العدد الحقيقيّ لسـكانها فطبقا لآخر الإحصائيات الصينية وكانت في عام 1990 م – فـإن تعداد السكان الكلّي يزيد قليلا عن 15 مليون نسمة ، منهم 9،23 مليون نسمة من الأصل التركى المسلم ، إلا أن هناك جهات مستقلة قدرت تعداد السكان من المسلمين بـ 25 مليون نسمة.

ويستخدم المسلمون التركستانيون اللغات الأوجورية و القازاخية و القرغيزية ، و هى لهجات محلية تنتمى إلى اللغة التركية ، وكانت تُكتب بالحروف العربية ، و أما اللغة الرسمية بعد تمكّن الاستعمار الصينيّ فهى اللغة الصينية .

وأرض تركستان الشرقية تتميز بسلسلة من الجبال تخترق وسطها فتقسم البلاد إلى شِقّيْن الشماليّ والجنوبيّ ، كما تتميّز بأربعين نهرا و 12 بحيرة ، و يوجد بها16 مدينة كبيرة ، 126 بلدة ، و أكثر من ثلاثة آلاف قرية ، و أشهر مدنها: أورمتشى "العاصمة" و كاشغر .

وتتمتع البلاد بفصول مناخية أربعة متميزة ، صيفها معتدل لا يزيد متوسط الحرارة فيه عن 39 درجة مئوية ، و لكن فى الشتاء تنزل الثلوج كثيرا ، وتشتد درجة البرودة ، أما الربيع و الخريف فالمناخ ظاهر الاعتدال ..

حقائق تاريخية:

قام المانشو Manchu (من حكام الصين) بغزو تركستان الشرقية فى عام 759 م ، و راح ضحية هذا الغزو أكثر من مليون نسمة ... وقد شهدت فترة السيطرة الصينية التى تلت الغزو العسكرى 42 ثورة وطنية على الاستعمار الصيني ... وفى عام

1863 نجح الشعب التركستانى فى طرد الغزاة الصينيين و تشـــكيل دولة وطنية مستقلة... دامت 16 عاما.

ولكن تخوف البريطانيين من التوسع الروسى القيصرى فى آسيا الوسطى ، وخاصة بعد أن احتل الجزء الشـــمالى مـــن تركســـتان الشرقية، فقاموا بمساعدة الصينيين على احتلالها ؛ حيـــث دخلتـــها القوات الصينية بقيادة الجنرال زو زونج تـــانج عـــام 1878 م ... وعلى إثر ذلك ألغت الصين الحكم العسكرى لتركســـتان الشـــرقية وألحقتها مقاطعةً بالصين و سمتـــها باســـم ســـينكانج أو شِـــنْغيانغ Xinjing فى نوفمبر 1884 م.

وقد استمرت الثورات الوطنية ضد الحكم الصـــينى ، و أحـــرز المسلمون التركستانيون نجاحا باهرا بتشكيل الحكومة الوطنية الأولى التى كانت فى كاشغر عام 1933 م ، والثانيـــة فى جولجـــة عـــام 1944 م ، ولكن الاتحاد السوفيتى الذى لم يشـــأ أن يـــرى دولـــة إسلامية مستقلة بجوار مستعمراته فى آسيا الوسطى – قدم المساعدات العسكرية إلى للصين لمحاربة المسلمين و إنهاء دولتهم الوليدة.

و عندما سقطت حكومة الصين الوطنية "الكومنتانج" فى أيدى الشيوعيين بزعامة "ماو تسى تونج" سقطت أيضا تركستان فى أيدى الشيوعيين الذين دخلوها عام 1949 ، و أما الشعب التركســـتانى

المسلم ، فقاوم النظام الشيوعى ، ولا تزال مقاومتـــه متواصـــلة إلى اليوم.

حكم الصين الشيوعية:

بدأ الصينيون حكمهم بمجازر دموية مروّعة ، استهدفت طمس المعالم و الهوية الإسلامية ، و فرض الإلحاد الشيوعى على المســلمين بالقوة ، و ألغيت الملكية الخاصة ، وصودرت ثروات كل المسلمين بما فى ذلك حُلِيّ النساء ، ومنع المسلمون من إعداد الطعام فى منازلهم ، وفرضت عليهم المطاعم الجماعية ، والتفريــق بــين الأزواج ، و لم يسمح لهم باللقاء إلا بضع ساعات كل أسبوعين ، وكانــت المــرأة الحامل لا يُسمح لها بإجازة من العمل للولادة إلا ثلاثة أيام فقط.

ثم اتجه تنكيلهم بالمسلمين والتضييق عليهم في ممارسات شعائرهم الدينية على الوجه التالي:

منع ممارسة الشعائر الدينية ومعاقبة كل من يقوم بها عقوبــات صارمة بمقتضى القوانين الجنائية.

منع تعليم الدين الإسلامى ، وفرض تدريس الإلحاد فى المدارس والنوادى والتجمعات.

مصادرة المصاحف و الكتب الإسلامية ، و قد بلغ ما جمع منها 730 ألف كتاب مطبوع ومخطوط ، و إجبار رجال الدين و العلماء على إمتهانها وإحراقها فى الميادين العامة.

نشر الكتب والمطبوعات المعادية للإسلام ورفع الشعارات والملصقات التى تسئ إلى الإسلام وأحكامه وتعاليمه ، مثل ، الإسلام ضد العلم – الإسلام اختراع أغنياء العرب – الإسلام فى خدمة الإستعمار ... و هكذا.

اعتقال العلماء ورجال الدين واحتقارهم و فرض أعمال السُّخْرة عليهم ، وقتل من يرفض التعاون مع الصينيين ولا يسايرهم في إلحادهم .

إجبار النساء على خلع الحجاب ، وتهجير مئات الآلاف من الفتيات قسْرًا إلى مدن نائية بدون علم أهلهنّ وفرض زواج الصينيين عليهم [زنا رسمي] .. وإلغاء العمل بالأحكام الشرعية فى الزواج والطلاق والمواريث ، وفرض الاختلاط ، وتشجيع المسلمين الشباب على الزواج من الصينيات غير المسلمات بغية تخريب العلاقات الأسرية الإسلامية.

إغلاق أكثر من 28 ألف مسجد ، وإغلاق 18 ألف مدرسة دينية ، ثم استخدمت المبانى الإسلامية بمختلف أنواعها وفى مقدمتها

المساجد و المدارس فى أعمال تتنافى مع قيم الإسلام ، فقد تم تحويلها إلى حانات ومخازن.

مصادرة أموال الناشطين فى العمل الإسلامى بأى مجال كان ، سواء كان التعليم أو التدريس أو التأليف أو الترجمة ، وهدم بيوتهم ونفيهم من المناطق السكنية إلى الصحراء بعيدا عن الناس..

علاوة على ذلك عملت السلطات الصينية على فرض أساليب التجسس على أفراد الشعب كله ، ووضعت الناس تحت نظام المراقبة الصارمة ، حتى الأسرة أصبح أفرادها يتجسسون بعضهم على البعض الآخر ؛ فالإبن جاسوس على والديه ، والأب جاسوس على أبنائه ، حتى انعدمت الثقة والأمن ؛ وأصبح الاعتقال والسجن يتربص بكل فرد بسبب إشاعة يطلقها أحد العملاء ضد الأبرياء ، حتى أحجم الناس عن إلقاء السلام والتحية والتزاور واللقاء فى مناسبات الفرح والأحزان والمواساة.

كما فرض الشيوعيون العزلة على تركستان الشرقية ، حيث منع المسلمون من السفر إلى خارج بلادهم ، كما منع دخول الأجانب إليها ، و لم يسلم المسلمون الذين لهم أقارب خارج تركستان الشرقية من ظلمهم وعذابهم بتهمة أنهم جواسيس ولهم ارتباطات بالعدوّ الخارجيّ.

وعندما يتم إعدام أحد من القادة ورجال الدين الإسلامي بتهم مزيفة ، لا تسلِّم السلطات الشوعية جثثهم إلى ذويهم لإقامة مراسم الجنازة والدفن الشرعي لهم، وإنما تقطّع جثثهم وتعلّقها فى الشوارع لإرهاب المسلمين وتخويفهم.

وقد ضاق المسلمون ذرعا بهذه المظالم الوحشية والاضـــطهاد ، فهب التركستانيون يدافعون عن دينهم وحقوقهم المشـــروعة ، في ثورات متتالية ، سقط فيها 360 ألف شهيد .. وفى مدينة كاشغر وحدها تم اعتقال 75 ألف مســـلم ، حُشِـــدوا فى 19 معســـكر للأشغال الشاقة ، وبلغ عدد المُهجَّرين قسريّا والمشردين 200 ألـــف لاجئ.

ما بعد ماوتسى تونج:

بدأت الفترة االراهنة بعد أن مات ماوتسى تونج عام 1978 م حيث نجح الصينيون الشيوعيون في تثبيت أقـــدامهم فى تركســـتان الشرقية ، وذلك بعد أن تم القضاء على الزعماء الـــوطنيين ورجـــال الدين الأحرار ، وتم تطبيق سياسة التصيين الإدارى والتعليمى والثقافى بأساليب البطش والتنكيل.

وبعد أن اطمأن الشيوعيون إلى سيطرقم على مقاليـــد الأمـــور والسلطة فى تركستان الشرقية ، بدأ الحكم الشيوعى فى تطبيق سياسة

الإرهاب المكشوف فى تحقيق أهدافه الإلحادية والإستعمارية ، وقد أُعلن عنها صراحة فى وكالة الأنباء الصينية التى ذكرت أن حكومة الصين الشعبية تقوم حاليا بتنفيذ إجراءات جديدة ، وإعداد برامج مدروسة لتحويل تركستان الشرقية إلى مقاطعة صينية خالصة ، وطمس المعالم الوطنية والإسلامية لتركستان الشرقية .. ومن أبرز هذه الممارسات القمعية مايلى:

أولا: محاربة الانتماء الدينى لشعب تركستان المسلم ، وذلك بالتضييق على أفراد المجتمع فى ممارسة شعائرهم الدينية ، ومنع التعليم الدينى عن أبنائهم لقطع صلة الأجيال الجديدة بتراثهم وهويتهم الإسلامية.

فمثلا فى يوم 5 إبريل 1990 فى قرية "بارين" فى منطقة "أقتو- فى جنوب كاشغر" أراد المسلمون بناء مسجد لهم ، فاعترضتهم السلطات الشيوعية ، واشتبكت مع المسلمين، وأطلقت الرصاص ، ثم قصفت القرية بالمدافع والطائرات ، وألقت القنابل اليدوية على بيوت الفلاحين ، وأجبر الشيوخ والنساء والأطفال على الخروج ، فمن لم تقتله القنابل قتله الجنود الصينيون بالرصاص ، وفى هذه القرية الصغيرة بلغ عدد القتلى بضع مئات ، واعتقل أكثر من ألف شخص ، أودعوا في السجون .

ولأن أخبار هذه الواقعة تسربت إلى وكالات الأنباء العالميـــة ، اضطرت الحكومة الصينية للاعتراف بها وللتمويه أذاعت أن عـــدد القتلى المسلمين ستون شخصا فقط.

ثانيًا: ألقى سونغ هان ليانغ رئيس الحزب الشـــيوعى الصـــينى لمقاطعة تركستان الشرقية "شنغيانغ" تقريرا عن "حادثـــة بـــارين" فى اجتماع اللجنة المركزية له فى 21 إبريل 1990 تضمن أن السلطات الصينية ستطبق إجراءات صارمة ضد النشاط الإسلامى فيها على هذا النحو:

إجبار جميع رجال الدين على حمل تصاريح رسمية تمنح لهم على ضوء تقارير الجهات الأمنية التى تؤكد تعاونهم ومـــؤازرتهم لرجـــال السلطات الصينية والحزب الشيوعى ، وتجدد لهم التصاريح ســـنويا حسب هذه التقارير.

إرسال الأئمة ورجال الدين إلى معســـكرات العمـــل لإعـــادة تأهيلهم وفق المبادئ الشيوعية.

استدعاء رجال الدين إلى المراكز الأمنية ، وإجبارهم على توقيع تعهدات بالامتناع عن تعليم أبناء المسلمين أحكام دينهم ، أو تعلـــيم قراءة القرآن فى المساجد أو المنازل.

الاكتفاء بالمساجد القائمة وترميمها بحجة أنها أكثر مما يجب ، و حظر استخدام مكبرات الصوت بدعوى أنها تسبب إزعاجا لســـكان

الأحياء ، مع قصر استعمالها فى المدن الرئيسية الـــتى يتـــردد عليهـــا السياح الأجانب ، وأن يكون استخدامها لصلاة العيدين و صـــلاة الجمعة فقط ، و قد أدت هذه الإجراءات إلى إيقـــاف بنـــاء 253 مسجدا و إغلاق 50 مدرسة فى "كاشغر".

كما ذكرت جريدة شِنْغيانغ الرسمية بعـــددها الصـــادر فى 18 نوفمبر 1991 خبر تطهير الحزب الشيوعى من 25 ألف من رجال الدين ممن تشكُّ في ولائهم للحزب ، وأشارت أيضا فى عدد آخر أن السلطات الشيوعية اعتقلت 6400 مسلمًا منهم 182 متهمًا بجريمة عجيبة اسمها "الرجعية" ويقصدون بها احتفاظ الشخص بميوله وعاداته الإسلامية.

واقعة جولجا:

أحدثت هذه الواقعة عام 1997م زلزالًا داخل الصـــين وفى تركستان بوجه الخصوص .. وكان من ضـــمن الإجـــراءات الـــتى مارستها السلطات الصينية أن وقّع "لى بنج" رئيس وزراء الصـــين فى 3 يناير 1994 قرارين بخصوص حظر النشاط الدينى ، مـــن أبـــرز نقاطهما:

القرار رقم [145] الذى يقضى بغلق جميع أمـــاكن العبـــادة السرية والنشاط الدينى السرى التى انتشرت فى الصين خلال السنوات الأخيرة ، ويتم مراقبة جميع النشاطات الدينية.

والقرار رقم 144 : عدم التصريح للأجانب بإنشاء معابـــد أو مؤسسات أو هيئات دينية يتحكمون من خلالها في النشاطات الدينية أو المراكز الثقافية أو المدارس الدينية ، كما يمنع الأجانب من الاتصال برجال الدين المحليين أو توجيه نشاطهم.

وصدر قرار مصاحب من الحزب الشـــيوعى فى تركســـتان أن الشباب دون العشرين يمنع دخولهم إلى المساجد للصلاة ، ووضـــعوا على أبواب المسجد (يوم الجمعة) عساكر يفتشون البطاقة الشخصية لكل واحد ؛ فإذا لم يكن قد وصل إلى سن العشرين لا يسمحون له بالدخول إلى المسجد.

و علقوا على واجهات المساجد لوحات "ممنوع دخول المساجد للشباب دون العشرين"

ثالثا: منع أفراد الشعب التركستانى مـــن ممارســـة حقـــوقهم الإنسانية المشروعة كالتعليم وحرية الانتقال ، إلى جانب الاعتـــداء البدنى عليهم بالمطاردة والاعتقال، بل والقتل ، كما أثبتـــت ذلـــك منظمة العفو الدولية .

و لم يتم حظر التعليم الإسلامى فقط ، ولكن شمل الحظر أيضـــا تعليم المواد العلمية الأخرى.. ويجرى التضييق على المسلمين بأساليب مختلفة لحرمانهم من التعليم أصلًا ؛ فقد كانت نســـبة المســـجلين في المدارس الابتدائية ضئيلة جدا ، وكذا في المدارس الثانويـــة ، أمـــا الجامعات والمعاهد العلمية فلا يدخلها أكثر من10% من مجمـــوع الطلاب المسلمين خريجى الثانوية العامة ، ولايزيد نســـبة الأســـاتذة المسلمين في الجامعات التركستانية عن 26% مـــن جملـــة أســـاتذة الجامعات ، والباقى من الصينيين..

وقد أدت هذه الأوضاع إلى نتائج بائسة في تعليم المســـلمين ، فقد انخفضت نسبة المتعلمين إلى 94 شخص من كل ألف مسلم من السكان .. كما أن جميع الكتب التى تدرس فى المعاهد العليا والفنيـــة مكتوبة باللغة الصينية .. بعد إلغاء استعمال اللغة الوطنية التركستانية، مما يشكّل صعوبة بالغة في استيعابها وفهمها .. وقد انعكس هذا على تخلّف الطلاب المسلمين عن نظائرهم في المدارس الصينية .

وقد بادر العديد من آباء المسلمين بإرسال أبنـــائم إلى مـــدارس اللغات الصينية ، حيث يمكنهم فيما بعد تخرجهم دخول المعاهد العليا دون مواجهة مشاكل لغوية. ولكن هذا لم يعالج المشـــكلة ؛ فـــإن الطلاب المسلمين بعد تخرجهم من المعاهد العليا الصينية ، أصبحوا ، يواجهون صعوبات فى التحدث بصورة صحيحة بلغتـــهم الأم ....

فهم يلجأون إلى استخدام الكلمات الصينية فى حديثهم ، مع ذويهم، مما أضعف حالة التواصل بين الأجيال .. وقد بدأت تترتب على هذا مشكلات ، في الهوية والعادات السلوكية المتضاربة بين أعضاء الأسرة الواحدة ..

و بعد كل تلك الصعاب إذا تمكن البعض من إكمال تعليمه بعد جهد فلا يجد عملا يتناسب مع مؤهلاته ، ومن ثَمَّ فمصير الأغلبيــة هو ممارسة الحرف اليدوية.

وقد جرت السياسة الصينية على استبعاد المسلمين التركستانيين من مواقع العمل ، وحرمانهم من الوظائف ذات المسئولية والقيــادة ، وتضييق فرص التعليم عليهم .. وفوق ذلك تمنع الحكومــة الصــينية الطلاب التركستانيين من السفر إلى خارج الــبلاد بقصــد التعلــيم الإسلامى أو غير الإسلامى .

رابعًا: مصادرة ثروات المسلمين وحرمانهم من خيرات بلادهم ، وفرض حياة العوز والفقر علــيهم وإهمــال التنميــة الإقتصــادية والإجتماعية .

وعلى الرغم من كثرة و تنوع الثروات الطبيعية التى تحتضــنها أراضى تركستان الشرقية ، والتى يستغلها الصينييون ، إلا أن الشعب التركستانى المسلم يعيش فى مستوى معيشيّ منحطّ ؛ حتى أن أكثــر من 80% منهم تحت مستوى الفقر ، حيث لا يزيد دخل الفــرد

السنوى – في المتوسّط – عن خمسين دولارا كما أن برنامج الإصلاح الاقتصادى الذى يسمح للشعب التركى المسلم بالعمل فى التجارة ، إنما وضع بهدف إبعاد أبناء تركستان الشرقية عن شغل الوظائف القيادية والإدارية والتخطيط .

وحتى فرص الأعمال الإنتاجية والعمالة فهى من نصيب الصينيين .. فمثلا فى العاصمة أورمتشى يوجد 200 ألف عامل فنى، منهم 10% مسلمين فقط ، أما فى مصنع الجرارات بالقرب من المدينة ، والذى يعمل فيه 2100 عامل منهم 13 عامل مسلم فقط .. وهذا ما يؤكد احتكار الصينيين حتى لوظائف العمالة المهنية فى تركستان الشرقية ، ويفسر عدم وجود بطالة بينهم، بينما تنتشر البطالة بين المسلمين بصورة كبيرة فى وطنهم.

فى شهر نوفمبر 1988 عينت السلطت الصينية مديرا صينيا لمصنع نسيج الحرير فى مدينة خوتن ، وبدأ هذا المدير الصينى عمله بفصل 400 عامل مسلم من المصنع وإحلال عمال صينيين مكانهم ، مع أن العمال المسلمين يعملون فى المصنع المذكور منذ سنوات طويلة، وقام العمال المسلمون مع عوائلهم بمسيرة احتجاج ، ورفع ممثلوهم شكوى إلى الحاكم المحلى الذى يعود إلى أصل تركستانى مسلم ، وتحدث مساعد الحاكم مع نائب رئيس الحكومة الشعبية

الإقليمية الذى أجابه بقوله: لقد خوّلْنا مديرى المصانع بالسلطة فى فصل وتعيين من يرغبون ، ولا يمكننا عمل أى شئ حيال ذلك .

وهكذا بدلا من إيجاد فرص لآلاف الشباب التركستانى المسلم ، فالحكومة الصينية تمارس القوة و الإكراه على تسريح العمال المسلمين من أعمالهم .

ويعلّق أحد المسئولين الصينيين على هذا الوضع المأساويّ فيقول: لقد أصبح مسلمو تركستان الشرقية كمن يتسول و بيده وعاء من ذهب ؛ فتركستان الشرقية غنية بكل شئ ولكن السلطات الصينية تستخرج كل شئ، وتنهب الخيرات إلى داخل الصين الشعبية.

وللعلم فإن مساحة الأراضى التى تحتوى على البترول والغاز الطبيعى في تركستان الشرقية تبلغ 740 ألف كيلومتر مربعا ، أى ما يعادل مساحة فرنسا وألمانيا مجتمعة ، أما مخزون الملح الصخرى فيقدر بما يكفى استهلاك العالم كله لمدة ألف عام .. واكتُشف الذهب وتم استخراجه من ستين منجمًا بمنطقة (ألتاى) فقط من أصل 70 .. و تبلغ مناجم الفحم 88 ألف كيلومتر مربعا وتشتهر مدينة خوتن فى الصين كلها بالأحجار الكريمة .

ومع أن السلطات الشيوعية تدعى أن مستوى معيشة الفلاحين قد ارتفع منذ تطبيق قانون تأجير الأراضى، إلا أن الواقع – كما يقول الفلاحون – لم ينجم عن نظام تأجير الأرض سوى زيادة البؤس والشقاء لمئات الفلاحين ؛ خاصة أنهم يمثلون 85% من أبناء تركستان الشرقية ... فالضرائب التى فرضت عليهم بحجة التأجير والاستثمار الخاص ، أجبرت آلاف الفلاحين على إعادة الأراضى المستأجرة لعدم قدرتهم على السداد .

ومن المشاكل التى يواجهها المزارعون المسلمون هو أنهم يُجبرون على العمل فى المزارع الحكومية لفترات قد تصل إلى ستة أشهر أحيانا بدون عائد مالى ، ولا يُمَكَّنون من العمل فى الأراضى التى استأجروها ، مع العلم أن مواطنى تركستان يُجبرون بحكم قانون الحزب الشيوعى على العمل لمدة 45 يوما فى السنة بدون راتب .

خامسًا : الحكم الذاتى المزعوم فى تركستان الشرقية صورى لا يمثل إرادة الشعب الذى لا يتمتع بسلطة وطنية ، بل يديره الصينيون و ينفذه الموظفون التركستانيون بالإكراه.

فى الوقت الذى يقال إن تركستان الشرقية "إقليم ذو إستقلال ذاتى" كما يوحى اسمها الذى أطلقه الصينيون عليها "مقاطعة شِنغانغ أويغور الذاتية الحكم" ، ولكن الحقيقة أن الشعب التركستانى لا

يتمتع بأى قدر من الاستقلال الذاتى . فالحكم يتولاه "سونغ هـــان ليانغ" رئيس المكتب السياسى للجنة الحزب الشـــيوعى الصـــينى ، ويشغل الصينيون معه مراكـــز القيـــادة و الســـيادة ، ولا يشـــغل التركستانيون وهم أصحاب البلاد إلا 10% من الوظائف الإدارية.

والمساواة التى يتشدق بها الصينيون مفقودة ، والتركستانيون هم فى الدرجة الثالثة من المواطنة ، بل هم محرومون من أبسط الحقـــوق الإنسانية ، فمثلا إذا تخاصم صينى مع تركستانى فإن العقاب عـــادة ينزل بالتركستانى ، وإذا كان رئـــيس الشـــرطة أو المحكمـــة مـــن التركستانيين فإنهم يتجنبون إنزال العقوبـــة فى الصـــينى ، حـــتى لا يؤخذون بتهمة التطرف والتعصب القومى .

وإذا حدث أن رئيس مجلس الإدارة ، أو رئيس قسم أو مـــدير إدارة .. وهو تركستانى .. اتخذ قرارا لصالح أبناء جلدته و لم يكـــن ذلك القرار يفيد الصينيين ، فإن ذلك المسؤول التركستانى يبعد مـــن منصبه ، وقد يبعث إلى بكين لمزيد من التأهيل في تنفيـــذ السياســـة الصينية .

سادسا: إغراق تركستان الشرقية بالمهاجرين الصينيين وإحلالهم فى أماكن عمل وسكن وأملاك أهل البلاد المسلمين ، ممـــا أدى إلى إنتشار البطالة بينهم ، وتقلصت فرص التعليم والتداوى ، وتعـــرض

المسلمون لمشاكل إجتماعية بسبب إختلاف دينهم و عاداتهم و تقاليدهم.

و مع أن المسلمين التركستانيين يعرفون أن عدد المهاجرين الصينيين الآن يزيد عن 20 مليون نسمة ، إلا أن السلطات الرسمية تخفى حقيقة الأمر ، و تقول إنهم 6 ملايين نسمة فقط.

و كان "هو ياوبانغ" سكرتير عام الحزب الشيوعى الصينى الأسبق ، قد صرح بأن منطقة تركستان يمكن أن تستوعب 200 مليون مستوطنا صينيا بكل سهولة .. و فى الوقت الذى تدعى فيه الأجهزة الصينية بأنها ترسل الخبراء و الفنيين الصينيين للمساهمة فى تحديث إقتصاد تركستان الشرقية ، إنما هى فى الواقع ترسل المجرمين و القتلة ، فالمجرمون الذين يدانون بالمؤبد والأشغال الشاقة فى أنحاء الصين ، يتم إرسالهم لقضاء عقوبتهم فى تركستان الشرقية.

ويوجد حاليا 19 معسكرا للأعمال الشاقة تشرف عليها مباشرة وزارة الأمن العام المركزية فى الصين .. و المسجون الذى تنتهى فترة عقوبته لا يسمح له بالعودة إلى بلده الصين ، بل يُجبر على الإستيطان و يُلحق به عائلته ، ويوجه إلى العمل فى زراعة الأراضى التى تغتصب من المسلمين .

ويقدر عدد الصينيين المجرمين الذين تم توطينهم فى تركستان الشرقية قرابة مليون شخص ، وقد أدى هذا إلى إرتفاع نسبة الجريمة

بصورة حادة ... فقد ذكرت التقارير الرسمية عن إزدياد الاعتداءات الصينية على المسلمين الأتراك ، بما فى ذلك السرقة والإغتصاب والقتل ، ومن لم يصدق هذه السياسة الصينية ليقرأ كتاب "النفى فى الصين فى عهد المانشو: العقوبة إلى تركستان الشرقية" وهو بحث علمى قدمته " جوانا والى كوهين" لنيل درجة الدكتراه من جامعة ييل الأمريكية وتم نشره سنة 1991م

Joanna Waley – Cohen : Exile in Mid Qing - China Punishment to Xingjang Yale University Press 1991 . .New Heaven XV + 267 P .

سابعًا: القيام بتنفيذ التفجيرات النووية فى الأراضى التركستانية، مما نتج عنه تلوث البيئة بالسموم ، ونشر الأمراض الخطيرة بين أفراد الشعب التركستانى المسلم.

بالرغم من الموقف الدولى لإيقاف التفجيرات النووية والنداءات الدولية والشعبية، فإن الصين تصر على تنفيذ تجاربها النووية .. فمنذ عام 1964 أجرت بكين 35 تجربة نووية فى أراضى تركستان الشرقية دون اتخاذ أى تدابير من شأنها حماية المدنيين من أخطار التلوث النووى ، وقد أثرت هذه التجارب تأثيرا سيئا على المحاصيل الزراعية وعلى الإنجاب ، وفى عام 1990 مات أكثر من 800

تركستانى مسلم بأمراض غير معروفة ... وفى التقرير السرى لرئيس مقاطعة شنجانغ فى أوائل عام 1988 أكد ولادة عشرين ألف طفل مشوه . وفى نفس العام 1988 نسبت منظمة الصحة العالمية فى تقريرها موت 3961 شخص مصاب بمرض مجهول فى منطقة خوتن فقط.

كما وردت التقارير عن تزايد حالات الإصابة بسرطان الرئة وسرطان الجلد وسرطان الكبد وغير ذلك من الأمراض الخطيرة ، مثال ذلك : عدد الشباب المصابين بشلل الأطراف بلغ أكثر من 5000 شخص فى كاشغر فقط فيما بين يوليو 1990 ، ومن المعروف من إهمال الحكومة الصينية بالأمور الصحية لهو أمر مقصود لاستئصال الوجود الإسلامى .

ثامنًا: إجبار أفراد الشعب التركستانى المسلم على تنفيذ سياسة تحديد النسل وممارسة أقصى العقوبات للمخالفين لهذه السياسة التى تهدف إلى خلخلة التركيب الديموغرافى للسكان الأصليين لتركستان الشرقية .

وتروِّج حكومة الصين قلة الكثافة السكانية فى تركستان الشرقية، وتعمل على نقل ملايين الصينيين من داخل الصين إليها ،

وتستهدف خططها إلى توطين مئتيْ مليون صينى فيها خلال الأعـــوام القادمة .

ولذلك تستخدم السلطات الصينية كافة الإجراءات الوحشية التى لامثيل لها فى تاريخ الإنسان لمحاربـــة تزايـــد عـــدد المســـلمين التركستانيين:

ففى عام 1991 قدرت الإحصائية الحكومية بأن عدد ســـكان بلدة "ينكى" صار حوالى 200 ألف نسمة ، وأن عدد النساء اللاتى بلغن سن الحمل 35 ألف امرأة ، فقامـــت الســـلطات الحكوميـــة الشيوعية بإجبار النساء على ما يلى :

9360 إمرأة استخدمن اللولب .

4200 امرأة تم إجراء عملية ربط المبايض لهن .

9530 امرأة أسقط جنينهن .

7420 امرأة أعطين حقن منع الحمل .

1070 امرأة توفيت بسبب الإجهاض الإجبارى .

1493 امرأة خضعن لتجارب منع الحمل .

والنتيجة أن عدد من تم السماح لهن من النساء بالحمل هو أقـــل من 2000 امرأة، ومن حرم منهن من الحمل أكثر مـــن 33ألـــف امرأة، وتفيد التعليمات الحكومية بأن المنطقة التى يزيد عدد ســـكانها عن 180 ألف نسمة ، لا يسمح لها بتزايد سكانها عن أربعـــة آلاف

نسمة فى السنة . وبشرط ألا يزيد عدد السكان الكلى عـــن 190 ألف نسمة خلال 3 سنوات .

وفى عام 1992 بلغ عدد النساء والرجال الذين فرض علـــيهم عمليات منع الحمل 27900 شخصا ، وتم إسقاط جـــنين 7100 امرأة فى ولاية خوتن ... و قد أدت هذه الإجـــراءات إلى انخفـــاض عدد المواليد إلى 19700 مولود ، أى بنقص 11739 مولود عـــن عام 1991 .

أما الأسرة التى تتهرب عن الالتزام بنظام تحديد النسل فتتعرض للعقوبات التى نصت عليها المادة 44 من نظام تحديد النسل الـــذى وقعه رئيس المقاطعة فى 7 إبريل 1992 وهى كالأتى:

موظف الدولة غرامة مالية من 300 إلي عشـــرة آلاف يـــوان سنويا.

الموظف المدنى يدفع من عشرة آلاف إلى عشرين ألـــف يـــوان سنويا.

المزارع يدفع مايساوى دخله فى العام السابق ، وقد يتضـــاعف إلى عشرة أمثاله .

أما شواهد المآسى الشخصية التى يرويها الأفراد عن معاناتـــهم الذاتية ، فتوضح مدى الوحشية التى يعانيها الإنسان مما يمارس ضـــده من ظلم لامثيل له كالآتى:

يفيد أحد الأطباء العاملين فى مستشفى "كرم بـاغ" فى مدينـة كاشغر ، بأن أكثر من عشرة ولادات تتم فى المستشـفى المـذكور يوميا، و يتم فيها قتل الجنين بعد ولادته مباشرة بضربه أو بخنقـه ، وتحقن الأم بحقنة منع الحمل بدون إشعارها بذلك ، ولا تتمكن مـن رؤية مولودها لأنهم يفيدونها بأن الجنين ولد ميتا ، ثم تشـحن هـذه الأجنة إلى معامل فى بكين وشنغهاى .

فى 1993/2/14 وفى القرية رقم 6 من بلدة قومـا وضـعت السيدة دولت خان مولودها الرابع ، وباعت كل ممتلكاتها لـدفع الغرامة المالية حتى تحتفظ بالطفل ، ولكنها فى اليوم السادس أجـبرت على إجراء عملية ربط المبيض ، ثم ماتت بعد ذلك بثلاثة أيام .

تاسعًا : من وسائل التذويب التى يتبعها الصينيون فى تركسـتان الشرقية منذ سـنين طويلـة ، تشـجيع الـزواج بـين الصـينيين والتركستانيين ويكافأ كل تركستانى يتزوج من صينية بمبلغ يعـادل أربعمائة دولار يدفع له فور إبرازه قسيمة الزواج ... ويعتـبر هـذا المبلغ كبيرا إذا قيس بالراتب الذى يتقاضـاه الموظـف هنـاك ... وحسب ذكر وكالة الاستعلامات الخارجية فإن الشباب التركستانى العامل فى القرية النائية إذا تزوج بالصينية يحصل على عمل براتـب

مغرى فى المدن .... ويكافأ بألف دولار إضافة إلى عمل جديـــد فى المدينة ، والمولود من هذين الزوجين يحظى برعاية الحزب الشيوعى ، ويسجل على إنه من الجنس الصينى..

وفى المقابل تذكر الوكالة فى نشرها أن التركستانيين يقـــاطعون كل من يتزوج بصينية من أبناء جلدهم ، ويطردونه من مجالسهم ..

وقد وضع الصينيون شروطا جزائية قاسية لمن يريـــد تطليـــق الزوجة الصينية ، ومن هذه الشروط دفع نفقة الزوجة المطلقة وتقدر بألفى دولار كحد أدنى ... ومن النادر أن تجد إنسانا يستطيع دفـــع مثل هذه النفقة ، ولذلك فإن كثيرا من هؤلاء الشباب يقدمون على الإنتحار ، وهذا نوع آخر من أنواع حرب الإبادة ضـــد المســـلمين التركستانيين .

نشاط دينى تحت الأرض:

في مواجهة هذا الاستبداد والقمع المروّع من جانب ســـلطات الاحتلال الصيني .. اختفت كل مظاهر العبادات الإسلامية ، وكـــل نشاط ديني يحاول به العلماء الحفاظ على البقية الباقية مـــن التعلـــيم الإسلامي للشعب المطحون- تحوّلت أنشطة العلماء والدعاة المستميتة لتعمل تحت الأرض ، بعيدًا عن أعـــين المـــتطفلين والجواســـيس .. والمبرّرات لهذا أكثر من تُحصى ؛ ولكن يأتي على رأسها حقيقة أنه

لا يوجد فى تركستان الشرقية عالم دين إلا وسجن عـــدة مـــرات ، ويزيد عدد العلماء الذين تم إعتقالهم عن 54 ألف ، مـــات الكـــثير منهم من وحشية التعذيب ، وعندما يطلق سراح بعضـــهم تجعلـــهم السلطات يوقّعون على إقرارات وتعهدات بعـــدم تـــدريس العلـــوم الإسلامية .. ولكن هذه الإجراءات القمعية لا تنجح دائما ؛ إذ تجد من يقاومها بطريقة أو أخرى؛ من ذلك أن بعض العلماء قاموا بفتح مدارس سرية في القُرَى لتعليم أبناء المسلمين العلوم الإسلامية وقراءة القرآن.

إنها ليست مدارس بالمعنى الصحيح ولكنها بيوت عادية محاطـــة بكثير من السرية ، وتوجد المئات من هذه البيوت المدرسية تحتضـــن آلاف الطلاب والطالبات من أبناء تركستانيين، حفظ كـــثير منـــهم القرآن بأكمله . في ظروف من الفقر المدقع : تصـــوّر أن هـــؤلاء الطلاب لا يجدون حتى الحصير يجلسون عليه ، بل يفترشون التـــراب ولا يأكلون طعاما مطبوخا إلا كل ثلاثة أيام.

وقد جرت العادة أن يأتي التلاميذ من بيوتهم ، وكل واحد منهم يحمل طعاما يكفيه لمدة أسبوعين .. وأي طعام..! إنه مجـــرد خبـــز جاف وماء ، وكذلك يفعل معلّمهـــم ؛ ثم يـــدخلون جميعًـــا ولا يخرجون من ذلك البيت القروى لمدة أسبوعين كاملين ، فلا يعـــرف

عنهم أحدٌ شيئا ، لأنهم لايرفعون أصواتهم أبدا خوفا من الجواسيس المنتشرين في كل مكان .

وقد يحدث أن يؤلف أحد العلماء الأحرار كتابًا أو يقوم بترجمة كتاب عن الإسلام ولكنه لا يستطيع طبعه فى تركستان ، فيرسله سرا إلى إحدى مقاطعات الصين مثل كانسو و لينجيشيا حيث يقوم بطبعه بعض المسلمين الصينيين ، ثم يعاد الكتاب بنفس الأسلوب ليتم إدخاله تركستان سرا .. كذلك يقوم العلماء والدعاة بالتوعية والإرشاد فى حلقات سرية وخلال زيارات ينظّمونها لزيارة الناس فى بيوتهم سرا .

ولك أن تتصور العزلة التى يعيشها المسلمون فى تركستان الشرقية ؛ حيث لا توجد لهم علاقات بالهيئات والمؤسسات الإسلامية فى العالم ، فالحكومة الصينية تفرض حصارا محكما حول تركستان الشرقية ، وتراقب كل من يزورها من الأجانب ، كما إنها تراقب المسلمين الذين يقومون بزيارة الدول الإسلامية .. حتى أن الحجاج الذين يذهبون لأداء فريضة الحج ترسل السلطات الصينية معهم جواسيس تراقب تحركاتهم وترصد أنفاسهم ، وتدقق في علاقاتهم بالمهاجرين التركستانيين الذين يعيشون فى الأراضى المقدسة وتركيا .. وأما الهيئات والجمعيات الإسلامية العالمية ، فلا يمكن لها الاتصال بالمسلمين التركستانيين إلا عن طريق ما يطلق عليه "الجمعية

الإسلامية الصينية" التى ليست أكثر من مؤسسة تجسس لمراقبة الأنشطة الإسلامية وتوجيهها حسب سياسة السلطات الشيوعية .

شاهد عيان:

الدولة الكبرى الوحيدة التي كتبت عنها أو عن شئونٍ تتعلّق بها دون أن أعيش فيها أو أقوم بزيارتها هي الصين ، وأظن أننى كنت أيضًا أنأَى بنفسى عن الصين ربما لأسباب عاطفية غامضة لم أناقشها مع نفسي ، ودليل ذلك أننى أتيحت لى الفرصة للعمل فيها كسفير شعبي ممثّلٍ للجمعية الأسترالية الملكية للمكتبات والمعلومات ، على أن يكون مقر عملي هو المكتبة القومية الصينية في العاصمة بكين ، وقد حددت الجمعية وظيفتى ، في اختيار أفضل وأنسب العناصر الطلابية المرشحة لمنح دراسية عليا في علم المكتبات والمعلومات بالجامعات الأسترالية .. أما لماذا تم اختيارى أنا بالذات لوظيفة شرفية كهذه ؛ يطمح إليها كثير من الشباب الأسترالي– فقد كان بالنسبة لى مفاجاة مثيرة للدهشة . لولا أن خطاب إدارة الجمعية قد تطرّق إلى أسباب موضوعية لهذا الاختيار ، لا أميل إلى ذكرها ؛ حيث أكره أن أجدنى في موقف الثناء على نفسي . كان هذا العرض في سنة 1979م في ذات الوقت الذى تم فيه انتدابى رسميا من قِبل منظمة اليونسكو في باريس خبيرًا ضمن بعثتها إلى جامعة قطر المزمع إنشاؤها .. لأشرف

على إنشاء وتجهيز وتنمية العناصر البشرية والمادية لمكتبات جامعة قطر [البنين والبنات] ، فلم أتردّد كثيرًا في اختيار وظيفة اليونسكو ، لأنى فضّلت استثمار جهدى لدولة عربية مسلمة .. ووجدها فرصة لتحقيق رغبة أبى الذى أرسل إلي خطابًا شديد الاختصار ، بالغ التأثير حيث قال: ألم يئن الوقت يابُنىّ بعد زمن مرّ كأنه دهر أن نراك وأسرتك قريبًا منا في دولة عربية .. فتهدأ نفوسنا وتقرّ أعيننا- بدلا من غيابكم في هذه البلاد النائية التي لا سبيل إلى الوصول إليها .

حسمت موقفى حينذاك واعتذرت عن قبول وظيفتى الصينية .. ولكن بقيت لى مشكلة الكتابة عن الصين بثقة أشعر بأنها منقوصة .. حتى ظهر للكاتب الصديق الأستاذ فهمي هويدى في سنة 1981م كتابًا بعنوان "الإسلام في الصين" التي زارها واطّلع على أوضاعها – وكتب عن موضوع المسلمين في "شنغيانغ" كشاهد عيان يحظى منى بعميق الثقة في صدقه وتحرياته .. وزادنى ثقة أنه ظل يتابع هذا الموضوع ويكتب عنه على مدى ثلاثين عاما تالية .. فدعنا نقتبس بعض لمحات من شهادة فهمي هويدى العادلة:

نشرت له "الجزيرة" في 14يولية سنة 2009م مقالة بعنوان "منسيون ومعذبون في الصين" تعليقًا على أحداث انتفاضة مسلمة قابلتها الصين بعمليات قمع وتعذيب مفرط إلى أبعد الحدود .. قال:

"لا شيء إيجابي في أحداث الصين الأخيرة، سوى أنها ذكرتنا بعذابات ملايين المسلمين المنسيين في أنحاء المعمورة، الذين لم يعودوا يجدون أحدا يعنى بأمرهم.

كان المسلمون في شنغيانغ يشكون من التضييق عليهم في العبادة ومنعهم من الحج .كما كانوا يشكون من حرمانهم من الوظائف الحكومية وتفضيل الصينيين من عرق الهان عليهم..

لم أفاجأ كثيرا بانفجار غضب المسلمين في شنغيانغ، ذلك أنني أحد الذين عرفوا معاناة الإيغوريين منذ أن زرت بلادهم قبل ربع قرن، ووقفت على آثار الذل والقهر والفقر في حياتهم. وقتذاك نشرت عنهم عدة استطلاعات في مجلة العربي طورتها في وقت لاحق وصدرت ضمن سلسلة عالم المعرفة بالكويت في كتاب عنوانه الإسلام في الصين."

ويتابع فهمى هويدى شهادته فيقول:

"كانت تلك الزيارة بداية علاقة لم تنقطع مع الإيغوريين، سواء في باكستان المجاورة، أو في تركيا التي لا تزال تعتبر أن ثمة نسبا يربطهم بهم ، رغم أن بلادهم صارت شنغيانغ (المقاطعة الجديدة) بعد شطب الاسم الأصلي وحظره، بحيث لم يعد أحد يجرؤ على أن يذكر اسم تركستان الشرقية الذي كان معترفا به قبل أن تبتلعها الصين في أواخر القرن التاسع عشر.

هذه العلاقة وفرت لي بشكل شبه منتظم كمًّا من المعلومـــات، اعتمدت عليها في كتابة مقالات عدة، نشرت في العقدين الأخيريـــن في الصحف العربية، خصوصا مجلة المجلة التي كانت تصدر من لندن.

وكان رجاء الإيغوريين المقيمين في باكستان بالذات، أن لا أشير إلى أسمائهم، لأن ذلك يعرضهم للخطر حين يذهبون إلى بلادهم بين الحين والآخر، وهو ما قدرته واستوعبته، بعد درس قاسٍ وبليغ تلقيته من تجربة مماثلة مررت بها في وقـــت ســـابق، حـــين زرت الاتحـــاد السوفياتي وكتبت عن أوضاع المسلمين هناك، وكان أحد مصادري شاب من النشطاء لم أذكر اسمه، ولكن أحد رفاقه وَشَى به.

وعلمت فيما بعد أنه حوكم وأعدم. وهى الواقعة التي ما زالت تشعرني بالحزن حتى الآن. حيث لم أعرف بالضبط مـــا إذا كانـــت لقاءاته معي هي تهمته الوحيدة، أم أن هناك اتهامات أخرى نســـبت إليه." .. يقول فهمى هويدى:

" أول إشارة فتحت عيناي على حقيقة معاناة المسلمين الإيغور وقعت في اليوم الأول من وصولي إلى عاصمتهم أورمتشى، إذ سألت عن فرق التوقيت لكي أضبط ساعتي، وفوجئت بأن كثيرين هنـــاك ضبطوا ساعاتهم على توقيت باكستان لا الصين. وهـــو مـــا أثـــار فضولي، لأنني طوال الوقت ظللت أتحرى إجابة السؤال، لماذا يعتـــبر

الإيغوريون أُهم جزء من العالم الذي تمثله باكستان، وليسوا جزءا من البلد الذي يعيشون في رحابه منذ نحو 150 عاما؟

كنت قد حملت معي من الكويت حقيبة ملأتها بالمصاحف متوسطة الحجم، بعدما أدركت من زيارة سابقة للاتحاد السوفياتي وقتذاك أن المصحف هو أثمن هدية يمكن أن يقدمها القادم من العالم العربي أو الإسلامي إلى من يصادفه من أبناء البلاد الشيوعية.

لاحظت في شنغيانغ أن المساجد التي زرتها لم تكن بها مصاحف. وكل ما شاهدته هناك كان بعض الأواني الخزفية التي كتبت عليها بحروف عربية عبارات مثل "لا إله إلا الله" و"محمد رسول الله" و"الله أكبر".

ولا أنسى منظر أحد الأئمة حين قدمت إليه نسخة من المصحف، فظل يقبله وهو يبكي، ولا مشهد الشاب الذي جاءني ذات مرة ليتوسل إلي أن أعطيه مصحفا لكي يقدمه مهرا لمحبوبته التي ينوى الزواج منها.

ويؤكد لنا فهمى هويدي في شهادته الأخبار والحقائق التي تعرّضت لها من قبل .. فقال:

" كان التواصل مع الناس مستحيلا، ليس فقط بسبب اللغة، ولكن أيضا لأن الصينيين ممنوعون من الحديث للأجانب. والحصول على المعلومات كان صعبا للغاية. ولم ينقذني من المشكلة سوى اثنين

من الإيغور. أحدهما عمل في السعودية والثاني كان أبوه قد درس في الأزهر، ويعرف بعض الكلمات العربية المكسرة.

ذهبت إلى صلاة الجمعة في المسجد الكبير بأورومتشي، ولاحظت أن أغلب المصلين يرتدون الثياب البيضاء وأغطية الرؤوس من ذات اللون، لكن الواحد منهم يؤدي الحركات من ركوع وسجود وهو صامت تماما، وقيل لي إن أغلبهم لا يعرف كلمة واحدة من القرآن، وإنهم يعتبرون الجمعة يوم عيد، فيتطهرون ويستحمون ويرتدون الثياب البيضاء، ويتعطرون قبل ذهابهم إلى المسجد، ثم يصطفون ويؤدون الحركات بكل خشوع دون أي كلام. وأذكر أنني قلت وقتذاك أن هؤلاء أكثر ورعا من كثيرين يحفظون الكلام. لكن صلواتهم تخلو من أي أثر للخشوع.

كنت أعرف أن الإسلام وصل إلى الصين في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان عن طريقين، الأول طريق البر الذي عرف لاحقا باسم طريق الحرير، وكان الفرس هم الذين أوصلوا الإسلام إلى مناطق الشمال، ومن بينها تركستان الشرقية، ولذلك فإن الكلمات الفارسية تستخدم في المصطلحات الدينية (الصلاة عندهم تسمى "نماز" والوضوء وظوء).

الطريق الثاني عبر البحر، وقد سلكه التجار العرب الذين جاؤوا من حضرموت ومناطق جنوب اليمن، وأوصلوا الإسلام إلى الجزر

الإندونيسية وكانتون في جنوب الصين، وقد شاهدت بعضا من مقابر أولئك العرب الذين كتبت على شواهدها آيات القرآن الكريم.

وقتذاك كان المسلمون في شنغيانغ يشكون من التضييق عليهم في العبادة ومنعهم من الحج. كما كانوا يشكون من حرمانهم من الوظائف الحكومية وتفضيل الصينيين من عرق "الهان" عليهم.. وكانوا يعبرون عن القلق الشديد إزاء استمرار تلاعب الحكومة بالتركيبة السكانية للإقليم. إذ في الوقت الذي كانت تستقدم فيه أعدادا كبيرة من الهان من أنحاء الصين، فإنها كانت تقوم بتهجير الإيغور من مقاطعتهم إلى المدن الصينية الأخرى. وهو ما أدى في الوقت الحاضر إلى تراجع نسبة المسلمين الإيغور في شنغيانغ، إذ وصلت نسبتهم إلى 60٪ فقط من السكان بعد أن كانوا يمثلون 90٪.

ويعود فهمى هويدى إلى جذور الغضب بين الإيغوريين فيقول:

لم تكن هذه بداية غضب سكان الإقليم الأصليين، ولكنها كانت حلقة في سلسلة الصدامات التي لم تتوقف منذ أن اجتاحت الصين تركستان الشرقية في عام 1933 وضمتها رسميا في عام 1949

لم تتوقف السلطات الصينية عن محاولـــة تـــذويب المســـلمين الإيغوريين في المحيط الصيني الكبير وطمس هويتهم. آية ذلك مثلا أنها قررت منذ سنتين نقل مائة ألف فتاة إيغورية من غـــير المتزوجـــات (أعمارهن ما بين 15 و25 سنة) وتوزيعهن على منـــاطق مختلفـــة خارج شنغيانغ. الفتيات كن يجبرن على السفر، دون أن تعلم أسرهن شيئا عن مصيرهن، وكان ذلك من أسباب ارتفاع نسبة الاحتقـــان ومضاعفة مخزون الغضب بينهم.

وفي الأسبوع الأخير من شهر يونيو/حزيران الماضي قام العمال الإيغور بتمرد في مصنع للألعاب مقام قرب مدينة شنغهاي في جنوب البلاد، وهؤلاء عددهم سبعمائة شخص، كانوا قد هجروا إلى مناطق "كونغدوغ" التي أقيم المصنع بها.

وقد أعلنوا تمردهم لسببين، الأول أن أجورهم لم تصرف منـــذ شهرين، والثاني أن إدارة المصنع رفضت أن تخصص مساكن تـــؤوي المتزوجين منهم، التمرد أخذ شكل الإضراب عن العمل. لكـــن رد الفعل من جانب إدارة المصنع كان عنيفا. إذ تجمعت أعداد كبيرة من العمال الآخرين الذين ينتمون إلى أغلبية الهان (قدر عددهم بخمســـة آلاف) واقتحموا مكان تجمعهـــم "لتأديبـــهم"، واشـــتبك معهـــم الإيغوريون الغاضبون. وحسب شهود عيان فإن الاشتباك استمر من

التاسعة مساء إلى الخامسة في صباح اليوم التالي، حين تدخلت الشرطة وفضته.

البيان الرسمي ذكر أن اثنين من الإيغوريين قتلا، ولكن الإيغوريين أصروا على أن الذين قتلوا من شباهم يتراوح عددهم بين خمسين ومائة، أما الذين تم اعتقالهم أو فقدوا فقد قدر عددهم بالمئات.

المهم أن هذه الأخبار حين وصلت إلى شنغيانغ، فإن أهالي العمال بدؤوا يسألون عن أبنائهم وبناقم الذين لم يعرف مصيرهم. وحين مر أسبوع واثنان دون أن يتلقوا جوابا، فإنهم خرجوا في مظاهرة سلمية رفعت فيها صور المفقودين، وحين تصدت لهم جموع الهان ورجال الشرطة حدث الصدام الدموي الذي قال البيان الرسمي إن ضحاياه كانوا 150 من الإيغوريين، في حين ذكرت تقديرات الطرف الآخر أن عدد القتلى يزيد على أربعمائة.

لم تكن هذه بداية غضب سكان الإقليم الأصليين، ولكنها كانت حلقة في سلسلة الصدامات التي لم تتوقف منذ أن اجتاحت الصين تركستان الشرقية في عام 1933. وظلت كل انتفاضة للإيغوريين تقابل بقمع شديد بدعوى أنهم انفصاليون تارة وإرهابيون أخيرا، حتى قيل إن ضحايا القمع الصيني قدر عددهم بمليون مسلم ومسلمة.

الانتفاضة هذه المرة كانت أكبر من سابقاتها، الأمر الذي اضطر الرئيس الصيني إلى قطع اجتماعاته في قمة روما والعودة سريعا إلى بكين لاحتواء الموقف المتدهور في شنغيانغ. إذ من الواضح أن المسلمين هناك ضاقوا ذرعا بإذلالهم وحرمانهم من تولي الوظائف الرسمية، ومنعهم من صوم رمضان وأداء فريضة الحج ومصادرة جوازات سفر كل الإيغوريين لعدم تمكينهم من الحج إلا عبر الوفود التي تنظمها الحكومة، وتشترط أن يودع الراغب في الحج ما يعادل ستة آلاف يورو لدى الحكومة (وهو ما يعني إفقار أسرته)، وأن تتراوح سنه ما بين خمسين وسبعين سنة.

ويلخّص فهمى هويدى رؤيته في الحقائق التالية.. حيث يقول:

"مأساة شعب الإيغور تكمن في ثلاثة أمور، الأول أنهم يعيشون في قبضة دولة كبرى ظلت متماسكة عبر التاريخ، لم تتعرض للتفكك كما حدث مع الاتحاد السوفياتي مثلا.

الثاني أن بلادهم الشاسعة (1.6 مليون كيلو متر مربع تمثل خمس مساحة الصين وثلاثة أضعاف بلد مثل فرنسا) تتمتع بوفرة ثرواتها الطبيعية. إذ يقدر احتياطي النفط لديها بنحو ثمانية مليارات طن، ويجري في الوقت الحاضر استخراج 5 ملايين طن منه كل يوم.

هذا إلى جانب أنها تنتج ستمائة مليون طن من الفحم الحجري. وبها ستة مناجم يستخرج منها أجود أنواع اليورانيوم، إضافة إلى

وجود معادن أخرى على رأسها الذهب، والأمر الثالث أنهم مسلمون، ينتمون إلى أمة منبوذة في العالم، وتمثلها أنظمة لاهية ومهزومة سياسيا وحضاريا.

هم ليسوا مثل البوذيين في التبت الذين يتعاطف العالم مع قضيتهم. ولا مثل كاثوليك إيريان الغربية الذين وقفت الدول الكبرى مع استقلالهم عن إندونيسيا. ولا وجه لمقارنتهم باليهود الذين واجهوا مشكلة في أوروبا فقررت الدول المهيمنة حلها عن طريق تمكينهم من اقتلاع شعب فلسطين وإقامة دولة لهم على أرضهم.

يقول:

استطرادًا من هذه النقطة -وللعلم فقط- فان حجم التبادل التجاري بين الصين والدول العربية في العام الماضي 2008 وصل إلى 133 مليار دولار. وهذا الرقم يزيد سنويا بمعدل 40٪، وللعلم أيضا فإنه في الوقت الذي كان فيه مسلمو الإيغور يسحقون كانت 1100 شركة صينية تقيم المعرض الثالث لمنتجاتها في دبي.

للعلم كذلك قال لي أحد المسلمين الصينيين الذين يجيدون العربية إنه يكلف بمصاحبة وفود الحج الرسمية التي تزور الدول العربية بعد أداء الفريضة، وتلتقي بقادتها ومسؤوليها. وقد فجع صاحبنا لأنه أثناء تلك اللقاءات فإن أحدا من القادة العرب لم يحاول أن يسأل

الوفود التي رافقها عن أحوال المسلمين في الصين، الـــذين تقـــدرهم المصادر التركية بستين مليون نصفهم من الإيغور.

ملحقات

من مقال سابق لى بعنوان

"هوان المسلمين من الصين إلى ألمانيا"

كنت أعرف أن سينكيانج هى الإسم الصينى البديل لتركستان الشرقية .. وأهما الجزء الممتد من تركستان التاريخية فى داخل الصين .. والتى تمتد غربا فى قلب آسيا الوسطى كلها حتى روسيا .. هى موطن المسلمين الأتراك القدامى بلغته التركية التى تكتب بالحروف العربية .. وينتمى إليهم الشعب التركي الحالي سليل الأتراك العثمانيين الذين إنتهت إليهم الخلافة الإسلامية.. فرعوْها حق رعايتها وأقاموا حضارة إسلامية رائعة استمرت عدة قرون كانت فيه الدولة الإسلامية هى العالم الأول، وكانت أوربا هى العالم الثانى المتخلف .. كذلك عرفتُ أن تركستان فى سالف الزمان كانت كيانا سياسيا إسلاميا واحدا ثم تمزقت على يد إمبراطورية الروس القياصرة ثم الإتحاد السوفييتى والصين الشيوعية .. تقطعت أشلاء، وتوزّع كيانها فى أقليات عرقية صنعها اسْتالين عن قصدٍ.. وأن المسلمين فى الجزء الصيني من تركستان ينتمون إلى قبائل الإيجور .. وليس تعدادهم ثمانية ملايين كما يظن بعض الكتاب العرب ولا واحد وعشرين مليونا كما تكذب الصين .. ولكن يبلغ تعداد المسلمين فى الصين

مائة مليون حسب بعض التقديرات المستقلّة .. ولن تعرف حقيقة تعداد المسلمين الصحيح أبدا من تقارير الصين الشيوعية ..

أعرف أيضا أن الإيجور المسلمين تحت النظام الشيوعي خضعوا لاضطهاد متواصل منذ عهد ماوتسى تونج حتى الآن .. رغم منح إقليمهم حكما ذاتيا [وهو أمر لم يتحقق أبدا فى الواقع وإنما الذى تحقق عكسه تماما] فالحكومة المركزية منذ بضعة عقود وهى تخطط لتوطين مائة وخمسين مليون صينى من عرق الهان .. لإغراق المنطقة المسلمة بحيث يصبح المسلمون فيها أقلية ضعيفة تحت سيطرة أغلبية إستيطانية مدعومة من السلطة الحاكمة .. وأعرف أنه إمعانا فى إذلال المسلمين تم ترحيل ما يقرب من ربع مليون فتاة مسلمة من الإيجور يتراوح أعمارهن بين 16و25سنة إلى شرق الصين للعمل سخرة فى المصانع .. ثم إجبارهن على الزواج من غير المسلمين .. كنوع من الدعارة المقنّنة [كما ورد بالنص فى شهادة ربيعة قدير الناشطة الحقوقية الإيجورية ..] وقد عرض لها مهرجان ملبورن السينمائى (بأستراليا) فِلْم وثائقى يصوّر معاملات الصين الإجرامية ضد المسلمين الإيجور، فحاولت الصين وقف عرض الفلم ..! ذلك لأن الصين لاتدخر وسعا فى التعتيم على مأساة المسلمين فى سينكيانج .. وتلجأ إلى كل وسيلة لطمس الهوية الإسلامية فيها، وقد أنشأت مع روسيا منظمة شانغهاى التى تضم أيضا أنظمة شيوعية دكتاتورية

تشمل أوذبكستان وكازاخستان وقرغيزيا وطاجيكستان وانضـمّت إليها الهند فيما بعد .. و كان الهدف هو التعاون معا علـى محاربـة الإرهاب [يقصدون الإسلام طبعا]...! كنت أعرف كل هـذا .. حتى الأسبوعين الأخيرين فإذا بوسائل إعلامنا تنقل إلينـا أخبـارا عجيبة عن إضطرابات عرقية فى الصين بين فريقين: واحد إسمه خـان والثاني إسمه إيغور فى إقليم يسمى شنْغيانغ (أسماء لم آلفها من قبل).. وأن هذه الإضطرابات قد أسفرت عن مقتل مائتى شخص وإصـابة ألفٍ .. فى معارك استخدمت فيها السكاكين والأسياخ المعدنيـة .. والحقيقة أننى لم أفهم الحكاية فى بادئ الأمر، فقـد ردّدت وسـائل الإعلام العربية والأعجمية نفس المحتوى الإخباري دون إشارة لحكاية أن هؤلاء الإيغور مسلمون إطلاقا وأنهم كانوا المستهدفين بالقتـل.. وكدت أن أصرف النظر عن الموضوع إلى ماهو أيسر على الفهم .. لولا أننى تنبّهت إلى حقيقة غابت عن ذاكرتى من فنـون التغطيـة الإعلامية الحديثة .. اصطنعتها ثلّة من خبراء التمويه وتشتيت الأفكار (تناولتُها مفصلا فى مقالة سابقة) وذلـك لصـرف الشـعوب .. و[المسلمين] بالذات عن فهم مايدور حولهم وما يُخطّط لهـم مـن مصائر .. سأضرب لك مثلا بسيطا يقرّب المسألة إلى الذهن:

لنفترض أنك دُعيت لتسلية مسرحية .. فإذا انت أمام مشهد مصارعة بين رجلين قد أُلْبس كل منهما قناعا بحيث لاتستطيع معرفة

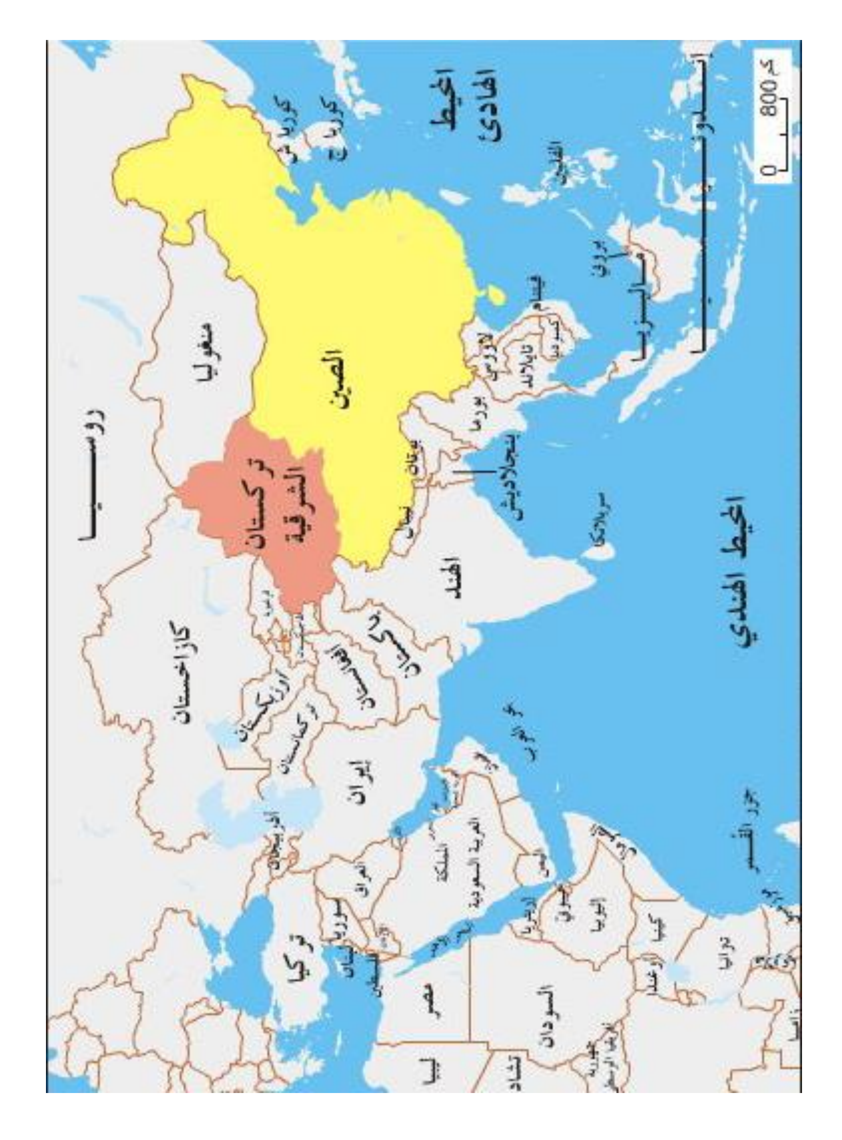
شخصيته .. احتدمت المعركة بالأيدى.. ولكن أحدهما كان رشـيقا يتحرك بسرعة حول خصمه ويكيل له الضربات من كل جانـب .. أما الآخر فكان متخشبا لا يتحرك من مكانه ولا يفعل أكثـر مـن تحريك يديه يمينا وشمالا كالأبله فلا تصل إلى خصـمه .. وانتـهت الجولة بسقوط المتخشّب وانتصار الـديناميكي .. وصـفق جميـع الحاضرين للمنتصر .. وكذلك فعلتَ أنت منجرفـا مـع حمـاس الجماهير.. تابعتَهم متعاطفا مع ذلك المصارع الـذى أحسـن دوره وتصرف بمهارة وحيوية .. ولكن حدث بالصدفة المحضة وقبـل أن يُسدل الستار أن صدرت صرخة استغاثة هائلة من المهـزوم فهـب المتفرجون يرتقون خشبة المسرح وليروْا هذا المشهد الذى لم يكـن يخطر على بال أحد .. المصارع المهزوم كانت قدماه مسلسلتان فى الأرض و لم يلحظ أحد ذلك من بداية الجولة إلى نهايتها لأن إضـاءة المسرح عتّمت على الأرض حيث موضع الأقدام .. ثم تأتى المفاجاة الثانية إليك: فعندما رفع المشاهدون القناع عن وجه المهزوم إذا بـه وجه أخيك الذى غُدر به أمامك .. وأنت تصفق لخصـمه الغـادر وتتعاطف معه وتعجب بمهارته وقوته .. هذا هو على وجه التحديد الهدف الأساسي من الإعلام الموجّه إلى عقلول المسـلمين: أنصـاف حقائق، وتشويش وقائع، وتمويه أسماء، وأقنعة .. أمور يحتار فى فهمها اللبيب، فما بالك بخالى الذهن من المسلمين وهم الغالبية العظمى ...

(2) أكاد أسمعك تقول: أهذا شيء معقول ..,,؟! هل يمكن أن يحدث مثل هذا وأنا غافل إلى هذا الحد من الغفلة ..؟! وأقول لـــك وأكثر منه يحدث كل يوم .. بل فى كل لحظة تفتح فيها جهاز التلفزة أو تفتح صحيفتك اليومية لتطّلع على أخبار العالم .. فالأخبار الـــتى لايتم التركيز عليها من قبل الصحافة الحرة .. والتى لا تقع فى مرمى كاميرات التلفزة الحرة مثل مشاهد الاجتياح الإسرائيلى لغزة وإغلاق معبر رفح .. ومثل وقائع الغزو الأمريكى على أفغانستان والعراق .. لولا جرأة وتضحيات صحفيين أحرار مثل تيسير علّـــونى وصـــاحبه سامى الحاج لما تيسر لنا ولا للعالم كله أن يرى صور الجرائم البشعة التى ارتكبتها القوات الأمريكية أو الإسرائيلية .. ولو كُنّا قد اعتمدنا على ما يبثه الإعلام الأمريكي المضلل.. وعلى إعلامنا الرسمي المزيّف لما عرفنا حقيقة ما وقع فى غزة وفى أفغانستان والعراق أبدا، تســـأل لماذا..؟! وأقول:

لقد أصبح تقديم الأخبار فنًّا دراميا وصناعة مسرحية تُســـتخدم فيها كل حيل المسرح وأساليبه حتى الموسيقى التصـــويرية ..! وإذا أردت المزيد من الفهم فى هذا الجانب العجيب فإننى أحيلك إلى مقال قديم لى بعنوان: "الحيل الدرامية فى الأخبار الأمريكية" .. نحن كعرب لم نبتدع شيئا فى هذا المجال وإنما نأخذ الأخبـــار جـــاهزة الصـــنع والفبركة .. لا عن جهل وسذاجة من قبل أنظمتنا المتسلّطة .. ولكن

لاشتراك الجميع فى نفس الأهداف .. تضليل الوعي وتشويش الفكر والتلاعب بالضحية..

خرائط وصور:



خريطة دول آسيا الوسطى



ضابط صيني يكتف مسلمًا ويقتله في الشارع



وهكذا يسوقون المسلمين إلى السجون لقتلهم في الظلام



تعريف بالمؤلف
للدكتور كمال عرفات نبهان

الأستاذ محمد يوسف عدس:

- مفكر وكاتب موسوعي ، جمع بين الفلسفة والمكتبات والمعلومات والاقتصاد والسياسة والإدارة والتاريخ ..

- ولد فى قرية بهوت بالدقهلية (مصر) سنة 1934م. ولهذه القرية تاريخ مشهور فى الثورة على الاقطاع ..

- تعلم فى مدارس بهوت والزقازيق والمنصورة ، وتخرّج من قسم الدراسات الفلسفية بآداب جامعة القاهرة ، عام ١٩٥٧م. والتحق -فيما بعد- بالدراسلت العليا فى أستراليا.

- كان من أوائل من عملوا أمناء متخصِّصين للمكتبات المدرسية ، وبدأ عمله سنة ١٩٥٨ بمدرسة طوخ الثانوية ؛ فكان رائدًا لحركة ثقافية فى هذا المجتمع خلال الستينات من القرن العشرين.

- عمل مديرًا للمركز الثقافي المصري فى الفلبين من ١٩٦٤-١٩٦٥. ثم موجهًا للمكتبات المدرسية فى محافظة القليوبية ؛ وأنشأ أول مكتبة سمعية فى مصر، وعدة مكتبات أخرى للإطفال ، واهتم

بالدراسات التحليلية لأدب الأطفال ، وله فى هذا المجال مقترحات إصلاحية ..

- هاجر إلى أستراليا عام ١٩٧١، وعمل خبيرًا بمكتبة جامعة "بندجو" بولاية فكتوريا من ١٩٧١- ١٩٧٤م .

- انتقل سنة ١٩٧٤ إلى المكتبة القومية الاسترالية فى كامبرا (العاصمة الفدرالية) ليسهم فى إصدار الببليوجرافيا الوطنية ، وفى تطوير المكتبة الوطنية للأفلام .. وقد تبنّت مكتبة أستراليا الوطنية مشروعه لإنشاء أرشيف لشخصيات المستقبل؛ بجمع ماينشر عن الشباب المتميز فى شتى المجالات بالصحف والمجلات، وإنشاء ملف خاص بكل واحد منهم تجمع فيه كل القصاصات الصحفية، مما يشكل سيرة تراكمية لأخباره وتطورحياته وانجازاته.

- أتاحت له المكتبة القومية(أثناء العمل) فرصة الالتحاق بالدراسات العليا بجامعة كانبرا؛ فأتم دراسة المكتبات والمعلومات وإدارة المؤسسات خلال ثلاث سنوات انتهت سنة ١٩٧٧.

- فى سنة 1980أنتدبته منظمة اليونسكو خبيرا ليشرف على إنشاء وتجهيز مكتبات جامعة قطر الجديدة، ووضع سياسة للتزويد وبرامج لتدريب الأمناء والعاملين بها، وإنشاء وسائل منهجية لتقييم الأداء الوظيفي.

- في وقت لم يكن هناك شيئ إسمه شبكة الإنترنت أنشأ بالمكتبة نظاما إليكترونيا للاتصال بقواعد المعلومات العالمية ، وذلك لخدمة الباحثين وطلاب الدراسات العليا، بالاطّلاع على أحدث المقالات والأبحاث العلمية، وخلاصات للرسائل الجامعية في شتى المجالات العلمية.

- تولى إدارة مكتبات جامعة قطر بين ١٩٨٧ و١٩٩١م لاستكمال مشروع ميكنة المكتبات.

- له العديد من الدراسات في علم المكتبات وتكنولوجيا المعلومات ، وإسهامات عديدة في المؤتمرات والندوات حول تطوير المكتبات الجامعية بدول الخليج .

- انتدبته منظمة اليونسكو كمستشار لها في مهمات خارج قطر، وموافاتها بتقارير ميدانية، عن تطوير الخدمات المكتبية، ونظم المعلومات: في سلطنة عمان ، واليمن الجنوبية ، والبحرين . كما انتدبته في بعثة خاصة إلى مجلس الوحدة الاقتصادية العربية (كان مقره حيذاك في عمّان – الأردن) ، وإلى إدارة الأزهر بالقاهرة لتقديم مقترحات تساعد في تطوير مكتبة الأزهر الجديدة، ومكتبة جامعة الأزهر..

- في أثناء عمله وخلال عشر سنوات قضاها في قطر، كانت له إسهامات ونشاطات عامة متعددة، في مجالات مختلفة: فقد كان

من الأعضاء المؤسِّسين لمشروع " إسهامات المسلمين فى الحضارة العالمية" الذى استهدف اختيار مائة كتاب من أبرز الكتب العربية التى أعتبرت ركائز هذه الحضارة فى شتى مجالات المعرفة العلمية والفكرية، وإعادة نشرها وترجمتها إلى اللغات الحية الكبرى لتعريف العالم الغربى بحقيقة ما توصّل إليه العقل المسلم فى تقدّم الحضارة العالمية.

ودعته الإذاعة القطرية لتقديم سلسلة من الحوارات والأحاديث حول القراءة، والتثقيف الذاتى.. وصدرت له مجموعة من المقالات فى مجلة "الدوحة" و "مجلة التربية" القطرية، وصحيفة الشرق القطرية، وغيرها من الصحف والمجلات، كانت تدور معظمها حول: ،الاستخدام الأمثل لموارد المكتبات، والتعريف بما طرأ من تقدمات فى هندسة المعلومات ، واستخدامها فى مجالات التربية والتعليم، وتنمية التحصيل المعرفي لدى التلاميذ .. وتهيئة المعلّمين لعصر ثورة المعلومات..

– عاد إلى مصر فى يولية ١٩٩١ ليتفرغ للبحث والكتابة عن قضايا الاقتصاد الإسلامي ، وعن الأقليات المسلمة المضطهدة فى العالم ، وعن الظلم الإمبريالي للشعوب المستضعفة فى العالم الثالث .. وكشف الأقنعة عن منظمات دولية تتستّر خلف شعارات التنمية ، مثل البنك والصندوق الدوليين ، ومنظمة التجارة العالمية .. وكشف

عن التطهير العرقي وعمليات الاستئصال والإبادة ضد المسلمين في البوسنة وكسوفا ومقدونيا والفلبين والشيشان وآسيا الوسطى ..

- كتب عن شخصيات مؤثرة في العالم (إيجابًا وسلبًا) منها : على عزت بيجوفيتش ، ومحمد أسد ومحمد إقبال .. وجورج جالاوي ، وجورج دبليو بوش ، وديك تشيني..

- بلغت كتبه المنشورة 26 كتابًا ، وكتبه تحت الطبع 4 كتب.. إلى جانب مئات المقالات والأبحاث المنشورة في الصحف والمجلات العربية ..

تطورت مكتبة جامعة قطر في فترة إدارته لها تطورا سريعا وملحوظا: فمن ناحية المقنيات– إرتفع مجموع الكتب من 20ألف مجلد سنة 1884 إلى 250 ألف مجلد، وارتفعت طاقة الفهرسة والإعداد الفنى للكتب إلى 37ألف مجلد فى العام وهى طاقة يندر وجودها فى المكتبات الكبرى وفقا للمستويات المعيارية المعروفة، وزادت مقتنيا المكتبة من الدوريات العلمية من 150 [عنوان] دورية باللغة العربية واللغات الأجنبية إلى ألفيْ دورية ، وهو نفس الرقم الذى كانت تفخر باقتنائه مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وهى مكتبة قديمة وعريقة..

كما أضيف إلى مقتنيات المكتبة الأعداد السابقة للمجلات العربية التى توقفت عن الصدور مثل: الرسالة، والثقافة، والمنار،

وغيرها، وعدد كبير من المخطوطات العربية، والرسائل الجامعية، كما شملت مجموعات المكتبة أوعية أخرى للمعلومات كالميكروفيلم والميكروفيش، والتسجيلات الصوتية ، والشرائح المصورة.. وكانت هذه المواد تُجلب من شتى بقاع العالم، فقد أُنشئ بالمكتبة قسم متخصص للتزويد يضم مجموعة من الخبراء المدربين، كانت مهمتهم بحث ومتابعة مصادر المعرفة فى كل مظانّها بشتى بقاع العالم.. وأصدرت المكتبة عددا من البيبليوجرافيـــات المطبوعة بمقتنياتها المختلفة ، لخدمة البحث العلمى وطلاب الدراسات العليا..

صمم للجامعة برنامجا للدراسات العليا فى المكتبات والمعلومات، لتأهيل الراغبين من الخريجين للعمل فى المكتبات، وساهم مع أكاديميين آخرين بتدريس مادة "استرجاع المعلومات عن طريق البحث الآلي".

وفى أثناء عمله وخلال عشر سنوات قضاها فى قطر، كانت له إسهامات ونشاطات عامة متعددة، فى مجالات مختلفة:

أولا- كان أحد الأعضاء المؤسسين لمشروع " إسهامات المسلمين فى الحضارة العالمية" كما ذكرنا آنفًا.

ثانيا – استضافته الإذاعة القطرية لتقديم سلسلة من اللقاءات الأسبوعية مع مذيعيْن من أبرز الإعلاميين وأشهرهم حينذاك هما: يوسف حيدر السورى، و صلاح خليفة المصرى، وقد استمرت

حلقات هذه السلسلة لمدة عامين، وكان موضوعها الأساسي هو القراءة، والتثقيف الذاتى. وقد دارت حول العناوين التالية :

لَمَ يجب أن تقرأ..؟ وماذا تقرأ..؟ وكيف تقرأ قراءة هادفة..؟ وكيف تستوعب.. وتلخّص ما استوعبتَ..؟.. وكيف تُنمِّى مهاراتك فى القراءة ..؟ وكيف تُقيّم وتختار الكتب للاقتناء والقراءة..؟ وكيف تبحث فى المكتبات..؟؟ وكيف تستخدم المصادر المرجعية فى البحث عن المعلومات..؟ وكيف تصنع لنفسك برنامجا للقراءة المستديمة..؟؟

ثالثًا– فى إطار إتحاد الدول الخليجية: أسهم فى جميع لقاءات، ومناقشات عمداء المكتبات الجامعية ، وفى جميع الندوات التى انعقدت بهذا الخصوص، وقدّم فيها مقترحات وأوراق بحث حول: إنشاء شبكة معلومات موحدة بدول الخليج، وخدمة استرجاع المعلومات عن طريق البحث الآلي المباشر، وإنشاء فهرس آلى موحّد لجميع مقتنيات مكتبات الجامعات الخليجية، وإنشاء نظام تبادل الإعارة بين هذه المكتبات..

رابعًا : أسهم فى مؤتمر الجامعة العربية ممثلا لجامعة قطر(الذى انعقد فى تونس عام 1987) لبحث أساليب ميكنة فهارس المكتبات الجامعية فى البلاد العربية..

استقال من عمله قبل أن يصل إلى السن القانونية للتقاعد بأربع سنوات، لكي يتفرغ للكتابة التي يعشقها ويحلم بها من زمن طويل، بعيدا عن أسْر الوظيفة وقيودها..

وقد تطوّع بعض الأصدقاء بإنشاء موقع خاص باسمه في شبكة الإنترنت ورابطه هو:"http://www.myades.com"

كتب منشورة للمؤلف

١- الإسلام بين الشرق والغرب. تأليف على عزت بيجوفيتش، (ترجمة) ، تقديم الطبعة الثالثة للدكتور عبد الوهاب المسيري. القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩

٢- مختصر الإسلام بين الشرق والغرب: إعداد وتقديم . ط١.القاهرة: دار المختار الإسلامي ، ط٢ مكتبة الإمام البخاري، ٢٠٠٩

٣- الإعلان الإسلامي. على عزت بيجوفيتش،(ترجمة). القاهرة: دار الشروق ، ١٩٩٩ وطبعة٢ مكتبة الإمام البخاري ، ٢٠٠٩

٤- مذكرات على عزت بيجوفيتش (ترجمة واختصار). ط١، القاهرة: دار المختار الإسلامي، ٢٠٠٤ وط٢ مكتبة الإمام البخاري، ٢٠٠٩.

٥- مشروعات الإصلاح والنهوض بالعالم الإسلامي فى فكر الرئيس على عزت بيجوفيتش. الجيزة: مركز الإعلام العربي، ٢٠١٢.

٦- البوسنة فى قلب إعصار. القاهرة: دار المختار الإسلامي ، ٢٠٠٠.

٧- كوسوفا بين التشويه والأساطير. القاهرة: المختار الإسلامي ، ١٩٩٨.

٨- كوسوفا بين الحقائق التاريخية والأساطير الصربية. القاهرة: دار المختار لإسلامي،٢٠٠٠

٩- الحرب الشيشانية بين التأليف والتزييف. القاهرة: دار المختار لإسلامي ، ٢٠٠٠.

١٠- محمد أسد: سيرة عقل يبحث عن الإيمان. ط١ القاهرة: دار المختار الإسلامي، وط٢ مكتبة الإمام البخاري. ٢٠٠٩.

١١- تجديد الفكرالديني فى الإسلام لمحمد إقبال- الإسكندرية، مصر: مكتبة الإسكندرية ، ٢٠١٠ (تمت ترجمته بتكليف من مكتبة الإسكندرية ضمن مشروع إعادة نشر مؤلّفات المفكرين الإصلاحيين فى العالم الإسلامى).

١٢- الإمبريالية الأمريكية من الغطرسة إلى الانهيار. تقديم أ.د. عادل حسن غنيم. القاهرة: مكتبة ألإمام البخاري للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.

١٣- نهب الفقراء: الإنسان فى عالم التكتُّلات الاحتكارية . تقديم أ.د. كمال عرفات نبهان. القاهرة: مكتبة ألإمام البخاري للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.

١٤- الشيطان طبيًا : الحرب البيولوجية على العالم الثالث. القاهرة: مركز الإعلام العربي، ٢٠١٣.

١٥- الدولة العثمانية فى أوربا: من سمات العبقرية فى الحضارة الإسلامية. تقديم أ.د. عادل حسن غنيم . القاهرة: مكتبة ألإمام البخاري للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.

١٦- الفلبين . القاهرة: دار المعارف .١٩٦٩ (سلسلة شعوب العالم) .

١٧- البؤساء: مجموعة من القصص الفلبينية القصيرة للأديب الفلبيني "بيينْفِنيدو سانْتوس" (ترجمة). القاهرة: المؤسسة الدولية للنشر والمعلومات ، ١٩٨٤.

١٨- الدولة اليهودية، لثيودور هرتزل. (ترجمة). تقديم ومراجعة أ.د. عادل حسن غنيم. ط٢ القاهرة: مركز نصوص ،٢٠٠٦ صدرت طبعته الثالثة من مكتبة البخارى ٢٠٠٩م.

١٩- سقوط الأكاذيب : تفنيد شبهات العلمانيين حول الشريعة الإسلامية. القاهرة: مكتبة ألإمام البخاري للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.

٢٠- تاريخ بهوت : مخطوطة بقلم صالح محمد فارس (بحث وتحقيق). القاهرة: جزيرة الورد،٢٠١٣.

٢١- تاريخ القليوبية: مخطوطة بقلم صالح محمد فارس (بحث وتحقيق). القاهرة: جزيرة الورد،٢٠١٤.

--٢٢The History of Israeli-Arab Conflict (1952-1975); an Annotated Bibliography. Canberra College of Advanced Education. (Australia), 1976

٢٣- المترفون والمفسدون فى الأرض . من إصدارات المعهد العالمي للوسطية ، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ،٢٠١٦ م

٢٤- رحلة عقل فى دروب الفكر والأدب . القاهرة : مكتبة جزيرة الورد ، ٢٠١٦م

25- نافذة على فكر محمد إقبالا وإبداعاته الشعرية. القاهرة مكتبة جزيرة الورد ،٢٠١٦ م

26- الإسلام والمسلمون في الفلبين: من إصدارات مركز دراسات العالم الإسسلاميّ ، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ، 2017 م.

27- الإسلام والمسلمون في آسيا الوسطى...

كتب تحت النشر:

28- الثورة المصرية : معركة حياة أو موت .

29- الفارس المجهول فى الحرب الفلسطينية.

30- الإسلام والمسلمون فى مقدونيا.

31- ملحمة الإسلام العالمية.